أبو فهر
محمود محمد شاكر



رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

«مفتاح كل كتاب فهرس جامع،
فاقرأ الفهرس قبل كل شيء»

الناشر

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٨٢٧٨٥١

دار المدني بجدة
شارع الصحافة حي مشرفة
تليفون : ٦٧٠٠٧٨٨ - فاكس : ٦٧١٣٤٢٤

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م

رقم الإيداع : ٢٠٩٨ / ٨٧

مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٨٢٧٨٥١

أبو فهر
محمود محمد شاكر

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا



بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ :

« ألَا لَا يَمْنَعَنَّ رجُلاً هَيْبَةُ الناس ، أن يقول بحقٍّ إذا عَلِمَهُ » (١)

الحمدُ لله حمداً يُبَلِّغنى رضاهُ ، وإن كانَ جَهْدُ الحمدِ لا يَفِى بشُكْرِ نِعْمة واحدةٍ من نِعَمِه . اللهمَّ تجاوزْ عن تقصيرى فى حَمْدك ومَرْضاتك . اللهمَّ إنِّى فقيرٌ فأغْنِنِى ، وضعِيفٌ فقوِّنى ، وحَائرٌ فسدِّدنى ، ومَريضٌ فٱشفِنى ، وجاهلٌ فعَلِّمنى ، وعاصٍ مُذْنِبٌ فَتُبْ علىَّ إنك أنتَ التوَّاب الرحيم . اللهمَّ صَلِّ على محمَّدٍ صلاةً أزْدَلِف بها إلى مغفرتِك ، وسلِّم عليه تسليماً يَحْشُرنى فى زُمْرةِ أوليائه ، ويُدْخِلُنى فى شَفاعته يومَ لا شفيعَ إلاّ بإذنك . وصلِّ اللهُمَّ على أَبوَيْهِ الرسولين الكريمين إبرٰهيم وإسمٰعيلَ ، وعلى سائر المُخْلَصين من أنبيائك ورُسُلك . ربِّ ٱغفر لى وٱرحمنى برحمتك التى وسعت كُلَّ شيءٍ .

...

كلمةٌ لابُدَّ منها ، إلى قارىء كتابى هذا : « المتنبىّ »

لكىْ تكونَ على بيِّنةٍ ....

---

(١) هو من حديث أبى سعيد الخدرى ، من خطبة خطبها رسول الله ﷺ ، رواها أحمد فى المسند بطولها ٣ : ١٩ ، والترمذى فى السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب ما جاء ما أخبر به النبى ﷺ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة » ، ورواه مختصراً كما أثبتُّهُ أحمد فى المسند ٣ : ٥ ، ٧١ ، وابن ماجه فى السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

١ - آعلم أنّى قَضيتُ عشرَ سنواتٍ من شبابى ، فى حَيْرَةٍ زائغة ، وضَلالةٍ مُضْنِيةٍ ، وشكوكٍ مُمَزِّقةٍ ، حتى خِفْتُ على نفسى الهلاكَ ، وأن أخسَرَ دُنْيَاىَ وآخِرتى ، مُحْتَقِباً إثْماً يَقذفُ بى فى عَذَابِ الله بما جَنَيْتُ . فكانَ كُلّ همّى يومئذٍ أن ألتمِسَ بَصِيصاً أهتدى به إلى مَخْرجٍ يُنْجِينى من قَبْرِ هذه الظُّلُمات المُطْبِقةِ علىَّ من كُلّ جانبٍ . فمنذُ كنت فى السابعةَ عشرةَ من عمرى سنة ١٩٢٦ ، إلى أن بلغت السابعة والعشرين سنة ١٩٣٦ ، كنتُ منغمِساً فى غِمارِ حياةٍ أدبية بدأتُ أحسُّ إحساساً مُبْهماً متصاعداً أنّها حياةٌ فاسدةٌ من كُلِّ وجْهٍ . (١) فلم أجدْ لنفسى خلاصاً إلاّ أن أرفُضَ متخوِّفاً حَذِراً ، شيئاً فشيئاً ، أكثرَ المناهج الأدبيّة والسياسية والاجتماعية والدينية التى كانت يومئذٍ تَطْغَى كالسيل الجارِف ، يهدمُ السدودَ ، ويُقوِّض كُلّ قائمٍ فى نفسى وفى فِطْرتى .

ويومئذٍ طوَيْتُ كُلَّ نفسى على عزيمةٍ حذّاء ماضيةٍ : أن أبدَأ ، وحيداً منفرداً ، رحلةً طويلةً جدًّا ، وبعيدةً جدًّا ، وشاقّةً جدًّا ، ومُثِيرَةً جدًّا . بدأتُ بإعادة قراءة الشعر العربىّ كُلِّه ، أو ما وقَع تحتَ يدى منه يومئذٍ على الأصحِّ ، قراءةً متأنِّية طويلةَ الأناةِ عند كُلِّ لفظٍ ومعنىً ، كأنِّى أُقَلِّبُهما بعقلى ، وأَرُوزُهما (أى : أَزِنُهما مختبراً) بقلبى ، وأَجُسُّهما جَسًّا ببصرى وببصيرتى ، وكأنِّى أريدُ أنْ أتحسَّسَهما بيدى ، وأَسْتَنْشِيَ (أى : أَشَمَّ) ما يَفُوحُ مِنْهُما بأنفِى ، وأَسَّمَّعَ دَبيبَ الحياةِ الخفىِّ فيهما بأذنَىَّ = ثُمَّ أتذوَّقُهما تذوُّقًا بعقلى وقلبى وبَصيرتى وأَنَامِلِى وأنفى وسَمْعى ولسانى ، كأنى أطلُبُ فيهما خَبيئاً قد أخفاهُ الشاعرُ الماكرُ بفنّه وبراعتِه ، وأتدسَّسُ إلى دَفينٍ قد سقط مِن الشاعر عَفْواً أوْ سَهْواً تحت نَظْم كلماتِه ومعانيه ، دون قَصْدٍ منه أو تَعَمُّدٍ أو إرادةٍ . (٢)

---

(١) انظر مقدمة كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٠ ، ١١ ، ومواضعَ أُخر مما كتبتُ .

(٢) قد حسمتُ قضية « التذوُّق » ، ولم سمَّيْتُ منهجى منهج « التذوُّق » ، فى كلمتين نشرتهما فى مجلة =

٢ – لا تقُلْ لنفسك : « هذا مَجَازٌ لفظىٌّ » ! كلَّا ، بل هو أشبهُ بحقيقةٍ أيقنتُ بِها ، لأنّى سخَّرتُ كُلَّ ما فَطرنى اللهُ عليه ، وأيضاً ، كُلَّ معرفةٍ تُنَال بالسَّمْع أو البَصَر أو الإحساس أو القراءة ، وكُلَّ ما يدخُل فى طَوْقى من مراجعة واستقصاءٍ بلا تهاونٍ أو إغفالٍ = سخَّرتُ كُلَّ سَلِيقةٍ فُطِرتُ عليها ، وكُلَّ سَجِيَّةٍ لانَتْ لى بالإدراكِ ، لكَىْ أنفُذَ إلى حقيقة « البَيَانِ » الذى كرَّم الله به آدمَ عليه السلام وأبْنَاءَهُ من بعدِه . وهذا أمرٌ شاقٌ جدًّا ، كانَ ، ومُثِيرٌ جدًّا ، كان ، ولكن المطلبَ البعيدَ هوَّنَ عندى كُلَّ مشقَّةٍ وضَنًى .

٣ – اكتسبتُ يومئذٍ بعضَ الخبرةِ بلغة « الشعر » ، وبفنِّ الشُّعراءِ وبراعاتِهم . ثُمَّ آنفتحَ لى ، فى خلالِ ذلك ، بابٌ آخر من النَّظر . قلت لنفسى : « الشعر » كلامٌ صادرٌ عن قلبِ إنسانٍ مُبِينٍ عن نفسه . فكُلّ « كلامٍ » صادرٍ عن إنسانٍ يريدُ الإبانة عن نفسه ، خليقٌ أنْ أُجْرِىَ عليهِ ما أَجريتُه على « الشعر » من هذا « التذوّق » الشامِل الذى وصفته آنفاً . فأخذتُ أُهْبَتى لتطبيق هذا « التذوّق » على كُلِّ كلامٍ ، ما كانَ هذا الكلامُ . فأقدمتُ إقدامَ الشبابِ الجرىء على قراءَة كُلِّ ما يقع تحتَ يَدِى من كُتُب أسلافنا : من تفسيرٍ لكتاب الله ، إلى علوم القرآن على اختلافها ، إلى دواوين حديث رسول الله ﷺ وشُرُوحها ، إلى ما تفَرَّع عليه من كتُب مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل ، إلى كُتُب الفقهاءِ فى الفقه ، إلى كتب أصول الفقه وأصولِ الدين (أى : علم الكلام) ، وكتُب الملل والنِّحَل ، ثم كتب الأدب وكتب البلاغة ، وكتب النَّحْو وكتب اللغة ، وكُتُب التاريخ ، وما شئت بعد ذلك من أبواب العلمِ . وعَمَدتُ فى

= الثقافة فى العددين : ٦١ (أكتوبر سنة ١٩٧٨) / ٦٣ (ديسمبر سنة ١٩٧٨) ، وأنّى لا أعنى به ما يجرى على ألسنة الكتاب : « يتذوّقُ الجمال » و « يتذوق الفن » ، فهذا كلامٌ غيرُ دَالٍّ على منهج . وليس هذا مكانَ بيانه مرةً أخرى . ولم أتمَّ كتابة هذه المقالات ، وسأنشرها قريبًا بعنوانها : « المتنبى ليتنى ما عرفتُه » .

رحلتى هذه إلى الأقدمِ فالأقدمِ . كُلُّ إرْث آبائى وأجدادى ، كنت أقرؤه على أنّه إبانَةٌ منهم عن خَبايا أنفسهم بِلُغتِهم ، على اختلاف أنظَارهم وأفكارهم ومناهجهم . وشيئاً فشيئاً انفتح لى البابُ يومئذٍ على مِصْراعَيْه . فرأيتُ عجباً من العَجبِ ، وعَثرتُ يومئذٍ على فيضٍ غزيرٍ منْ مُسَاجَلَات صامتَةٍ خفيَّةٍ كالهمسِ ، ومساجلاتٍ ناطقةٍ جَهيرة الصوت ، غيرَ أنَّ جميعَها إبانَةٌ صادقةٌ عن هذه الأنفس والعقول .

أمدَّتنى هذه التجربةُ الجديدة بخِبْراتٍ جَمَّةٍ متباينة متشعِّبةٍ ، أتاحت لى أنْ أجعل منهجى فى « تذوّق الكلام » منهجاً جامعاً شاملاً متشعِّبَ الأنحاءِ والأطْرافِ ، يزدَادُ مع تطاوُل الأيام رَحابةً وسَعَةً ، وحِدَّةً ومَضاءً ، ونَفَاذاً ودِقَّة ، وشُمولاً واستقصاءً .

٤ – ولا أزعُمُ ، مَعَاذ الله ، أنّى آبتدعتُ هذا المنهج ابتداعاً بلا سابقةٍ ولا تمهيد ، فهذا خَطَلٌ وتَبجُّحٌ . بل كُلُّ ما أزعُمهُ أنّى بالجُهْد والتَّعب ، وبمعاناة التفتيش فى هذا الرُّكَامِ من الكلام ، جمعتُ شَتَات هذا المنهج فى قلبى ، وأصَّلت لنفسى أصولَه ، مع طول التنقيب عنْه فى مَطاوِى العِبَارات التى سبق بها الأئمة الأعلام من أصحاب هذه اللغة ، وهذا العلم ، فى مباحثهم ومساجلاتهم ومُثَاقَفاتهم وما يتضمَّنه كلامهم من النقد والاحتجاج للرأى . وكلُّ ما وقفتُ عليه من ذلك ، كان خفيًّا فآستَشْفَفْتُه ، ودَفِيناً فآستَنْبطتُّه ، ومشتَّتاً فجمعتُه ، ومفكَّكاً فلاءَمْتُ بين أَوْصالِه ، حتى استطعتُ بعد لأْيٍ أن أمهِّد لفكرى طريقاً لاحباً مُسْتَتِبًّا يَسيرُ فيه ، أى صيَّرتُه « منهجاً » التزمتُ به فيما أقرأُ وما أكتب .

ومع ذلك ، فقد كنت أتوهَّم فى سنة ١٩٣٥ حين فرغتُ من إجراءِ منهجى فى « تذوّق الشعر » على كل كلامٍ غير الشِّعر ، أنّى قد سَبَقْتُ إلى ذلك ، حتى كانت سنة ١٩٥٦ ، أى بعد أكثر من عشرين سنة ، حين طُبِعتْ « الرسالة الشافية » للإمام

الجُرْجانىّ ، [١] (عبد القاهر بن عبد الرحمن الجُرْجانى ، المتوفى سنة ٤٧٤ تقريباً) ، فوقفْت على فصلٍ نفيس جدًّا كتبه الإمام الجرجانى الكبير ، هو أوضحُ ما قرأْتُه قطُّ ، فى إجراء « التذوُّق » على كُلِّ كلامٍ ، فى كُلِّ عِلْمٍ ، مَهما ظننتَ أنّه أبعدُ علمٍ من إجراء « التذوُّق » عليه . وكلامُ هذا الإمام الجليل ، وإن لم يكن صريحاً كُلَّ الصراحة فى الدلالة على منهجى ، إلاّ أنّه أشبهُ شيءٍ به . و « الرسالة الشافية » رسالةٌ فى إعجاز القرآن ، من غير الوجه الذى بَنَى عليه كتابه « دلائل الإعجاز » . وهذا الفصْل من الرسالة ، [٢] بيانٌ لحالِ المعانى : « وأن الشاعرَ يسبقُ فى الكثير منها ، إلى عبارة يُعْلَم ضرورةً أنها لا يجيءُ فى ذلك المعنى إلاّ ما هو دونها ومنحطٌّ عنها ، حتّى يُقضىَ له بأنَّه غَلَبَ عليه واستبدَّ به » ، وذكر أشعاراً قد بلغت الغايةَ فى معناها ، ولم يبق لطالبٍ بعدها مطلبٌ . ثم قال (ص : ٦٠٤ / الفقرة : ٢٩) :

« وكذلك السبيلُ فى المنثورِ من الكلام ، فإنَّك تجدُ متى شئتَ فصولاً تعلمُ أن لن يُسْتَطاعَ فى معانيها مِثْلُها . فمِمَّا لا يخفَى أنَّهُ كذلك قولُ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه : « قِيمةُ كُلِّ آمرىءٍ ما يُحْسِنُه » ، وقولُ الحسن (البصرى) رحمةُ الله عليه : « ما رأيتُ يقيناً لا شَكَّ فيه ، أشْبَهَ بشكٍّ لا يقينَ فيه ، من الموت » ، ولن تَعْدَم ذلك إذا تأمَّلتَ كلامَ البلغاءِ ونظرتَ فى الرسائل » .

ثم قال عبد القاهر بِعَقِبِ ذلك مباشرةً = وهنا موضع الاستدلال ، وفيه نظرٌ جيِّد ظاهرُ الجَوْدة والبراعة والتيقُّظ :

---

(١) نشرها الأستاذان محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، فى سلسلة « ذخائر العرب » (دار المعارف) . ثم نشرتها أنا ملحقةً بكتاب « دلائل الإعجاز » للجرجانى فى سنة ١٩٨٤ ، (مكتبة الخانجى بالقاهرة) .

(٢) يقع هذا الفصل فى طبعتى لكتاب « دلائل الإعجاز » من ص : ٦٠٢ إلى ص : ٦١٠ .

« ومن أخصِّ شيء يُطْلَبُ ذلك فيه ، الكتبُ المبتدأة الموضوعةُ فى العلوم المستخرجة ، فإنّا نجدُ أربابها قد سَبَقُوا فى فصولٍ منها إلى ضَرْبٍ من النَّظْم واللفظ ، أعْيَا من بعدهُمْ أن يطلبُوا مثلَهُ ، أو يجيئُوا بشبيهٍ له ، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظُوا تلك الفصُولَ على وجوهها ، ويُؤَدُّوا ألفاظَهم فيها على نِظَامِها وكما هِىَ . وذلك مثلُ قول سيبويه فى أوّل الكتاب ، (١ : ٢) :

« وأمَّا الفعلُ فأمثلةٌ أُخِذَتْ من لفظ أحداثِ الأسماء ، وبُنِيَتْ لما مضَى ، وما يكونُ ولم يَقَعْ ، وما هو كائنٌ لا ينقطع » .

= « لا نعلمُ أحدًا أتى فى معنى هذا الكلامِ بما يوازنُه أو يُدَانيه ، ولا يقعُ فى الوهْمِ أيضاً أن ذَلك يُسْتَطاع . ألا ترى أنّه إنّما جاء فى معناه قولُهم : « والفعلُ ينقسم بأقسام الزمان ، ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، وليس يخفىَ ضَعْفُ هذا فى جَنْبِه وقصورُهُ عنه . ومثلُهُ قوله (أى قول سيبويه أيضاً فى الكتاب ١ : ١٥) : « كأنهم يُقَدّمون الذى بيانُه أهمُّ لهم ، وهم بشأنه أعْنَى ، وإن كانَا جميعاً يُهِمَّانهم ويَعْنِيانهم » ، = وإذا كانَ الأمرُ كذلك ، لم يمتنع أن يكونَ سبيلُ لفظ القرآنِ ونَظْمه هذا السبيلَ ، وأن يكون عجزُهم عَنْ أن يأتوا بمثله فى طريق العَجْزِ ، كما ذكرنَا ومَثَّلنَا » ، انتهى كلام عبد القاهر .

* * *

٥ – فهذا الإمامُ البارع اليقِظُ ، لمْ يَجِدْ = وهو يعالجُ قضيّةَ إعجاز القرآن العظيم ، ويمارسُ تطبيق فكرته المبتدعة التى سبق بها الناسَ ، وهى قضية « اللفظ والنَّظْم » ، وهُمَا عَمودُ مذهبه فى إعجاز القرآن وفى البلاغة والكلام البليغ = لم يجد غَضَاضةً فى تطبيق فكرته فى الإعجاز ، على حدٍّ من حدود « الفعل » ، وهو الحدّ الذى كتبه إمامُ النحو سيبويه ، ولم يستنكِفْ أن يجعله قريناً للكلمات الجامعة الشريفة ، التى

يُهْدَى إليها شاعرٌ مبينٌ أو ناثرٌ بليغ ، ولم يتوقَّف فى الحُكم عليها بأنها من الكلمات الشريفة الجامعة ، ممّا لا يقع فى الوَهْم أنّ أحداً يستطيع أن يأتى فى هذا المعنى بكلامٍ يُوَازِنُها أو يدانِيها ، وأنها كلامٌ بيِّنٌ قد بلغ الغاية فى البيان ، « ولم يبق لطالبٍ بعدهُ مَطْلَبٌ » .

وعبد القاهر حكَم حُكْماً لم يبيِّنْ لنا مَأْتَاهُ ولا تفصيلَه حين قال : إن المعنى الذى جاءَ فى معنى كلام سيبويه هو قولهم : « والفِعْلُ ينقسم بأقسام الزمان : ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، ثم قال : « وليس يخفىَ ضعفُ هذا فى جَنْبه وقُصُوره عنه » ، ولم يزد على هذا شيئاً . وقبل كُلّ شىءٍ ، فهذا الذى استضعفهُ إلى جَنْب كلام سيبويه ، إنما هو نصُّ كلام أُستاذه وإمامِه الذى يُغَالى فى أستاذيته ويقدِّمه تقديماً على سائر النحاةِ ، أبى علىّ الفارسىّ فى كتابه « الإيضاح » فى النحو ، والذى عُنِى هو نفسه بشرحه شَرْحين : أحدهما كتاب « المُغْنِى » ، وهو شرح مطوَّل فى ثلاثين مجلَّدةً ، والآخر هو « المقتصد » وهو مختصرٌ منه فى مجلَّدتين ، ولم أجد عبد القاهر فى « المقتصد » ، [1] تعرَّض لنقد حدِّ شيخِه الفارسىّ ، ولا بيَّن لنا عن وجه ضعفه أو قُصوره . ووجدتُه صعباً عسيراً أنْ يُدْرك القارىء مَأْتَى هذا الحكم ، وإن كان عبد القاهر قد قال إنه « ليس بخَفِىّ » ، مع أنه خَفِىٌّ بلا شكٍّ فى خفائه . فرأيتُه واجبًا أن أجتهد اجتهاداً فى بيان مَأْتَى هذا الحكم ، لكى يتَّضح لك معناهُ فى كلام عبد القاهر . [2]

---

(١) انظر كتاب « المقتصد » لعبد القاهر ١ : ٨٢ ، ٨٣ ، طبع فى العراق سنة ١٩٨٢ .

(٢) الآن ، وأنا أطبع الكتاب ، وافانى ولدى الكريم الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، بالصفحات الأولى من شرح كتاب سيبويه للإمام أبى سعيد السيرافى القاضى النحوىّ (الحسن بن عبد الله بن المزربان / ٢٨٨ – ٣٦٨ هـ) فلم أرهُ صنع شيئاً فى شَرح عبارة سيبويه ، وإنّما هو ما دَرَج عليه النحويُّون فى أقسام زمان الفعل : « ماض ، وحاضِرٌ ، ومستقبل » لا غير ، فيكون ما كتبتهُ لك بَعْدُ أوّلَ بيانٍ عن جميع عبارة سيبويه بلا إغفالٍ لشىءٍ منها كما أغفلوه .

فسيبويه حينَ حدّ « الفعل » فى أول كتابه ، لم يُرِدْ أمثلتَهُ التى هى عندنا : فعلٌ ماضٍ نحو « ذهبَ » ، ومضارعٌ نحو « يذهبُ » ، وأمرٌ نحو « آذهبْ » ، بل أراد بيانَ الأزمنةِ التى تقترن بهذه الأمثلة كيف هى فى لسان العرب ، فجعلها ثلاثة أزمنة :

فالزمن الأول ، هو المقترن بالفعل الماضى الذى يدلُّ على فِعْلٍ وَقَعَ قبل زمن الإخبار به كقولك : « ذهب الرجلُ » ، ولكن يخرجُ منه الفعل الذى هو على مِثَال الماضى أيضاً ، ولكنه لا يدلُّ على وقوع الحدث فى الزمن الماضى ، نحو قولك فى الدعاء : « غَفَر الله لك » ، فإنّه يدخل فى الزمن الثانى ، كما سأُبَيِّنُهُ بَعْدُ .

وأمّا الزَمن الثانى ، فهو الذى عبَّر عنه سيبويه بقوله بعد ذلك : « ومَا يَكونُ ولم يَقَعْ » ، وذلك حين تقول آمراً : « آخرُجْ » ، فهو مقترنٌ بزَمنٍ مُبْهم مُطْلَقٍ مُعَلَّقٍ لا يدلُّ على حاضر ولا مستقبل ، لأنه لم يقع بعدُ خروجٌ ، ولكنه كائنٌ عند نفاذِ « الخروج » من المأمور به = ومثلُه النهىُ حين تقول ناهياً : « لا تَخرُجْ » ، فهو أيضاً فى زمن مُبْهم مُطلَقٍ معلَّقٍ ، وإن كان على مِثَال الفعل المضارع ، فقد سُلبَ الدلالة على الحاضر والمستقبل لأنه لم يَقَعْ ، ولكنه كائنٌ بامتناع الذى نُهِىَ عن الخروج = ومثلُه أيضاً فى مثال المضارع فى قولنا : « قاتلُ النفس يُقْتَلُ ، والزّانى المُحصَنُ يُرْجَمُ » فهما مِثَالانِ مضارعان ، ولا يدلّان على حاضر ولا مستقبل ، وإنما هما خبران عن حُكْم ، ولم يقَعا عند الإخبار بهما ، فهما فى زمنٍ مُبْهمٍ مُطْلَقٍ مُعَلَّق ، وهما كائنان لحدُوث القتل من القاتِلِ عند القِصَاصِ ، وحدوثِ الزّنا من الزانى المُحْصَن عند إنفاذِ الرَّجْمِ = ويدخُلُ فى هذا الزمن أيضاً نحو قولك : « غَفَر الله لك » فى الدعاء ، وهو على مثال الماضى ، فإنك لا تريدُ إخباراً عن غُفْران مَضَى من الله سبحانه ، ولكن تريد غُفْراناً من الله يكون ، ولكنه لم يقع بعدُ ، وترجو بالدعاءِ أن يقع .

وأما الزمنُ الثالث ، فهو الذى عبَّر عنه سيبويه بقوله : « وما هو كائنٌ لم ينقطع » ، فإنه خبرٌ عَن حَدَثٍ كائِنٍ حينَ تخبرُ به ، كقولك : « محمد يَضْرِبُ وَلَدَه » ، فإنّه خبر عن ضَرْبٍ كائنٍ حين أخبرتَ فى الحال ولم ينقطع الضربُ بعد مُضِيِّ الحال إلى الاستقبال = ويُلْحقُ بهذا الزَّمنِ الثالثِ أيضاً مِثالُ الفعل الماضى كقوله تعالى : « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيماً » ، فهو خبرٌ عن مَغْفِرةٍ كانت ولا أوَّلَ لها ، وهى كائنةٌ أبداً لا انقطاعَ لها ، لأنها من صِفَات الله سبحانُه هو الأوَّلُ والآخرُ .

وبهذا البيان المُوجَز الذى أرجو أن أكون قد وُفِّقت فى بيانه ، يتبيَّن لك صِدْقُ عبد القاهر = بلا إبانةٍ كانت منه = فى الحُكم على عبارة أبى عليٍّ الفارسىّ بالقُصور والضعْف إلى جانب عبارة سيبويه الجامعة المُبِينة ، فإن أبا على الفارسىَّ ، مع نَصِّه فى عبارته على « أقسام الزمان » حيث قال : « والفعل ينقسِم بأقسام الزمان : ماضٍ ، وحاضرٌ ، ومستقبلٌ » ، فإنه أسقط الزمن الثانى كُلَّه ، وهو الزمن المبهم المُطْلق المُعلَّق الذى دلَّت عليه عبارة سيبويه ، وكذلك فعلَ سائرُ النحاةِ ، فقد أسقطوا هذا الزمن إسقاطاً كاملاً ، ولم يُعْنَوْا به أىَّ عناية فى حدّ « الفعل » ، فلم يذكروا بأىِّ زمنٍ يقترن فعلُ الأمر والنهى = ولم يذكروا اقترانَ هذا الزمن الثانى بالفعل المضارع = ولا اقترانَهُ بالفعل الماضى أيضاً فى الدعاء = ولم يذكروا فى حدّهم هذا دخولَ الفعل الماضى فى الزمن الثالث ، زمن الفعل المضارع فى الحال والاستقبال ، كما مثَّلْتُ .

° ° °

فأنتَ تراهُ عِياناً الآن ، أنّ سيبويه قد استطاع فى جملةٍ واحدة قصيرةٍ لا تتجاوز سطراً واحداً ، استطاع أن يُلمَّ بجميع الأزمنة المقترنة بأمثلةِ الفعل ، دون أن يُخلَّ بشىء

منها . فهى جملةٌ محكمة شديدةُ الإحكام ، عجز النحاة من بعده أن يلمُّوا بها فى حدودهم التى كتبوها عن حدّ الفعل . فأىَّ رجُل مُبِينٍ كان سيبويه !

● وأقول أنا : كان سيبويه رحمه الله ، حين كتب هذه العبارة وأمثالَها فى كتابه ، فى قمَّة الصفاءِ ، وفى ذِرْوَة اليَقَظَة ، تَسْمُو به أنبلُ عاطفةٍ من الوفاءِ لشيخه الخليل بن أحمد الفراهيدى ، (المتوفى سنة ١٧٥ ، أو قبلها) والذى مات ولم يجْمَع علمَهُ المستفيضَ فى كتابٍ جامع . فبعد موت الخليل = كما حدَّثَنَا نصرُ بن علىّ بن نصر بن علىّ الجَهضَمىُّ روايةً عن أبيه = أن سيبويه لقى أَبَاهُ علىَّ بن نصر بن علِىّ الجَهْضَمىّ (المتوفى سنة ١٨٧) ، وهو قَرِينُ سيبويهِ فى الأَخْذِ عن الخليل والاختصاص به ، فقال له سيبويه : « يا علىُّ ، تعالَ نتعاوَنْ على إحياء علم الخليل » = فتقاعس علىٌّ ، (أى تأخَّرَ ولم يتقدَّم) ، وخذلَ سيبويه فيما أرادهُ ، فحَمِىَ قلبُ سيبويه ، وعزم على أن ينفردَ بإحياء علم الخليلِ ، فَانبَرَى بكُلّ ما فى قلبه من الدِّيانَةِ ، والأَمانةِ والحبِّ والإخلاص ، مُستقِلاًّ وحدَهُ بالعِبْءِ ، وحَلّق وحدَهُ كالعُقَابِ فى جوِّ العربية ، يُجَلِّى بعينيه النافذتين كُلَّ علم الخليلِ وغير الخليلِ ، وكُلَّ أساليب العربية ، وينقضُّ على المعانى بضبطٍ وإحْكَامٍ كإحكام العُقَاب الصَّيُود ، بكُلّ ما فى قلبه من القُدْرة على الإبانة والقُدْرة على الاستبانة . وهذا ظاهرٌ جلىٌّ لمن يقرأُ كتابَ سيبويه بتذوُّقٍ وتأمُّلٍ وأناةٍ ، ولكن أينَ هذا القارىء ! فمن أجل ذلك كان كتاب سيبويه بحراً زخَّارًا ، لم يبلُغْ مبلغَهُ فى الجودةِ والبيان عن معانى النحو نحوىٌّ واحدٌ ممَّن جاء بعدهُ وعبَّ من عُبَابه . وحُقَّ لعبد القاهر الإمامِ أن يجرىَ عليه مذهبه فى قضية « النظم واللفظ » ، وأن يختارَ مِن عباراته عبارةً مُبينةً جامعةً ، ويجعلها قرينةً لأشرف العبارات المبينة فى شِعْر الشعراء ، وفى كلام البُلَغاء ، كعلىٍّ رضى الله عنه ، والحسن البصرىِّ رحمه الله .

° ° °

٦ – أَظُنُّنِى قد أثقلتُ عليك ، أيها القارىء لكتابى هذا : « المتنبىّ » ، وأَبْعدُت بك الرحلة ، ولكنى لم أَبْعُدْ بك ، فى الحقيقة ، لأَنّى أردتُ أن تقفَ بالدليلِ الواضح ، على أن المنهج الذى استطعتُ أن أمهِّده لفكرى ، كان نابعاً من صميم المَنَاهج الخفيّة التى سنَّ لنا آباؤنا وأسلافُنَا طُرُقَها = وأن كُلَّ جُهْدى فيه ، هو معاناةٌ كانتْ منِّى لتبيُّن دُرُوبها ومسالكها ، ثم إزالةُ الغبارِ الذى طَمَس معالمَها ، ثم أن أَجْمَعَ ما تشتَّت أو تفرَّق من أساليبِها ، معتمداً على دلالاتِ اللسانِ العربىِّ ، لأَنّ كُلَّ ذلك مخبوءٌ تحت ألفاظ هذا اللسان العربىّ ، ومستكِنٌّ فى نَظْم هذا اللسان العربىِّ ، وهذا يكادُ يكون أمراً مسلَّماً ببديهة النظر فى شأن كل لغة وتُرَاثها . والذى لا يملكُ القدرة على استيعابِ هذه الدِّلالات وعلى استشفافِ خفايَاها ، غيرُ قادرٍ البتَّةَ على أن يُنْشِىء منهجاً أدبيًّا لدراسةِ إرْثِ هذه اللغة ، فى أىّ فرعٍ من فروعِ هذا الإِرْثِ ، إلاَّ أَن يكون الأمر كُلُّه تبجُّحًا وغَطْرسةً وزَهْواً وغروراً وتغريراً ، كما هو الحال فى حياتنا الأدبيةِ هذهِ الفاسدَةِ .

هذا هو جوهَرُ حديثى عن منهجى فى « تذوق الكلام » كُلِّه شعراً ونثراً ، وأخباراً تُرْوَى ، وعلماً يُكتبُ أو يُسْتخرجُ ، لأنَّ ذلك كُلَّه إنَّما هو إبانةٌ عمَّا تموجُ به النفوسُ ، وتَنْبِضُ به العقول . ففى نَظْم كُلِّ كلام وفى ألفاظه ، ولابُدَّ ، أثرٌ ظاهرٌ أو وَسْمٌ خفىٌّ من نفس قائله وما تَنْطوى عليه من دَفِين العواطِف والنوازِع والأهواء من خيرٍ وشرٍّ أو صدق وكذب = ومن عَقْل قائله ، وما يكمُن فيه من جَنِينِ الفِكْر ، (أى مستوره) ، من نظرٍ دقيقٍ ، ومعانٍ جليَّةٍ أو خفيَّةٍ ، وبراعة صادقةٍ ، ومَهارَةٍ مُموَّهةٍ ، ومقاصدَ مَرْضيّةٍ أو مُسْتَكرهةٍ . فمنهجى فى « تذوُّق الكلام » ، مَعْنِىٌّ كل العناية باستنباط هذه الدفائن ، وباستدراجها من مكامِنها ، ومعالجةِ نَظْم الكلامِ ولفظه معالجةً تُتيح لى أن أَنْفُضَ الظَّلامَ عن مَصُونها ، وأُمِيط اللثامَ عن أخفَى أَسْرارِها وأَغْمَضِ سرائرِها . وهذا أمرٌ

لا يُسْتَطاعُ ولا تكون له ثَمرةٌ ، إلاّ بالأناةِ والصَّبْر ، وإلاّ باستقصاء الجُهْد فى التثبُّت من معانى ألفاظ اللغة ، ومن مَجَارِى دلالاتها الظاهرةِ والخفيّة ، بلا استكراهٍ ولا عَجَلةٍ ، وبلا ذهابٍ مع الخاطر الأوّل ، وبلا توَهُّمٍ مُسْتَبِدٍّ تُخْضِعُ له نَظْمَ الكلام ولَفْظَه .

° ° °

٧ – وأمرٌ كريهٌ ، أيها القارئ ، وبَغِيضٌ إلَيَّ كُلَّ البُغْضِ ، أنْ أحدّثك عن أعمالى ، ولكن لابُدَّ مما ليس مِنْه بُدٌّ ، لكى تكون على بيِّنةٍ .

قد مضى الشبابُ وطُوِى بِسَاطُه ، ومضت تلك الأيامُ الغوابر المضيئةُ فى حياتى ، حتى كانت سنة ١٩٣٥ ، وأنا فى السادسة والعشرين من عُمرُى ، حين آستوَىَ لِىَ المنهجُ واستبانَ . فكانَ أوّلَ عملٍ طبَّقتُ فيه منهجى فى « تذوُّق الكلام » ، شعراً ونثراً ، وأخباراً تُرْوَى ، وعلماً يُكْتب أو يُسْتَخرج ، هو كتابى « المتنبِّى » ، الذى تولت نشره مجلة « المقتطف » فى عدد يناير سنة ١٩٣٦ . كان كتابى خالياً من كُلِّ إبانةٍ عن هذا المنهج أو إشارةٍ إليه . فكانَ صدورُه يومئذ مفاجأةً وجَّهتْ أنظار الأدباء جميعاً فى كُلِّ بلدٍ ينطقُ اللسان العربىّ ، إلى آسمٍ مَجْهول وكاتبٍ مغمورٍ ، وأصبحتُ فى خَفْقَةٍ كخَفْقةِ البرقِ آسماً مشهوراً عندهم وكاتباً مذكوراً .

وأنتَ لم تشهد تلك الأيَّامَ كيف كانت ، ولا تجدُ اليومَ من يحدّثُك عنها غَيْرى . وكُلُّ ما بقى منها أنَّك تعرفنى اليومَ معرفةً مبهمةً بلا دليلٍ يرشدُك ، إلاّ هذا الصيتُ الكاذبُ الذى لا أظنُّ أنَّ له عندك حقيقةً تعرِف بها صدقَهُ ، والذى أكْسَبَتْنيهِ تلك المفاجأة المثيرةُ المتقادمة المُوغِلَةُ فى البعد عنك .

كانَ السببُ فى هذه المفاجأةِ المثيرة ، أنّ جمهرة الأدباءِ والقارئين يومئذٍ ، وقعُوا على

كتابٍ فيه ترجمةٌ للمتنبيِّ ، مكتوبٍ على مَنْهَجٍ وجدُوهُ فريداً متميِّزاً ، مبايناً مَذَبُّه كلَّ المباينةِ ، لجميع المناهج الأدبية المختلفة المألوفة ، والتى كانت تغمرُ ساحة الأدب ، ولا تزالُ تغمُرُها مع الأسف . وهذا أمرٌ تستطيع أن تستوثِقَ من صِحَّته بالنظر فى كُلِّ ما كَتَبَ الكاتبون عن الشِّعر والشعراء وغير الشعراء قبلَ هذا الكتابِ . كانُوا يُحِسُّون إحساساً خفيًّا بهذه المباينةِ الظاهرةِ ، وقد عبَّر عن هذا الإحساس الخفىّ أقرانى وأساتذتى وشيوخى الكبار ، مُعَارِضِين أو مُثْنِينَ ، كُلٌّ عبَّر بطريقته وأسلوبه عن هذا الإحساسِ الخفىّ ، بكلامٍ مكتوبٍ ، أو حديثٍ جرَى بينى وبينهُم . [1] ولأنى أصدرتُ هذا الكتابَ خِلْواً من مقدّمة تتحدَّثُ عن منهجى الذى بَنَيْتُ عليه ترجمتى للمتنبيِّ ، فقد كان ما لا بُدَّ أن يكونُ . فالحياةُ الأدبيَّةُ الفاسدةُ الَّتى سنَّ للناس سُنَنها شيوخُنا الأدباءُ الكبارُ ، والتى نعيش فيها إلى هذا اليومِ = وآفاتٌ أخرى كانوا يتعايشون بها ، وبثُّوها فى تلاميذهم وأشياعهم = كلُّ ذلك لم يَكُنْ يُتِيح لأحدٍ ، إلاّ مَنْ عَصَمَ اللهُ ، أن يجدَ من وقته ساعاتٍ للتأمُّل والأناةِ والصبْرِ ، للبحث عن هذا المنهج الغريب غير المألوف الذى وجده أَمَامَهُ مطبّقاً فى كتاب كاملٍ ، وأحسَّ به كُلٌّ منهم إحساساً خفيًّا دعاهُ إلى المعارضة أو الثناءِ . وهذا خِذْلانٌ كبيرٌ ، غَفَر اللهُ لنا ولهم ، وتجاوَز عن سيِّئاتنا وسيِّئَاتهم .

كانَ ما لابُدَّ أن يكونَ ، فبقى منهجى مَنْهجاً غيرَ بيِّنٍ ، بل صارَ منهجاً مغموراً تطمِسُ مَعالمَهُ المناهجُ الفاشيةُ الغالبةُ على هذه الحياة الأدبية الفاسدة . ثم جاءَ من بَعْدِ

---

(١) ستجد طرفاً من ذلك فى « قصة هذا الكتاب » ، وما كتبه الرافعى ومصطفى عبد الرازق ، وأخوه على عبد الرازق ، ومحمد هاشم عطية ، وعبد الوهاب عزام ، وفؤاد صروف ، وقرينى وأخى سعيد الأفغانى ، وما فعله العقاد ، وما قاله طه حسين ، (انظر باب « الغمرات ثم ينجلين » ص : ٧٥ - ٧٩ = وما كان فى أوّل لقاء لى بالدكتور طه ص ٩٩ - ١٠٤ ، ٥٢٣ ، وأما سعيد الأفغانى ، فكلامه وكلامى مثبت فى ص : ٥٣٣ - ٥٧٤ ، وكلمة الرافعى مثبتة فى ص : ٥٧٧ - ٥٧٩ ، وفؤاد صروف فى تقديمه الكتاب ص : ١٢٩ - ١٣٤) .

الأساتذةِ الكبارِ أجيالٌ صَنَعَتْهُم السُّنَن التى سَنُّوها فى حياتنا الأدبية ، والأساتذةُ الكبار هُم القِمَمُ وهم القُدْوَة ، فاتَّسَع الخَرْقُ بفعل مُرُور الأيّام والسنين ، وفسد الأمْرُ فسَاداً وبيلاً . فكان لابُدَّ أن يبْقَى منهجى هذا مطموساً مغموراً ضَرْبَةَ لازبٍ . وضربةَ لازبٍ أن يكون كذلك ، لأنّى أنا أيضاً قد رضيتُ لكتابى « المتنبىّ » ولمنهجى فيه أن يبقى مطموساً مغموراً مُدَّة أربعين سنة ، منذ خرج للناس لأوّل مرةٍ فى سنة ١٩٣٦ ، إلى كانت سنة ١٩٧٧ ، حين أعدتُ نشرهُ . ولكن ههنا حديثٌ آخرُ سأحدّثُك عنه بَعْدَ قليلٍ .

٨ – لا تَحْسَبْ أنّى قد فارقتُ منهجى وأغفلتُه مدّة أربعين سنة ونيِّف ، ولا تَقُل : أنت الملومُ ! فَلِمَ توانَيْتَ ونَكَصْتَ وتَثَاقلتَ فلم تنصُرْ منهجك ولا بيَّنْتَهُ للناس ؟

فأقول لك = إن كنتَ مِمَّنْ يُرِيدُ أن يَعرِفَ ، أمّا الذى لا يُرِيدُ أن يعرفَ فليس بينى وبينَه عَمَلٌ = : إن منهجى فى « تذوّق الكلام » شعراً ونثراً ، وأخباراً تُرْوَى ، وبياناً عن عِلْمٍ مُسْتَخْرجٍ ، وكلاماً قاله الناسُ فى الأمسِ البعيد ، وكلاماً يقوله الناسُ فى هذا اليوم القريب ، منهجٌ متراحبٌ متشعّبُ الأنْحاء كما حَدَّثْتُك آنفاً ، وهو مطبّقٌ تطبيقاً بيِّناً فى كُلِّ ما كتبه هذا القلمَ الذى أكتب به الآن إليك . مطبَّقٌ هذا المنهجُ فى مقالاتى التى نشرتُها فى الصحف والمجلات قديماً وحديثاً ، سواءٌ كان ما كتبتُهُ بَحْثاً أو نَقْدًا أو تعبيراً عن ذاتِ نَفْسى فى كُلِّ مَنْحىً من مناحِى القولِ والبيان ، أو تعليقاً على أصولِ الكتب القديمة التى نَشرتُها وخرجَتْ للناس .

وإنْ شئتَ أن تعلَم ، فاعلم أنَّك واجدٌ منهجى فى « تذوُّق الكلام » فى مقالاتى القديمة والحديثة التى لم أنشرْها بعدُ فى كتاب يقرأُ اليومَ ، وأنتُ واجدُه أيضاً فى كتابى « أباطيلُ وأسمارٌ » وكتابى « برنامجُ طبقات فحول الشعراء » ، وأنت واجدُه أيضاً ظاهراً

يلوحُ فى قراءتى وشرحى لكتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلّام الجمحى ، وفى قراءتى وتعليقى على كتاب « جَمْهرة نسب قُرَيْش » للزُّبَيْر بن بكَّار ، وفى مواضع كثيرة جدًّا متفرقة فى قراءتى وتعليقى لكتاب أبى جعفر الطبرى فى تفسير القرآن ، وفى سائر ما كتب الله لى أن أنشرهُ من الكتب .

بَلْ .... بَلْ أنت واجدُه ساطعاً كُلَّ السُّطوع فى ديوانِ « القَوْسُ العَذْراءُ » ، حيثُ تجدُ ثلاثةً وعشرين بيتاً قالها الشمّاخ الشاعرُ فى قصيدته الزائية ، التى وصَف فيها قَوْساً وقوَّاسَها الذى صنعَها بيديه وسَوَّاها حتى استوتْ ، ففُتِن بحُبِّها قوَّاسُها هذا وانطوى قلبه على الضَّنِّ بها . ثم دعاه داعِى الحجّ فأسمعه ، فانطلق خارجاً من باديته ، فوافى بِهَا أَهْلَ المواسم ، فانبَرَى لقوسه هذه تاجرٌ غنىٌّ شديدُ المكر والدَّهاء ، فسَاومَه بها فأطالَ المساومة . قوَّاسٌ فقيرٌ بائسٌ ، وغنىٌّ مَلِيءٌ ماكِرٌ حُلو اللَّفظ واللسانِ ، فاْغْتَرَّهُ بالمال والغنى حتى ذَهَلِ بفقره عن نفسه وهواهُ ، وفى غَمْرة ذُهوله أسلم له قوسَهُ وقبضَ المال ، ولم يكدْ حتى استفاقَ ، وتلفّت فلم يجدْ قوسَهُ وحُشاشةَ نفسه ، ولم تقع عينه على هذا التاجر الذى انقضّ على قوسه كالعقاب الكاسِر وطَار بها حيثُ لا يُرَى ، فأجهش البائس المسكين بالبكاء ، ونظر إلى المال الذى فى يديه ، وفاضتِ العينُ عبرةً ، وسقط فى هاويةِ الأحزانِ ، وتساقطت نَفْسُه بعد فراقها حَسَرَاتٍ ، « وفى الصَّدْر حَزَّازٌ من الوَجْدِ حَامزُ » .

كنت قديماً قد تذوّقتُ ، فيما أتذوّق من الشعر العربى ، بيَاناً حافِلاً غزيراً فى أبيات الشمّاخ الثلاثة والعشرين . تذوّقتُها غائصاً فى أغوارِ دِلالة ألفاظها وتراكيبها ونظمها ، بل غُصْتُ تحت تيَّار معانيها الظاهرة ، وفى أعماق أحرُفِها ، وفى أنغامِ جَرْسها ، وفى خَفَقَات نَبْضِها ، وفى دَفْقِها السَّاربِ المتغلغِلِ تحت أَطْباقها ، فأثَرْتُ

بهذا التذوُّق دفائنَ نَظْمها ولفظها ، واستدرجتُ خَباياها المتحجِّبة من مَكامنها ، وأَمَطْتُ اللثامَ عن أخفَى أسرارها المكتَّمة ، وأغمضِ سرائرها المُغَيَّبة ، حتَّى صرتُ كأنى أقرأ قصةً طويلةً فى كتابٍ منشورٍ . ومضت السنون الطِّوال حتى كدتُ أنساهَا . ثم جاء يومٌ أذكرنى هذه القصة الطويلة ، فانبعثتْ فجأةً من مَرْقَدِها ، وانبعثتُ أنا أَقُصُّ قصَّة القَوْسِ وقوَّاسِها ، كما كانت أفضَتْ إلىَّ به أبيات الشمَّاخ ، وضَمَّنْتُها قصيدةً تزيدُ على ثلاثمئة بيتٍ ، كُلُّ ما فيها نَبيثةٌ مستخرجةٌ من بَيَان أبيات الشماخ ، ومن رِكَاز نَظْمها وكلماتها ، بلا استكراهٍ لقِصَّةٍ أو معنىً أو صُورة . (الرِّكازُ : كنزٌ مدفونٌ فى باطن الثرى فى مَعْدِنه = والمَعْدِن : هو الذى نسمِّيه اليوم « المنجم » كمنجم الذهب والفضة وغيرهما من كنوز الأرض ، كريمِها وخَسِيسها) .[1]

فهذا ، كما ترى ، منهجٌ متشعِّبٌ مطبَّقٌ على أصنافِ الكلامِ العربىّ ، قراءَةً له ، أو بياناً عنه . وببديهة العقل لم يكُنْ من عَمَلِى ، ولا هو من عَمَلِ أىِّ كاتبٍ مُبينٍ عن نفسه ، أن يبدأ أوَّلَ كُلِّ شىءٍ فيُفيضَ فى شرح مَنْهجه فى القراءة والكتابة = وإلاَّ يَفْعَلْ ، كان مقصِّراً تقصيراً لا يُقْبَلُ منه بل يُرَدّ عليه = ثم يكتبُ بعد ذلك ما يكتُبُ ليقول للناس : هذا هو منهجى ، وها أنذا قد طَبَّقْتُه . هذا سخْفٌ مريضٌ غير معقولٍ ، بل عكسُهُ هو الصحيح المعقول ، وهو أن يكتب الكاتب مطبِّقاً منهجَهُ ، وعلى القارىء

---

(١) نشرت « القوس العذراء » أول مرة فى مجلة الكتاب (دار المعارف) فى عدد أول فبراير سنة ١٩٥٢ ، وكتب الأستاذ عادل الغضبان كلمةً فى التنويه بها . ثم نشرتها فى كتابٍ سنة ١٩٦٤ ، فكتب عنها الدكتور زكى نجيب محمود كلمة نفيسة (ضاعت منى مع الأسف) ، وكتب كاتب فقال إنها « قصيدة لغوية » ، يعنى أنها متنٌ منظومٌ لحفظ غريب اللغة ! ، ثم بعد ثلاثين سنة ، (سنة ١٩٨٢) ، كتب عنها الدكتور إحسان عباس والدكتور مصطفى هدارة ، فى كتاب « دراسات عربية وإسلامية » ، الذى أهدى إلى بمناسبة بلوغى السبعين (ص : ٣ - ٤٥٧/١٥ - ٤٧٨) ، وكتب الدكتور محمد أبو موسى رسالة نشرها وسماها « القوس العذراء ، وقراءة التُّراث » .

والناقد أنْ يستشِفّ المنهجَ وَيتَبيَّنه ، محاولاً استقصاءَ وجوهه الظاهرة والخفيَّة ، ممّا يجدُه مطبّقاً فيما كتب الكاتب . ولكن فسادُ حياتنا الأدبية ، هو الذى يُحيلُ العقولَ أحياناً ، حتى تَغْفُل عن أبسط قواعد البديهة فى العقل الإنسانى . وكفى بهذا فسادًا وبيلاً .

فرغْتُ ، وأسألُ الله المغفرة ، من هذا الكلام البغيض إلىّ ، متحدّثاً عن أعمالى ، والذى هو شئٌ أوجبتْهُ الصورة ، كما يقول المتنبى فيما يُرْوَى عنه حين سُئِل عن خبر نبوّته !! والآن ....

* * *

٩ – كان منهجى ، كما نشأ واستَتَبَّ فى نفسى ، كان منهجاً يَحْمِلُ بطبيعة نشأتِه رَفْضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير مُتَلَجْلج ، لأكثر المناهج الأدبيَّة التى كانت فاشيةً وغالبةً وصارَ لها السيادةُ على ساحة الأدبِ الخالص وغير الأدبِ الخالص إلى يومنا هذا ، كما حدثْتُك آنفاً (الفقرة : ١) .

فَلِكَىْ تكونَ علَى بيِّنةٍ مرَّةً أخرى ...

فَاعلم ، قَبل كُلِّ شئ ، أنّ تسميتها « مناهج » ، تجاوُزٌ شديدُ البُعْد عن الحقيقة ، وفسادٌ غليظٌ وخَلْطٌ ، إذا كنتَ تريدُ أن تكونَ على ثِقَةٍ من معنى هذه الألفاظ التى تجرى الآنَ بيننا ، ولكن قد كان ما كانَ ، فهكذا اصطلحوا على تسميتها !

وقديماً تناولتُ لفظ « المنهج » ، وحاولتُ البيانَ عنه فقلت : (١)

---

(١) قلت ذلك فى كتابى « أباطيلٌ وأسمارٌ » ، ص ٢٣ – ٢٥ ، بل الفصل كُلّه ، بل الكتاب كُلُّه ، مشتمل على بيانٍ لما يسمَّى « منهجاً » ، ومُتَّصلٌ بما أقوله هنا اتِّصالاً لا انفكاك له . فإن كنت جادًّا فى طلبِ المعرفة فاقرأه ، لأنّى هنا موجزٌ أشدَّ الإيجاز .

« ولفظُ المنهج » ، يحتاج مِنِّى هنا إلى بعض الإبانة ، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون فى مثل هذا الشأن ، بل أريد به « ما قَبْلَ المنهج » ، أى الأساس الذى لا يقومُ « المنهجُ » إلاّ عليه .

« فهذا الذى يسمَّى « منهجاً » ينقسِم إلى شَطْرين : شطرٍ فى تناوُل المادَّة ، وشطرٍ فى معالجة التطبيق .

« فشطرُ المادة يَتطلَّب قبلَ كلِّ شئ ، جَمْعَها من مَظانِّها على وجْهِ الاستيعاب المتيسِّر ، ثمَّ تصنيفَ هذا المجموع ، ثُمَّ تمحيصَ مُفْرداته تمحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزائها بدقّةٍ متناهيةٍ ، وبمهارةٍ وحِذْقٍ وحَذَرٍ ، حتّى يتيسَّر للدارسِ أن يرى ما هو زَيْفٌ جليًّا واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غَفلْةٍ ، وبلا هَوًى ، وبلا تسرُّع .

« أمّا شطرُ التطبيق ، فيقتضى ترتيبَ المادّةِ بعد نَفْى زيفِها وتمحيصِ جيِّدها ، باستيعابٍ أيضاً لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهَوَى أو التسرُّع . ثُمّ على الدارس أن يتحرَّى لكلِّ حقيقةٍ من الحقائق موضعاً هو حقُّ موضعها ، لأنّ أَخْفَى إساءَةٍ فى وَضْع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يُشَوِّه عَمُودَ الصورة تشويهاً بالغَ القُبْح والشَّنَاعة » .

وأزيدُك الآنَ : أنّ « شطر التطبيق » هو الميدان الفسيح الذى تصطرع فيه العقُول ، وتتناصَى الحُجَج ، (أى أن تأخذ الحُجَّة بناصية الحجة كفِعلْ المتصارِعينِ) ، والذى تسمعُ فيه صليلَ الألسنة جَهْرةً أو خُفْيَةً ، وفى حَوْمته تتصادُم الأفكارُ بالرِّفق مرّةً وبالعنِف أُخْرى ، وتختلفُ فيه الأنظارُ اختلافاً ساطعاً تارةً ، وخابياً تارةً أخرى ، وتفترق فيه الدُّرُوب والطرقُ أو تتشابكُ أو تلتقى . هذه طبيعة هذا الميدانِ ، وطبيعةُ النازليه من العلماءِ والأدباءِ والمفكِّرين . وعندَئذٍ يمكنُ أن يَنشأ ما يُسَمَّى « المناهج » و « المذاهب » .

ولكىْ لا تقع فى الوَهْم والضلالِ ، ولكَىْ لا يُغَرِّرَ بك أحدٌ من المتشدِّقين من أهل زماننا هذا بالثرثرة ، فآعلمْ أنّ حديثى هنا هو عن الذى يسمَّى « المنهج الأدبىّ » على وَجْه التحديد = أى : عن المنهج الذى يتناول الشعر وَالأدبَ بجميع أنواعه ، والتاريخَ ، وعلمَ الدِّين بفروعه المختلفة ، والفلسفةَ بمذاهبها المتضاربة ، وكُلَّ مَا هو صادرٌ عن الإنسانِ إبانةً عن نفسِه وعن جماعته = أى يتناول ثقافتَهُ المتكاملةَ المتحدّرة إليه فى تيَّارِ القرون المتطاوِلة والأجيالِ المتعاقبة . ووِعاءُ ذلك كُلِّه ومستقرُّه هو اللغة واللسانُ لا غيرُ . فإيَّاكَ إيّاكَ أن تنسَى ذلك ، واجعلْهُ منكَ على ذُكْرٍ أبدًا . وآذكُرْ أيضاً أن هذا الذى أقولُه لك ههنا عن « المنهج » ، إنَّما هو أصلٌ أصيلٌ فى كُلِّ أمَّةٍ ، وفى كُلِّ لسانٍ ، وفى كُلِّ ثقافةٍ حازها البشرُ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومِلَلِهم ومواطنهم .

١٠ — وإذنْ ، فكيف نشأ الخِلاف ، ولِمَ نشأ الخِلاف ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبيّة » السائِدةِ ، كانت ولا تَزالُ ، فى حياتنا الأدبية ، حتى رفضتُها رَفْضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير مُتلجلجٍ ، مُنْذُ بدأت قديماً أحسُّ إحساساً مُبْهَماً أنّ حياتنا الأدبية حياةٌ فاسدةٌ من كُلِّ وجهٍ ، كما حدَّثتك آنفاً ؟ (اقرأ الفقرة : ١) .

فأنا الآن مُجيبُك عن هذا السؤالِ بإيجازٍ جامعٍ ، على طُولِه ، فإنَّ هذا الإحساسَ القديمَ المبهمَ المتصاعِدَ بفساد الحياة الأدبية ، قد أفْضَى بِى ، كما حَدَّثتك فى الفقراتِ الثلاثِ الأُوَل : (١ — ٣) ، إلى إعادة قراءة الشعر العربىّ كُلِّه أوَّلاً ، ثم قراءَةِ ما يقع تحت يدِى من هذا الإرْثِ العظيم الضَّخم المتنوِّع من تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ ، وأصول فقهٍ وأصول دين (هو علم الكلام) ، ومِلَلٍ ونِحَلٍ ، إلى بحر زاخرٍ من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة ، حتى قرأتُ الفلسفة القديمةَ والحسابَ القديم والجغرافية القديمة ، وكُتُبَ النجوم وصُوَر الكواكب ، والطبِّ القديم ومُفْرَدات الأدوية ، وحتى قرأتُ

البَيْزرة والبَيْطرة والفِراسةَ .... بل كلَّ ما استطعتُ أن أقف عليه بحمد الله سبحانه ، قرأتُ ما تيسَّر لى منه ، لا للتمكُّن من هذه العلوم المختلفة ، بل لكى ألاحظَ وأتبيَّن وأُزيحَ الثَّرى عن الخبىءِ والمدفونِ .

تبيَّن لى يومئذٍ تبيُّناً واضحاً أن شَطْرى المنهج : « المادة ، والتطبيق » ، كما وصفتُهما لك فى أوَّل هذه الفقرة ، مكتملانِ اكتمالاً مُذْهِلاً يحيِّر العقلَ ، منذ أَوَّلِيَّة هذه الأمَّة العربيّة المسلمةِ صاحبةِ اللسان العربىّ ، ثم يزدادان اتِّساعاً واكتمالاً وتنوُّعاً على مرِّ السنين وتعاقُب العلماءِ والكتَّاب فى كُلِّ علمٍ وفنٍّ ، وأقول لك غير متردِّدٍ أنّ الذى كان عندهم من ذلك ، لم يكن قطُّ عند أمَّةٍ سابقةٍ من الأمم ، حتى اليونان = وأكادُ أقول لك غير متردِّدٍ أيضاً أنّهم بلغوا فى ذلك مَبْلغاً لم تُدْرِك ذِرْوتَه الثقافةُ الأوربيَّة الحاضرةُ اليومَ ، وهى فى قمَّة مجدِها وازدِهَارِها وسَطْوتها على العلمِ والمعرفة .

• كنتُ أستشِفُّ « شطرى المنهج » ، كما وصفتُهما ، تلوحُ بَوادرُهُ الأُوَلُ منذ عهد علماء صحابة رسول الله ﷺ ، ومَنْ حُفِظَت عنهم الفَتْوى منهم ، كعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عُمَر = كانت كاللَّمحة الخاطفةِ والإشارةِ الدالَّة . ثم زادت وضوحاً عند علماء التابعين كالحسن البصرى ، وسعيد بن المُسَيَّب ، وابن شِهاب الزهرىّ ، والشَّعْبىّ ، وقَتَادةَ السَّدُوسىّ ، وإبرهيم النَّخعِىّ . ثم اتَّسع الأمرُ واستعلنَ عند جِلّة الفقهاءِ والمحدِّثين من بعدهم ، كمالك بن أَنس ، وأبى حنيفة وصاحبيه أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانىّ ، والشَّافعىّ ، واللَّيْث بن سعد ، وسُفْيان الثَّوْرِىّ ، والأُوزاعىّ ، وأحمد بن حَنْبل ، ويحيى بن مَعِين ، والبخارىِّ ، ومُسلم ، وأبى عَمْرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، وأبى جعفر الطَّبَرى ، وأبى جعفر الطَّحاوىّ . ثم استقرَّ تدوينُ الكُتُب فصارَ نَهجاً مستقيماً ،

وكالشمسِ المشرقة ، نُوراً مستفيضاً عند الكاتبين جميعاً ، منذ سيبويه ، والفَرَّاء ، وابن سَلَّام الجُمَحىّ ، والجاحظ ، وأبى العباس المبَرِّد ، وابن قُتَيْبة ، وأبى الحسن الأشعرىّ ، والقاضى عبد الجبار المعتزلىّ ، والآمدىّ ، وعبد القاهر الجُرْجانىّ ، وابن حَزْمٍ ، وابن عبد البَرِّ ، وابن رُشْد الفقيه وحفيده ابن رشدٍ الفقيه الفيلسوف ، وابن سينا ، والبَيْرونىّ ، وابن تَيْمِيَةَ ، وتلميذه ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة ، وآلافٍ مؤلفةٍ لا تُحْصى حتى تنتهى إلى السُّيُوطىّ ، والشَّوكانىّ ، والزَّبيدىّ ، وعبد القادر البغدادىّ فى القرن الحادى عشر الهجرىّ .

سُنَّةٌ متّبعةٌ ودَرْبٌ مطروقٌ فى ثقافةٍ متكاملةٍ متماسَكةٍ راسخة الجذورِ ، ظلَّت تنمو وتتَّسع وتستولى على كُلِّ معرفةٍ مُتاحَةٍ أو مُسْتخرجةٍ بسلطانِ لسانها العربىّ ، لم تَفْقِد قطُّ سَيْطرتَها على النَّهْج المستبين ، مع اختلاف العقول والأفكار والمناهج والمذاهب ، حَتّى اكتملت اكتمالاً مُذْهلاً فى كُلِّ علمٍ وفنٍّ ، وكان المرجُوُّ والمعقولُ أنْ يستَمرَّ نمُوُّها واكتمالُها وازدهارُها فى حياتنا الأدبية العَربية الحديثة رَاهِناً ، (ثابتاً) ، إلى هذا اليوم ، لولا .... ولكن صِرْنا ، واحسرتاهُ ، إلى أن نقول مع العَرْجىّ الشاعر : « كانَ شيئاً كانَ ، ثم آنقَضى » . (١)

* * *

١١ — وشىءٌ لو أنا أغفلتُه ههنا ، ولم أبيِّنه لكَ ، فكأنّى أغفلتُ جوهرَ القضيّة كُلِّها وطمستُه طمْساً ، أَعْنِى قضيّة « المنهج » ، ولدخلتُ بك دخولاً فى حَوْمة الفسادِ

---

(١) من بيتين تترقرقُ فيهما عَبَراتُ الأسَى كُلّه ، وحَسَراتُ العُمْر كُلّه ، يقول :

يا لَيْتَ شِعْرِى ، هَلْ يَعُودَنَّ لِى ذَا الوُدُّ من لَيْلَى كما قد مَضَى ؟
إذْ قَلْبُها لِى فارِغٌ كُلُّه ... أمْ كانَ شيئاً كانَ ، ثم آنْقَضَى

المُطْبِق الذى عمَّ وسادَ حياتَنا الأدبية وَطمَّ وطغَى . وحسبُك بهذا مِنّى ، لو فعلتُ ، غِشًّا لك ، وإهداراً لكرامة البيانِ ، وخيانةً للأمانة التى حُمِّلناهَا كما حُمِّلها أبُونا الشيخُ آدمُ عليه السلام . وبعدَ ذلك ، فكأنى ، لو فعلتُ ، قد آستهنتُ بك وبعقلك ، لأنّى كتمتُ عنك ما أنا حقيقٌ بإبانته ، وَمَا أنتَ صاحبُ الحقِّ فى استبانته .

فالذى نبَّهتُك إليه فى أوَّل الفقرة التاسعة آنفاً ، (٩) ، وسمَّيتُه « ما قبل المنهج » بشطريه فى « المادة » وفى « التطبيق » وقلت لك : « إنه أَصْلٌ أصيلٌ فى كُلِّ أمةٍ ، وفى كُلِّ لغةٍ ، وفى كُلِّ لسانٍ ، وفى كل ثقافةٍ حازها البشرُ على اختلاف ألسنتهم وألْوَانِهم ومِلَلِهم وأوطانِهم » = هو ، بلا ريبٍ ، أصلٌ أصيلٌ فى « العلوم البَحْتَة » ، كما نسمِّيها اليوم ، كالحساب والجبر والكيمياء ، كما هو أصلٌ أصيلٌ فى « آداب اللسان » ، كالأدب والتاريخ وعلوم الدين وعلم الفلسفة . والنَّاس لا يحتاجُون إلى ما سمَّيتُه « ما قبل المنهج » احتياجاً مُلْزِماً ، إلاّ بعدَ أن تستوفِى « العُلوم البَحْتة » ، مثلاً ، قَدْراً صالحاً من النموِّ والاتِّساع ، حتَّى يُحْتَاجَ إلى إعادةِ النظر للفصل بين تداخُلِ أجزائها بعضِها فى بعضٍ ، لتصحيح مَسيرةِ العلم ، وإعطاءِ كُلِّ علمٍ حقَّه من الوُضوح ، حتى يستقيم لكلِّ علمٍ نَهْجُهُ وطريقُه ونُموُّه بلا خَلْطٍ وبلا تزييف . و « ما قبل المنهج » هو فى « العلوم البحتة » ضربةُ لازبٍ ، وإلا آرْتكستْ فى ظُلُماتِ الجهالة والغموضِ . فمُمكِنٌ ، بل هو شرطٌ ملزمٌ ، أن يبرأَ « جمع المادَّة » و « التطبيق » جميعاً من الغَفْلة والإغفالِ والتسرُّع والهوَى .

أمّا « آدابُ اللِّسان » فإنّ الناسَ لا يحتاجون إلى ما سمَّيته « ما قبل المنهج » إلاّ بعد أن تستوفى « الآدابُ » نموَّها عن طريق « اللُّغة » التى هى وِعاءُ المعارف جميعاً ، وبعد أنْ تستوفىَ أيضاً نموَّها عن طريقِ « الثقافة » التى هى ثَمَرةُ المعارفِ جميعاً ، وبعد أن تستوفىَ حظًّا من القوّة والتماسُك والشمولِ والغَلَبَة على أصحابِ هذه « اللغة » وهذه

« الثقافة » = حتّى يُحْتَاجَ عندئذٍ إلى إعادة النظر للفصل بين تداخُل أطرافِها بَعْضِها فى بعضٍ ، طلباً لتصحيح المَسيرة ، وطلباً للوضوح ، وطلباً للنَّهْجِ السَوِىِّ والطريق المستقيم .

فهذا ، كما ترى ، مَيْدانٌ لا يُطيق النزول فى أَرضه وبحقّه ، إلاَّ من أُوتى حظًّا وافراً من البَصر النافذ ، والإخلاص المتجرِّد لطلب الحقِّ وإدراكِه . وبطبيعة هذا المَيْدانِ ، تدخُل نَفْسُ النازِلِ فى أرضه عاملاً حاسِماً فى شَطْرى « ما قبل المنهج » : تدخُل أوَّلاً من طريقِ معرفة « اللغة » التى نشأ فيها صَغيراً = وتدخل ثانياً من طريق « الثقافة » التى ارتضَعَ لِبَانَها يافِعاً = وتدخُلُ ثالثاً من طريق أهوائِه ومَنَازِعِهِ التى يملكُ ضَبْطَهَا أَوْ لا يملكُه ، بعد أن آستوَى رجُلاً مُبيناً عن نَفْسه . فهذا الثالث هو موضع المخافَة ، الذى يستوجب الحذَر ، ويقتضِيك حُسْن التحرِّى .

١ - ● فمن طريق « اللغة » التى نشأ فيها صغيراً ، فإنَّه يُسَدِّدُه أو يَتهدّدُه ، الإحاطةُ بأسرارِ « اللغة » وأساليبِها الظَّاهرةِ والباطنةِ ، وعجائبِ تَصاريفها التى تجمَّعت وتشابكتْ على مرِّ القرون البعيدة ، فصارت ألفاظُها وتراكيبُها الموروثةُ والمُسْتَحْدَثةُ تحملُ من كُلِّ زمانٍ مضَى وكُلِّ جيلٍ سبقَ ، نَفْحَةً من نَفَحات البيان الإنسانىّ بخصائصه المعقَّدَة والمكتَّمة ، أو خصائصه السَّمْحة والمُسْتَعْلِنة . وبين تمام الإحاطة باللغة وقُصُورِ الإحاطةِ بها ، مزالِقُ تزلُّ عليها الأقدامُ ، ومَخاطِرُ يُخْشَى معها أن تنقلبَ وُجوه المعانى مُشوَّهة الخِلْقةِ مستنكَرةَ المَرْآةِ ، بقَدْرِ بُعدْها عن الأسرار الخفيّة المُسْتَكِنَّة فى هذه الألفاظ والتراكيب ، وهذا بابٌ واسعٌ يحتاجُ إلى بيانٍ لا يُحاطُ به فى مثل هذا الموضع . ولكن كُنْ أبداً على حذرٍ ، فإنَّه ممكنٌ أيضاً كُلَّ الإمكان ، أن يدخُلَ عليك من هذا

الباب مَكْرُ الماكر ، وعَبَثُ العابث ، واحتيالُ المُحتالِ ، « حتَّى ترىَ حَسَناً ما ليس بالحَسَنِ » ، كما قال الشاعر . (١)

٢ - ● ومن طريق « الثقافة » ، فإنّ « الثقافة » ، فٱعلمْ ، تكادُ تكونُ سِرًّا من الأسرارِ الملثَّمةِ فى كُلِّ أُمّةٍ من الأُمَم وفى كُلِّ جيلٍ من البشر . وهى فى أصلها الراسخِ البعيد الغَوْر ، معارفُ كثيرةٌ لا تُحْصَى ، متنوِّعةٌ أبلغَ التنوُّع لا يكادُ يحاطُ بها ، مطلوبةٌ فى كُلِّ مجتمعٍ إنسانيّ للإيمان بها أوّلاً عن طريقِ العَقْل والقلبِ = ثم للعمَلِ بها حتَّى تذوبَ فى بُنْيانِ الإنسانِ وتَجْرى منه مَجْرَى الدَّمِ لا يكادُ يُحسُّ به = ثم للانتماءِ إليها بعقله وقَلْبه وخيالِه انتماءً يحفظُه ويحَفَظُها من التفكُّكِ والانهيار ، وتحوطُهُ ويحوطُها حتى لَا يُفْضِى إلى مَفَاوِز الضَّياع والهلاكِ . وبين تَمام الإدراكِ الواضح لأسرار « الثقافة » وقُصُور هذا الإدراكِ ، منازِلُ تلتبِسُ فيها الأمورُ وتختلط ، ومَسالِكُ تَضِلُّ فيها العقولُ والأوهامُ حتى ترتكِسَ فى حَمْأَة الحَيْرة ، بقَدرْ بُعْدها عن لُبَاب هذه « الثقافة » وحقائقِها العَمِيقةِ البعيدةِ المتشعِّبةِ . فهذا أيضاً بابٌ واسعٌ جدًّا يَحْتاج إلى تفصيلٍ لا يُحَاط به فى مثل هذا الموضع . وكُنْ أبداً على حَذرٍ ، فإنّه ممكنٌ كلَّ الإمكانِ أن يَدِبَّ إليكَ منه دبيباً خفيًّا ، مَكْرُ الماكر ، وعَبَثُ العابثِ ، واحتيالُ المُحْتالِ ، حتَّى « تحسَبَ الشَّحْمَ فيمن شَحمهُ وَرَمٌ » ، كما يقول المتنبىّ . (٢)

٣ - ● ومن طريق « الأهواءِ » ، وهى التى تَسْرِى فى خَفَاءٍ وتَدِبُّ ، إلاَّ أنَّها لا تَدِبُّ

---

(١) هو من قول الشاعر :

يُقْضَى على المَرْءِ فى أيَّام مِحْنَتِهِ   حتى يَرَى حَسَناً مَا لَيْس بالحَسَنِ

(٢) هو قوله معاتباً لسيف الدولة :

أُعِيذُهَا نَظَراتٍ مِنْكَ صَادِقَةً   أن تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُه وَرَمُ

ولا تأتيك إلاَّ متبرِّجةً فى تَمامِ زينتها من « اللغة » ومن « الثقافة » ، مُتَردِّيةً بِرداءِ بَراءة القَصْد وخُلُوصِ النيّة ، متحلِّيةً بجواهر الدقّةِ والاستيعاب والتمحيص والمهارةِ والحِذْق ، حتَّى يُتَاح لصاحبها أن يقتنِصَ غَفْلَتك ، ويتلعَّبَ عندئذٍ بك وبعقلك ما شاءَ له التلعُّب ، من حيثُ يُوهمك أَنّه قد استوعبَ لك جمع « المادة » ، ويُهَوِّل عليك تهويلَ السَّحرةِ بما يحشُدُ تحت عينيك ويستكثر ، مُخْفِياً عنك بتمويهه من « المادةِ » ما قد يُبْطِل ما أراد به سِحْرَ عينيك واهتبالَ غَفْلتك ، ثم استلحاقَ عَقْلِك بعقْله ، إذْ أنتَ عندئذٍ مفتونٌ بالزِّينة المتبرِّجَة ، وبتحاسِين رِداءِ البراءة وخُلُوص النيِّة ، وبالحُليِّ النفيسة المتلألئة التى يتطلَّبها « ما قبلَ المنهج » بشَطرَيْه : « المادة » و « التطبيق » ، إذْ أنت هائمٌ معه ، مُرِيدًا أوْ غير مريدٍ ، « فى إثْر كُلِّ قَبيحٍ وجْهُهُ حَسَنُ » ، كما يقول أبو الطيب . (٢)

* * *

١٢ — • قد بيَّنتُ لك ما آستطعتُ طبيعةَ هذا المَيْدان ، مَيْدان « ما قبل المنهج » ، وطبيعةَ النازلين فيه من الكتاب والعلماءِ والمفكِّرين ، ثُمَّ المخاوفَ التى تَتَهدَّدُ « ما قبل المنهج » بالتدمير وبالفسادِ حتى يُصبحَ رُكَاماً من الأضاليل ، وحتى تفسُدَ الحياة الأدبيةُ فساداً يستعصى أحياناً على البُرْءِ . وأمرُ النَّازلين فيه أمرٌ شديدُ الخَطَر ، يحتاجُ إلى ضبطٍ وتَحَرٍّ وحذَرٍ . ولا يغرُرْك ما غَرِى به ، (أى أُولِع) ، بعضُ المتشدِّقين المُموِّهين : « أنّ القاعدةَ الأساسيّة فى منهج ديكارت ، هى أن يتجرَّدَ الباحثُ من كُلِّ

---

(١) هو من قوله يذكر أهلَ العشق :

مِمَّا أَضرَّ بأَهْلِ العِشْقِ أَنَّهُمُ هَوُوا ، وما عَرَفُوا الدُّنيا وَمَا فَطَنُوا
تَفْنَى عُيُونُهُم دَمْعاً ، وَأَنْفُسُهُمْ فى إثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

شىء كانَ يعلمُه من قبلُ ، وأنْ يستقبِلَ بحثَهُ خالِىَ الذِّهنِ خُلُوًّا تامًّا ممّا قيلَ » ، (فى الشعر الجاهلى : ١١) فإنّه شىءٌ لا أصلَ له ، ويكادُ يكونُ ، بهذه الصِّياغةِ ، كذِباً مُصَفًّى لا يشُوبُه ذَرْوٌ من الصِّدْق ، (والذَّرْوُ : دقيق التراب) ، بل هو بهذه الصورة خارجٌ عن طَوْقِ البشر . هَبْهُ يستطيعُ أن يُخْلِى ذهنَه خُلوًّا تامًّا ممَّا قيل ، وأن يتجرَّدَ من كُلِّ شىءٍ كانَ يعلمهُ من قبلُ ، أَفَمُسْتطيعٌ هُوَ أيضاً أن يتجرَّدَ من سُلطان « اللغة » التى غُذِى بها صغيراً ، وبها صار إنساناً ناطقاً بعدَ أن كانَ فى المَهْد وليداً لا ينْطقُ ؟ أفمُسْتطيعٌ هو أن يتجرَّد من سَطْوةِ « الثقافة » التى جَرَتْ منه مَجْرَى لِبانِ الأمِّ من وَليدِها ؟ أفَمُسْتطيعٌ هو أن يتجرَّد كُلَّ التجرُّد من بَطْشةِ « الأهواء » التى تستكينُ ضارعةً فى أغوارِ النفس وفى كهوفِها ، حتى تَمْرُقَ من مَكْمَنها لتستَبِدَّ بالقَهْرِ وتتسَلَّطَ ؟ = كلامٌ يجرى على اللِّسان بلا زِمامٍ يضبطُهُ أو يكبَحُه ، مَحْصولُه أنَّهُ يتطلَّب إنساناً فارغاً خاوياً مكوَّناً من عِظامٍ كُسِيتْ جلداً ، لا أكثر !!

فإذا كانَ « ما قبل المنهج » مُهَدَّدًا بالغوائِلِ كُلَّ هذا التهديد ، كما بَيَّنتُه لك فى الفقرة السالفة ، (١١) ، غوائلِ قُصُورِ الإدراك من ناحيةٍ ، وغوائِلِ الأهواءِ التى تبدأُ بالخاطر الأوّل الذى يستهوى الباحثَ ، وتنتهى إلى المكر والعَبَث والكذِب وخيانةِ الأمانةِ = إذا كان هذا ، كما وصفتُ لك ، فما الذى يَعْصِم من هذا الوباءِ الحالِق الذى يَحْلِق المعرفة حَلْقاً من أصولها ؟

فالعاصمُ يأتى من قِبَلِ « الثقافة » التى تذوبُ فى بُنْيان الإنسان وتَجْرى منه مَجْرَى الدَّم لا يكادُ يُحِسُّ به = لا من حيثُ هى معارفُ متنوِّعةٌ تُدْركُ بالعقل وحسبُ ، بل من حيثُ هى معارفُ يُؤْمن بصحَّتها من طريق العقل والقلبِ ، ومن حيثُ هى معارف مطلوبةٌ للعمل بها ، والالتزامِ بما يوجبُه ذاك « الإيمان » ، ثُمّ من حيثُ هى بعد ذلك انتماءٌ إلى هذه الثقافة انتماءً يَنبغى أن يُدْرِكَ معه تمامَ الإدراك أنّه لو فرَّط فيه لأدّاهُ تفريطُه إلى الضياعِ والهلاكِ ، ضَياعِه هو ، وضَياعِ ما ينتمى إليه .

فرأْس الأمر ، كما ترى ، هو ما يتعلَّقُ بنفس النازل ميدانَ « ما قبل المنهج » . وهو بهذه المَثَابَةِ أصلٌ « أخلاقيٌّ » قبلَ كُلِّ شيء وبعدَ كُلِّ شيءٍ . وإغفالُ هذا « الأصل الأخلاقيّ » من قِبَلِ نازل هذا الميدان ، أوْ من قِبَلِ المتلقّى عنه ، يجعل قضية « المنهج » و « ما قبل المنهج » فَوْضَى مبعثرةً لا يتبيَّنُ فيها حقٌّ من باطلٍ ، ولا صِدْقٌ من كذبٍ ، ولا صحيحٌ من سقيمٍ ، ولا صوابٌ من خطأٍ . ولذلك قلتُ فى الفقرة الحادية عشرة إنّه موضع المَخافة الذى يستوجبُ الحَذَر ، ويَقْتَضِيك حُسْنَ التحرِّى ، أى دِقَّته ، ثم أَتْبَعْتُه بما قلت لك فى أوَّل هذه الفقرة الثانية عشرة .

ورأسُ كُلِّ « ثقافةٍ » هو « الدين » بمعناه العامّ ، والذى هو فِطْرَةُ الإنسانِ ، أىَّ دينٍ كانَ = أو ما كان فى معنى « الدين » = وبقدرِ شُمول هذا « الدين » لجميع ما يكبَحُ جُموح النفس الإنسانية ويَحْجِزُها عن أنْ تَزِيغَ عن الفِطْرةِ السَّوِية العادلة = وبقَدْر تغلغُلِه إلى أغوارِ النفس تغلغُلاً يجعل صاحبَها قادراً على ضبطِ الأهواء الجائرةِ ، ومُرِيدًا لهذا الضَّبْط = بقَدْر هذا الشمول وهذا التغلغُلِ فى بُنْيان الإنسانِ ، تكونُ قوَّة العَواصِم التى تعصِمُ صاحبها من كُلِّ عيبٍ قادحٍ فى مَسِيرة « ما قبل المنهج » ، ثم فى مَسِيرة « المنهج » الذى ينشعبُ من شَطْرِه الثانى ، وهو « شَطر التطبيق » .

وهذا الذى حدَّثْتُك عنه ، ليس خاصًّا بأُمَّةٍ ، بل هو شَأْن كلِّ جِيلٍ من الناس وكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم ، كان لها « لغة » وكان لها « ثقَافة » ، وكان لها بعد تَمامِ ذلك « حضارةٌ » مؤسَّسةٌ على لُغتها وثقافتها . فهذا « الأصلُ الأخلاقىّ » هو العامِلُ الحاسمُ الذى يمكِّنُ لثقافة الأمَّة بمعناها الشامل ، أنْ تبقَى متماسكةً مترابطةً تزدادُ على الأيَّام تماسُكاً وترابُطاً ، بقدر ما يكونُ فى هذا « الأصل الأخلاقىّ » من الوضوح والشُّمول والتغلغُل والسيطرةِ على نفوس أهْلِهَا جميعاً ، سواءٌ فى ذلك النازلون فى مَيْدان « ما قبل المنهج » أو فى مَيْدان « المنهج » نَفْسِه ، وهم العلماء المفكرِّون والأدباء ، والمُتَلقُّون عنهم : تلامذةً كانوا ،

أو أشباهَ تلامذةٍ من قارئٍ أو سامِعٍ أوْ كلّ متطلّبٍ للمعرفة . وكُلُّ اختلالٍ يَعْرِضُ فيُضْعِف سَيْطرة هذا « الأصل الأخلاقىّ » ، أو يُؤدِّى إلى غُموضه أو غِيابه أو تَناسِيه أو قِلَّةِ الاحتفالِ به ، فهو إيذانٌ بتفكُّك الثَّقافة وانهيار الحضارة إيذاناً صارخاً لا مَعْدَى عنه ، مَهْما بلغتْ هذه الثقافةُ وهذه الحضارةُ ، فى ظاهر الأمرِ أو فى العِيَانِ ، مبلغاً سامقاً من الغَلَبة والانتشار ، ومهما كانَ لها من الّلألْاءِ والتَّبرُّج والزِّينة ما يَفْتِنُ العقولَ ويَسْبِى القلوبَ .

والحديثُ عن هذا « الأصلِ الأخلاق » فى كُلّ ثقافة يطولُ ويتشعّب ؛ ولكن من المهمِّ أن تَعلمَ أنّه ليس قواعدَ عقليّةً ينفردُ العقلُ بتقريرها ابتداءً من عند نفسِه ، لأن القواعد العقليّة مهما بلغت من القوةِ والسيطرةِ لا تستطيع أن تقوم بهذا العِبْءِ ، لسبب لا يمكن إغفالُهُ فى مثل هذه القضيَّة ، وهذا السبب هو أنّ الأمرَ كُلَّه متعلّقٌ بالإنسان نفسه . وكُلُّ إنسانٍ صندوقٌ مُغْلَق ، فيه من الطبائع والغرائز والأهواءِ المتنازعة بين الخير والشرِّ ، وفيه أيضاً من القوَّةِ والضعفِ ، مقاديرُ مختلفةٌ لا تكادُ تُضْبَطُ أحوالُها وآثارها ، وأيضاً لا يكادُ يُضْبَطُ تَقلُّبها تَقَلُّباً يُفْضِى إلى الحيرةِ فى شأن صاحِبها . وكما لا يتشابه اثنانِ من البشَر فى الخِلْقة والصُّورة والملامح ومَعارف الوجُوهِ ، فكذلك لا يتشابه اثنانِ فى الطبائع والغرائز والأهواءِ ، ولا فى مقادير القوةِ والضعف ، ولا فى مقادير الأحوالِ والآثار والتقلُّبات التى تَعْرِضُ لها وتنشأُ عَنْها . فالضابطُ لهذا الموج المتلاطِمِ المتصادِم فى الصندوق المُغْلَق ، لابُدَّ أن يكون كَامناً فى سَرِيرةِ الإنسانِ نفسه ، مُسَيْطِراً عليه سيطرةً مستمرَّةً لا ينالُها الوَهَنُ ، وفيه قوَّةٌ شاملةٌ قادِرةٌ على أن تُمسِك بهذا الموج المضطربِ إمساكاً لا يضطرب ، ويكون أيضاً رقيباً يَقِظاً ملازماً لا يغفُلُ ، يكبحُ المرءَ عند كُلِّ مُنْعَرَجٍ يَنْعرِجُ به إلى طريق الجَوْر فى كُلّ خُطْوةٍ يَخطُوها ، وينبِّهُه ويُوقِظُه عند كُلّ التفاتةٍ تصرفُ وجهه عن سلوك الطريق المستقيم . فالقواعد العقلية المجرَّدة ، لا تكادُ تقومُ

بهذا العِبْءِ كُلّه ، بل « العقائِدُ » وحدها هى صاحبة هذا السلطان على الإنسانِ ، لأنها إمّا أنّ تكون مغروزةً فى فِطْرته منذُ خُلِق إنساناً عاقِلاً مُبايناً لسائر الحيوانِ ، وإمّا أن تكون مكتسبَةً ، ولكنها مُنَزَّلةٌ مَنْزِلة العقائد المغروزة فيه ، ولأنّها جميعاً هى التى يرتضُعها من أمّه وأبيه وجَماعته منذُ كان وليداً إلى أنْ يَشِبَّ ويَعْقِلَ . ولذلك قلتُ لك آنفاً إنّ هذا الضابط الرقيب يأتى من قِبَلِ « الثقافة » ، ورأسُ الثقافة هو « الدين » أو ما كانَ فى معنى « الدين » .

وأسلافُنا ، نحن العربَ والمسلمين ، قد مَنَحُوا هذا « الأصلَ الأخلاقىَّ » عنايةً فائقةً شاملةً ، لم يكنْ لها شبيهٌ عند أمةٍ سبقتْهُم ، ولم يُتَحْ لأُمَّة لحقَتْهُم وجاءتْ بعدهُم أن يكون لها عندهُم شبيهٌ أو مقاربٌ . وهذه العناية بالأصل الأخلاقىّ هى التى حَفِظَتْ على الثقافة الإسلاميّة تماسُكها وترابُطها مدّةَ أربعةَ عشَر قرناً ، مع كُلِّ ما مرَّ عليها من القَوارِع والنكَبَات ووقائع الدهرِ على طولِ هذا المَدَى ، ومع كُلّ ما آنتابها من الضّعف ، ومعَ كُلّ ما آعتَوَرَها أو دخلَ عليها من التقصير والخَلَل . وبقاءُ هذا التماسُك على طول القرونِ ، هو وَحْدَه إحدى عجائبِ الحضاراتِ والثقافاتِ التى عرفَها البَشَرُ . [1]

• • •

(١) كان ينبغى هنا أن أتمّم القول فى نشأة « الأصل الأخلاق » الذى بُنِيَتْ عليه ثقافتنا ، منذُ حدث أوّل خلافٍ بعد وفاة رسول الله ﷺ ، بين أبى بكر وعمر وزيد بن ثابتٍ فى جمع القرآن العظيم وكتابته بين دَفَّتين ، ثم ما تلا ذلك من طلب التوثُّق فى رواية حديث رسول الله ﷺ ، ثم ما كان من أمر علماء الصحابة فى الفتوى ، ثم ما كان من أمر التابعين ثم مَنْ بعدهم حتى نشأ علم الجرح والتعديل ، وهو علمٌ فريدٌ لا مثيلَ له عند أمّةٍ من الأمَم . ثم غلبة هذا « الأصل الأخلاق » على الثقافة العربية الإسلامية كُلّها ، فى جميع علومها ، وعناية هذه الأمّة بإفراد هذا الأصل بالتأليف ، كالذى ألّفوه فى آداب العالم والمتعلم ، والفقيه والمتفقّه ، وعلم النظر والمناظرة ، وعلم الجدل ، وعلم آداب الدرس ، إلى غير ذلك ممّا هو اليومَ مجهول أو كالمجهول لانصراف الناس عنه ، وتركهم جمعَ شتّاته وإعادةَ النظر فيه .

١٣ — لم أنتهِ بعدُ إلى جوابِ السؤال الذى بدأتُ به الفقرة العاشرة : كيف نشأ الخلافُ ، ولِمَ ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ؟ ولا يأتيك الجوابُ صريحاً بيِّناً أميناً ، إلاّ بَعْدَ أن أقُصَّ عليك قِصَّةَ تاريخٍ طويلٍ سوف أختصره لك اختصاراً مُوجَزاً أشدَّ الإيجاز ما استطعتُ . وذلكَ لأنّ هذا الفَسادَ لم يدخُلْ على ثقافتنا دخولاً يُوشِكُ أنْ يَطْمِسَ مَعَالمها ويُطْفِىءَ أنوارَهَا ، إلاّ بعد التصادُم الصامتِ المخيفِ الذى حَدَث بيننا وبين الثقافة الأُوربيّة الحاضرةِ . وإذا نحنُ أغفلنا هذا التاريخ ولم نتبيَّنْه تبيُّناً واضحاً ، فكأننا أغفلنا القضيَّة كُلَّها ، وأسقطناهَا إسقَاطاً من عُقُولنا ، وخالفنا سُنَّة العُقَلاءِ المميِّزين فى التبصُّرِ والتَّبَيُّنِ وتَرْكِ التساهُلِ عند مَوَاطن الخَطَر ، وصار كلامُنا فى « الثقافة » سُدًى كُلُّه وهَدَراً ، ثم عَبَثاً وثرثرةً وتَغْريراً ، كما هو حادثٌ الآن فى حياتِنا الأدبيةِ هذه الفاسدةِ ، وصارَ الأمرُ كُلُّه جُبْناً عن طَلَب الحقِّ ، واستنَامةً لِخِداعِ الباطِل وتَسْوِيله الخفِىِّ ، واستدراجِه إيَّانَا إلى سَرَابٍ مُهْلِكٍ .

• هُمْ ، أعنى الأوربيِّين ، يرونَ أنَّ أوربّة سقطت فى حمأة « القرون الوسطى » المظلمة ، منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ ، أى قبل الهجرة بنحو مئة وخمسين سنة ، والحقيقة أنّ أوربة التى هى قلبُ القارّة ، كانت ساقطةً فيما هو أسوأ من « القرون الوسطى » قبل ذلك بقرون طويلة . كانوا فى جاهليةٍ جهلاءَ ، أهلُها هَمَجٌ هامجٌ ، لا دِينَ يجمعهُم ، حتى جاء « عصر النهضة » فى القرن السادسَ عشر الميلادى (١٦٠٠ م) ، أى بعد عشرة قرونٍ . وفى خِلال هذه الفترة حدث أمرانِ مُهمّانِ ، إغفالُ النظر إليهما من قِبَلِنا نحنُ ، يُضِرُّ بتصوُّرِنا للحقيقةِ التى ينبغى أن يعرفَها صغيرُنا وكبيرُنا ، ورجَالُنا ونساؤنا ، على وجهها الصحيح ، لا على الوجْه الذى عُلِّمنَاهُ فى المدارس صغاراً ، بل لا نزالُ نُعلِّمه أولادَنَا ، وكانَ من أهمِّ أسبابِ فسادِ حياتنا الأدبيّة إلى اليوم .

• الأمر الأوّل : « الحروبُ الصليبيَّةُ » التى بدأتْ سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) ، أى بعد ستة قرون من سقوط الإمبراطورية الرومانية ، فى خلالها كان الإسلام قد ظهر بدينه وثقافته وغلبَ على رُقْعة ممتدّةٍ من حدود الصين إلى الهند ، إلى أقصى الأندلس ، إلى قلب إفريقية ، وأنشأ حضارةً نبيلةً متماسكةً كاملةً ، بعد أنْ رَدَّ النصرانيَّة وأخرجها من الأرض ، وحصرَهَا فى الرقعة الشماليَّة التى فيها هذا الهمجُ الهامجُ الذى كان يعيش فيما يعرف اليوم باسم « أوربة » . وظلَّ الصِّراعُ مُشتعلاً مُدّة خمسة قرون ، بين النصرانية المحصورة فى الشمالِ وبين الإسلام الذى يتاخِمُها جنوباً . ولكنّ جيوشَ النصرانية لم تستطع أن تفعلَ شيئاً يُذْكرُ ، مع تطاوُلِ الأمر . وتدبَّر الأمرَ قَادةُ النصرانيَّة ، وهم رجال الكنيسة وملوك الإقطاع ، وداخلتْهم الخشيةُ ، وخافوا أن يُفْضِى الأمْرُ إلى زَوال سلطان النصرانية عن جنوبِ أوربة ، كما زال بالأمس عن الأندَلُس . فرأوا أنْ يَتَّجهُوا إلى الشمالِ ، ليدخلُوا فى النصرانية هذا الهمج الهامجَ الذى لا دين لَهُ يجمعُه ، ليكون بعد قليلٍ مددًا لجيوشٍ جرَّارة تطبقُ على ثغور الإسلامِ وعواصمه فى الشام ومصر ، (الثغور ، والعواصم ، هى البلاد المتاخمة لحدود العدوّ من النصارى وغيرهم) .

انطلق الرهبانُ يجوبونَ شمالَ أُوربة ليدخلُوا الهمجَ الهامجَ فى النصرانية ، ويُعِدُّوهُمْ إعداداً عظيماً لخوض المعركة العُظْمى بين الإسلام والنصرانية ، وكانَ جزءًا من هذا الإعدادِ : تبشيعُ « الإسلام » فى عيونهم ، وأن أهل الإسلام وثنيُّون ، وأن رسولَ الإسلامِ كانَ وكان ... فلم يتركوا باباً من الكذبِ والتمويهِ والبشاعة إلاّ دخلوهُ ، ليُقِرُّوا معانِيَهُ فى قَرَارة نفوس أتباعهم من الهَمَج الهامج ، ليكون حقًّا مَحْضاً ، قد نطق به راهبٌ أو ناسكٌ أو قِسِّيس ، فهو مُنَزّهٌ لا ينطقُ إلا بالحقّ . فهذا الحقُّ إذَنْ ، هو عندهم قَسِيمُ الدِّين الذى آمنوا به واعتنقوهُ .

وجاءت سنة ١٠٩٦ م ، (٤٨٩ هـ) ، وجُيِّشتِ الجيوشُ من هذا الهمَج الهامج

من التُّرمَنْديِّين والصقالبة والسكسون ، بقيادة الرهبانِ وملوكِ الإقطاع ، وبدأت « الحرب الصليبية » ، واكتسحت فى طريقها أهل النَّصرانية وسفحت دماءهُم بفظَاظة ، وبدأت تكتسِحُ ثغور الإسلامِ وعواصمه الشمالية وتسفح الدماءَ المسلمة ، واستمرَّت قائمةً قرنين كاملينِ . كانت فرحةً رائعةً ، ولكنها انتهت بالإخفاقِ وباليأس من حربِ السلاحِ فى سنة ١٢٩١ م ، (٦٩٠ هـ) ، بعد أن تركتْ فى أنفُس المقاتلين الهَمَج بصيصاً من اليَقَظة والتنبُّه ، باحتكاكهم المستمرّ بحضارة راقيةٍ كانت تَفْتِنُهم ، وتبعثُ فى نفوسهم الشكَّ فيما كانوا قد سمِعُوه من رُهْبانهم وملوكهم ، وتُثيرُ فى نفوس العائدين إلى مواطنهم ضروباً مختلفةً من القلَق ، هى على قِلّتها يُخْشَى أن تنتشر فى جماهير هذه الأمم الجاهلة ، فتُضْعِفَ حَمِيَّتهم ونَخْوتَهُم . وكانتْ حسرةً وغُصَّةً فى قلوب الرُّهْبان والملوك والمثقَّفين ، وحاولوا أن يستبقوا هذه الصورة المشوَّهة عن الإسلام والمسلمين قائمةً راسخةً فى أنفُس الجماهير المتحمّسةِ للدفاع عن نصرانيتها الجديدة . هذه واحدة .

• الأمر الثانى : بَطَل عمل السلاح بالإخفاق واليأس ، وخمدت الحُروب تقريباً بين الإسلام والصليبيّة نحو قرنٍ ونصفِ قرنٍ ، ثم وقعت الواقعة . اكتُسِحَت الأرض المسيحيّة فى آسية ، فى شمال الشام ، ودخلت برُمّتِها فى حَوْزة الإسلام . وفى يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ/ ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، سقطت القسطنطينيّة عاصمة المسيحية ، ودخلها « محمد الفاتح » بالتكبير والتهليل ، وارتفع الأذانُ فى طرف أوربة الشرق . إذنْ ، فقد وقعت الواقعة !! واهتزَّ العالم الأوربىّ كُلّه هزّةً عنيفةً ممزوجةً بالخِزْى والخوفِ والرُّعب والغضب والحِقْد ، ولكن قارَنَ ذلكَ إصرارٌ مستميتٌ على دَفْع هذا الخِزْيِ ، وإمَاطة هذا الخوفِ والرُّعْب ، وإشْعالِ نيرانِ الغضب والحِقْد ، بحميَّةٍ تأنفُ من الاستكانة لذُلِّ القَهْر الذى أحدثهُ « محمد الفاتح » ورجالُه من المسلمين الظافرين .

ومنْ يومئذٍ ، بدأتْ أوربّة تتغيَّر ، لتخرجَ من هذا المأزِق الضَّنْك . وبهمَّةٍ لا تَفْتُر ولاَ تعرفُ الكَلَلَ ، بدأ الرهبانُ وتلاميذهُم معركة أخرى أقسَى من معارك الحرب ، معركة المعرفةِ والعلم الذى هيّأ للمسلمين ما هيّأ من أسباب الظَّفَر والغَلَبة . لقد علمُوا الآنَ أن معركة السلاح لن تُغْنِى عنهم شيئاً ، وهذه أمواجُ المسلمين تتدفَّقُ فى قلب أوربّة غرباً ، ويدخُلُ الإسلامَ سِلْماً بلا إكراهٍ جماهيرُ غفيرةٌ ، كانوا بالأمس نَصارَى متحمِّسين فى قتالِ المسلمين ، الوثنيِّين ، كما أوهمَهم الرهبان ، فلم يُغْنِ هذا الإيهامُ عنهم شيئاً .

• • •

١٤ – وهذا المأْزِق الضَّنْكُ فى حياةِ المسيحية ، له تاريخٌ قديمٌ سابقٌ لا يمكنُ إغفالُه ، بل ينبغى أن يكون واضحاً لنا كلَّ الوضوح ، لأنّ غموضَه سببٌ كبيرٌ من أسباب فَسَاد حياتنا الأدبيّة إلى هذا اليوم ، بل إلى هذه الساعة التى تقرأ فيها كلامى . فعند مجئِ الإسلامِ ، كان سلطانُ الكنائس المسيحيةِ مبسوطًا على الشام ، ومصرَ ، وشمالِ إفريقية ، وأرض الأندلُس منذ قرون طويلة سبقتْ . وفى طَرْفة عينٍ ، فى أقلَّ من ثمانين سنةً ، تقوَّضَ فجأة سلطان المسيحية على هذه الرقعة الواسعة المتراحبة وزالَ زوَالاً سهلاً ، وتقوَّض أيضاً سُلطانُها على نفوس الجماهير الغفيرة من رعاياها ، ودخلوا دخولاً سهلاً يسيراً فى الإسلام طوعاً بلا إكراهٍ = بل أعجبُ من ذلك ، صاروا هُمْ جُنْدَ الإسلامِ وحُمَاةَ ثُغُوره وعواصمه ، وقارعُوا النصرانيَّة وحصروهَا فى الشمالِ الأوربىّ = بل أعجبُ من ذلك أيضاً ، أنْ دخلُوا فى العربيّة دخولاً غريباً وصارَ لسانُهم لسانَها = بل أعجبُ من ذلك أيضاً ، أنْ خرجَ من أَصْلاَبِهم كثرةٌ كاثرةٌ من العلماء الكبار الذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وبالعِلْم وبالسيف . وصارت دارُ الإسلامِ كُلُّها ديارَ ثقافة وعِلْمٍ وخُلُقٍ وحضارةٍ تبهر الأنظارَ والعقول ، فى المشرقِ حيث مَقَرُّ الخلافة فى

دمشقَ وبغدادَ ، وفى المغربِ حيث ديارُ الأندلس . كيف حَدَث هذا ؟ سؤال جوابُه جوابٌ طويلٌ ليس هذا مكانَه ، ولكنّه كان سؤالاً يتردّد فى ضميرِ المسيحيّة كُلِّها .

كانَ جُزْءًا من جواب هذا السؤالِ أنْ جاهدت الدولة البيزنطيّة فى الشمال أن تستردّ ما ضاعَ ، وظَلَّتْ أربعةَ قرونٍ تحاول أن تعود فتخترقَ هذا العالم الإسلامى من طرفه الشمالىّ عند الشام ، وذهبَ جهدُها هدراً ، ولم يُغْنِ عنهم السلاحُ شيئاً . وكُلّ يوم يمرُّ ، يزدادُ رعايَا الرُّهبان والملوك انبهاراً بالإسلام وخُلُقه وثقافَته وحضارته ، ولم ينجُ من هذا الانبهار لا الملوك ولا الرهبانُ أنفُسُهم . وضاق الأمرُ ، وكاد اليأسُ يُخَامِر قلبَ المسيحيّة ، لا تدرى ماذا تفعل فى تساقط رعايَاها فى الإسلام ، أو فى ثقافته وحضارته ، طوعاً بلا إكراهٍ . ما معنى هذا ؟ أيكونُ معناه أنّ المسيحية على ما هى عليه غير مُقْنِعةٍ لجماهير الرَّعايَا ؟ ولم يُحِيروا جواباً ، ولا وجدُوا لأنفُسهم مخرجاً ، وَالْتَقَتْ حَلْقَتا البِطَان ! (البِطانُ : حِزام الرحل على البعير ، وهو مَثَلٌ يضربُ للأمر إذا اشتدَّ وضاق) .

ثُمَّ جاءَ ما يبدِّد هذا اليأسَ . هذه هى الجيوش الجرَّارة من الهَمَج الهامِج تتدفّقُ من قلب أوربة ، تريد أيضاً مرة أخرى ، اختراقَ العالم الإسلاميّ من شماله فى الشام . ونَشِبَت الحروبُ الصليبيَّة التى ستستمرُّ قرنين كاملين (١٠٩٦ - ١٢٩١ م / ٤٨٩ - ٦٩٠ هـ) ، فى خلالها استولَوْا على جزءٍ من أرضِ الشام ، وأقام به بعضهم إقامةً دائمة ، وأنشأوا ممالكَ ، وخالطوا المسلمين مخالطةً طويلة ، وأحرَزوا من كنوز العالم الإسلامى ثروةً هائلةً يستمتعون بها ، وعَرَف الهمجُ الهامجُ ما لم يكنْ يعرفُ ، وامتلأت قلوبهم شهوةً ورغبةً فيما فَتَنَتْهم بِه ديارُ الإسلام وحضارته . ويعود العائدون بعد كل حملةٍ من الحملات السبع الصليبية إلى ديارهم وأهليهم ، يتحدَّثون بما رأوا ، ويَصِفون ما حازوا ، ويبالغون فى كُلّ ذلك ، وينبهر السامعون ويتوقون إلى الرحلة والانضمام إلى كتائب المجاهدين الصليبيين ، لتحقيق آمالهم فى الغنى والثروة والاستمتاع ، ولكن طول معاشرة هذه

الجماهير للمسلمين أحدث لكثير منهم قَلَقاً فى صدق ما كانوا يسمعونه من الرهبانِ المتحمِّسِين المحرِّضين على الحربِ ، وهُمْ يُبَشِّعون لهم أمرَ المسلمين ودينهم وأخلاقَهم ، وحمل العائدون أيضاً هذا القَلَق وتحدَّثوا به . هكذا كان شأنُ جماهير الهمج الهامج فى ديارهم ، فإذا طالَ هذا وتكاثر ، فإنه ممّا يهدِّدُ المسيحية فى عُقْر ديارها فى الشمال كُلِّه ، بلا شكٍّ .

وانتبه بعض الرهبانِ والملوك وعُقَلاء الرجالِ ، وبحثوا عن مخرجٍ قبلَ أن يتفاقم الأمر . فكانَ بيِّنا لعقلائهم أن سِرَّ قُوَّة الحضارة الإسلامية هو العلمُ ، علمُ الدُّنيا وعلم الآخرة . فعلم الآخرةِ ، وهو الدينُ ، مُقْنِعٌ لجماهير البَشَر ، فهم يدخلونه طوعاً واختياراً = وعلم الدُّنيا ، كما رأوا ، هو الذى مكَّنَ لهذه الحضارة الإسلامية أن تمتلك هذه القوةَ الهائلةَ المتماسكةَ التى شَعَروا أنها مستعصيةٌ على الاختراقِ ، وهذه الأُبَّهة الهائلة التى تعيش فيها دارُ الإسلامِ .

ومضى نحو قرنٍ ونصفٍ من الحملات الصليبيَّة ، وأصبح الأمْرُ أشدّ حَرَجاً ، وصارَ بيِّناً أن الحروبَ الصليبيَّةَ تُوشِكُ أن تَؤُوبَ بالإخفاقِ مرَّة أُخْرى . فانبعثَ منهم رجالٌ يطلبونَ العلم والمعرفة فى أرض الإسلام ما استطاعوا ، فى المشرق وفى الأندلس ، وظهر رجالٌ من طَبَقة « روجر بيكُنْ » الإنجليزى ، (١٢١٤ - ١٢٩٤ / ٦١١ - ٦٩٣ هـ) ، ممَّن شامُّوا العربَ والعربيَّةَ ، وجاهدوا فى التعلُّم جهادَ المستميت بصبرٍ ودَأْبٍ ، ليزيحوا عن أنفسهم وأهليهم غوائلَ الجَهْل . وهبَّ رجالٌ من الرُّهْبان ذوى الحَمِيَّة أحسُّوا بالخَلَل الواقع فى الحياة المسيحية التى لم تَحْمِ رعاياهُم من التساقُط السَّهل فى الإسلام على طولِ القرون ، هبُّوا لإصلاح هذا الخَلَل . فكان من أكبرهم رجُلٌ ذكىٌّ متوقِّد ، جاهدَ جهاداً عظيماً فى سبيل دِينه ، أراد أن يزيلَ جهالة الرُّهْبان والملوكِ ، ويمكِّن لهم حُجَّة مُقْنِعةً تَحُول بينهم وبين هذا الانبهار بالإسلام وثقافته

وحضارته . ذلك الرجل هو « تُوما الإكوينيّ » الإيطاليّ الكاثوليكى ، (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م / ٦٢٢ - ٦٧٣ هـ) ، وبذكائه وحميَّته وإخلاصه ، استطاع أن يحصِّل قَدْراً كبيراً من العلم والمعرفة ، مُتَّكئًا اتِّكاءً كاملاً على القَدْر الذى استطاعَ أن يَفْهمه ويَظْفَر به من عند كتاب الإسلام وعلمائه وفلاسفته ومُتكلِّميه ، كابن رُشْدٍ وابن سينَا وغيرهم ، مريداً بكُلِّ ذلك إصلاحَ الخَلَل الواقع فى الحياة المسيحية ، والذى أضعفَ سُلطان الكنيسةِ والرُّهبانِ على نفوس رعاياهُم الذين لا سبيل لهُمْ إلى معرفة شئٍ من دينهم إلاّ عن طريق الكنيسة والقِسِّيسين والرُّهْبَان . ولكن كان العائقُ عن أن تُؤْتِى هذه النهضَةُ ثمارَها يومئذٍ أنَّ لُغَة الرهبانِ ثم العلماءِ كانت هى اللاتينيَّة القديمة ، وهى لُغَةٌ لا تعرفُها جماهيرُ رعايَا الكنيسة ، وكانت أوربّة كلها تتكلَّم لغاتٍ كثيرةً مختلفةً ، ولَهجاتٍ شديدةَ التبايُن ولكنَّها لغاتٌ قَلِقةٌ فى دور التكوين . وكان أكثر هذه الجماهير أُمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتب ، فأصبح الرهبانُ والعلماء يسيرون فى طريقٍ ، ورعايَا الرُّهبان يسيرون فى طريقٍ آخر ، فهُمْ قطيعٌ يَنْعِقُ فيه ناعقٌ بما لا يسمَعُ إلاّ دُعَاءً ونداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يعقِلونَ .

وقَضَى الله قَضَاءَه فى السابعَ عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ (١٧ من يونيه سنة ١٢٩١ م) ، وسقَطَ آخرُ حِصْنٍ كان للصليبيِّين فى الشام ، ورجعت آخر فُلُولِ الحملات الصليبيَّة إلى مواطنها متهالكةً يائسةً مُسْتَخْذِيَةً صُفْرَ الوجوهِ من الخِزْى والعارِ ، وفى قلوبِها حَسْرَةٌ قاتلةٌ على ما خرجَ من أيديها من متاع الدُّنْيا وبَهْجَتها وزُخْرُفها ، وفى سِرّ أنفُسِها يأسٌ مُحيِّرٌ ويَقينٌ مفزعٌ : أنَّ دارَ الإسلام دِيَارٌ ممتنعةٌ على الاختراقِ امتنَاعاً لا سبيلَ إلى تجربته مرَّة ثالثة .

وأيضاً ، قَضَى الله قضاءَهُ المستورَ الذى لم يَكْشِفْ عنهُ الحجابَ بعدُ : أنْ لا تكون الحربُ الصليبيَّة شرًّا محضاً على المسيحيّة المحصورة فى الشمالِ ، بلْ قَدَراً مقدوراً

يَحمِلُ لَهَا فى طِيَّاتِه خيراً محجوباً ، ليكونَ غداً ، بهذا الخيرِ الجنينِ ، عُقُوبةً لعبادِه فى دار الإسلامِ ، إذْ أعجبتهم كَثْرتُهمُ ، وغرَّتهم قوَّتهم ، وتاهُوا بما أُوتُوا من زُخْرف الحياةِ الدُّنيا ، وركبَ كثيرٌ من عامَّتهم محارمَ الله ، وخالطوا مَعَاصِيَ قد نُهُوا عنها ، ونَسُوا حظًّا منَ الحقِّ الذى فى أيديهم لا يأتيه الباطِلُ من بين يديه ولا من خَلْفه ، وتركُوا محجَّةً بيضاءَ لا يضِلُّ سالكُها ، واتَّبعوا السُّبُل فتفرَّقت بهم عن سبيله سُبحانه ، فأورَثَهم بذنوبهم غفلةً سوف تَطُول بهم حتّى يفتحُوا أعيُنهم فجأةً على بلاءٍ ماحقٍ . فقضى ربُّك أن تعيشَ أوربة كُلُّها قرناً ونصفَ قرنٍ بعد إخفاق الحروب الصليبية ، (١٢٩١ - ١٤٥٣ م / ٦٩٠ - ٨٥٧ هـ) فى إصرارٍ لا يتزعزعُ ، وفى دأبٍ لا يعوقه ملَلٌ ، على أن تُصْلح الخَلَل الواقعَ فى الحياة المسيحية ، وعلى تحصيل العلم والمعرفةِ من دار الإسلام بكُلِّ وسيلةٍ ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، رَجاءَ أن تجد مخرجاً من هذا المأزِقِ الضَّنْكِ الذى حُصِرتْ فيه . وهو تاريخٌ طويلٌ حافلٌ يُعْجِزنى أنْ أقصَّه عليك الآنَ .

• • •

١٥ - وبغتةً ، وقعت الواقعةُ فى يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٨٥٧/ ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ ، ودَخل « محمد الفاتح » حصنَ المسيحية الشمالية المنيع الشَّامخ ، مدينةَ القسطنطينية ، وقُضِيَ الأمر الذى فيه تَسْتَفْتِيان ، دخلها قُبيلَ العصر على صَهْوة جوادِه المطهَّم ، (الضَّخم البارع الجمال) ، واتجهَ إلى « كنيسة أيا صوفيا » ، وجماهيرُ رعايا الكنيسة يصلُّون ويبتهلون ويسألون الله أن يَدْفَعَ عنهم بَلاء « التُّرك » ، (أى المسلمين) . فلمَّا علم الراهبُ بقدومه أمرَ بفتح باب الكنيسةِ على مِصْراعيه ، وارتاع المصلُّون وماجُوا واضطربوا ، ودخل « محمد الفاتح » ، فتقدَّم إليهم أنْ يُتِمُّوا صلاتَهم آمنين غير مروَّعين ، وأمَّنهم على أموالهم وأعراضِهم ، وأن يعودوا إلى بيوتِهم سالمين . ودنت صلاة العَصْر ، وقامَ

أحد العلماءِ فأذّن للصلاة ، وصلّى المسلمُون العصر فى « كنيسة أيا صوفيا » ، ومن يومئذ حُوِّلت فصارت مسجداً . وانتشر الخبر كالبرقِ فى أرجاء أوربة ، ومادَت الدُّنيا بالخبر ، واهتزّتْ دُنيا المسيحية الأوربية هِزّة لم تعرف مثلَها قطُّ ، ولم يبق عليها راهبٌ ولا ملكٌ ولا أميرٌ ولا صعلوكٌ إلاّ انتفض انتفاضَة الغضَبِ لدينه . وما هو إلاّ قليلٌ حتى انطلقَ « محمد الفاتح » ، وانساحت كتائب الإسلام فى قلب أوربّة ... يا لها من فجيعةٍ !! وكانَ ما كانَ ....

بيدَ أنّ هذه الواقعةَ الباطشةَ على عُنْفِها ، وعلى سُرعِة ما تلاها من تدفُّق كتائب الإسلام مُنْسَاحةً فى قلب أوربّة ، لم تَفُتَّ فى عضُد المسيحية الشمالية ، بل على العكس ، زادها الإحساس بالخِزْى والعار حماسةً وتصميماً وتَحرُّقاً وحقداً خَالط كُلَّ نفسٍ من الخاصة والعامّة ، وصارَ هَمُّ « الترك » ، (أى المسلمين) ، همًّا مؤرِّقاً للعالم والجاهِل والصغير والكبير والذكر والأنثى ، وهام الرهبانُ وغير الرُّهْبَان فى جَنَبات أوربة غضاباً يحرّضون رعاياهُمْ على قتالِ هذه « التُرك » ، (أى المسلمين) ، بكُلِّ لسان قادرٍ على الإثارة وعلى التبشيع ، تَبشيع هذه « الترك » . وكلما ازدادَ « الترك » توغُّلاً فى أرض أوربة « المقدسة » ، ازداد الخوفُ ، وازداد التحريضُ على البغضاءِ والحِقْد ، ومع البغضاء المكتومةِ والتحريض ، زادَ التصميم على المقاومة . وتمضى الأيام والسنون وتتطاولُ ، وأوربَّةُ بأسْرِها لا تنامُ إلاّ على فراشٍ من الرَّمْضاءِ اللاذعة ، لا يدعُ لجنبٍ ساعةً من طُمَأْنِينةٍ ، يفزِّعُه شبح « التُّرك » ، وذكرى قرون طويلةٍ من الإخفاق والمَهَانَة والعار ، ولا قَرارَ على دَوِىّ أصواتٍ صارخةٍ تُهيب بهم إلى رَفْع هذا العارِ ودَفْعه عن دينهم وعن أنفُسهم وعن أوطانهم بكُلّ سبيلٍ . وكذلك رسَختْ فى العظامِ الحيّة ، لا فى النفوس وحدها ولا فى العقول ، بغضاءُ ساريةٌ مشتعلة للفظ « الترك » ، (أى المسلمين) ، لا تزدادُ على الأيّام إلا توهُّجاً وانتشاراً ، ونزلتْ من النفوس منزلةَ « الدِّينِ » الراسخ فى أعماقِ الفِطْرة .

وهذه البغضاءُ المشتعلةُ النافذة فى غَوْر العظامِ هى التى دفعت أوربّة دفعاً إلى طلبِ المخرج من المأزِق الضَّنْك ، وهى التى أيقظْت الهِمَم يَقَظَةً لا تعرف الإغماضَ . وباليقظة المتوهِّجة دارَ الصِّراع فى جَنَباتِ أوربة بين جميع القُوَى التى كانت تحكُمُ جماهير الهَمَج الهامِج . ومن قلب هذا الصراع خرجت طَبقة إصلاح خَلَل المسيحية الشمالية مرةً أخرى ، فخرج الراهب الألمانىُّ « مَرْتِنْ لُوثَرْ » (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م / ٨٩٤ - ٩٥٣ هـ) ، والراهبُ الفرنسىّ « جون كِلِفنْ » ، (١٥٠٩ - ١٥٦٤ م / ٩١٤ - ٩٧١ هـ) ، وخرج السياسى الإيطالىُّ الفاجر « نيكولو مَكْيافِلّى » ، (١٤٦٩ - ١٥٢٧ / ٨٧٠ - ٩٣٤ هـ) ، وخرج أيضاً صراعُ اللغات واللهجات المتباينة ، طلباً لاستقرارِ لغةٍ موحَّدة لكُلِّ إقليمٍ ، وإخراجِ سيطرة « اللاتينية » العتيقة من طريق الرهبان والعلماء والكتاب ، لكى يُمْكن نشر التعليم على أوسع نِطاق بين جماهير الهَمَج الهامج من رَعايَا الكنيسة .... وتاريخٌ طويلٌ حافلٌ متنوِّعٌ ، وجهادٌ مريرٌ قاسٍ ، فى سبيل اليَقَظة العامّة والتنبُّه والتجمُّع لإعدادِ أمّةٍ مسيحية قادرةٍ على دَفْع رُعْب « الترك » ، (أى المسلمين) ، عن أرض أوربة « المقدسة » . وبدأت اليَقَظَةُ ذاتُ الهَدَف الواحِد الذى لا يغفُل عنه راهبٌ ولا عالم ، ولَا صغير ولا كبير ، ولا عامىٌّ ولا مُتَعلِّم ، ولا رجُل ولا امرأة . ومَعَ اليَقَظَةِ تفجَّرَ أعظَمُ سَيْلٍ يكتسحُ أُمِّيَّة الهَمَج الهامِج ويخرجُه من أغلالِ الجهالة ، ويجعلُ هذا الهدف الواحدَ مستقرًّا فى جوفِ العظام ، مع البغضاء والحِقْد ، ومع التصميمِ والإرادة ، ومع اليقظة والتنبُّه ، وطالت الليالى والأيام ، فما هو إلّا قليلٌ حتى كانَ ما كان .....

وبغتَةً ، كما كان اقتحامُ المسلمين قلب أوربةً بغتةً ، تَهاوتِ الحواجز التى كانت تمنَعُ حركة اليقظة والتنبُّه فى أعقاب الحروب الصليبية لأن تُؤْتى ثِمارها ، (كما أشرت إليه آنفاً فى الفقرة الرابعة عشرة) ، وخرجت أوربّة من أصفادِ « القرون الوسطى » ، ودخلَتْ

بعد جهادٍ طويل مريرٍ فى « القرون الحديثة » كما يسمُّونَها . ومع تقوُّض هذه الحواجز ، ظَهَرت براعيمُ الثِّمار الشهية ، وبظهورها غضّةً ناضرةً ، زادت الحماسةُ ، وتعالت الهِمَمُ ، ومُهِّدَ الطريقُ الوَعْر ، ودَبَّت النَّشْوةُ فى جماهيرِ المجاهِدين ، وتحدَّدت الأهدافُ والوسائلُ ، وتبيّن الطريقُ اللاحِب . ومن يومئذٍ بدأ الميزانُ يَشُول ، فارتفعتْ إحدى الكِفَّتَيْن شيئًا مَا ، وانخفضتِ الأخرى شيئاً مَا . ارتفعت كِفَّةُ أورُبَّة بهذه اليقظةِ الهائلة الشاملة التى أحدثتها الهزائم القديمة والحديثة ، وانخفضت كِفَّةُ المسلمين بهذه الغفلةِ الهائلة الشاملة التى أحدثها الغرورُ بالنَّصر القديم وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية . وكذلك شال الميزان ، وكانت فرحةٌ محسوسةٌ فى جانب ، وكانت غفلةٌ لا تُحَسُّ فى جانب . تاريخٌ طويلٌ مضَى وغابَ ، وتاريخٌ طويلٌ سوف يأتى ، ثم لا يعلمُ إلّا اللهُ متى يكون غيابُه .

١٦ – والآنَ تستطيعُ أن تتبيَّن أربعَ مراحلَ واضحةً للصراع الذى دار بين المسيحية الشمالية والإسلام :

● المرحلةُ الأولى : صراعُ الغَضَب لهزيمة المسيحية فى أرض الشام ودخولِ أهلها فى الإسلام ، فبالغضب أمَّلت اختراقَ دارِ الإسلامِ لتَسْترِدَّ ما ضاعَ ، تدفَعُها بَغْضاءُ حَيَّةٌ متسامحةٌ ، لم تمنَعْ ملكاً ولا أميراً ولا راهباً أن يُمدَّ المسلمين بما يطلبونَهُ من كتُب « علوم الأوائل » ، (الإغريق) ، التى كانت تحت يد المسيحية يعلوها الترابُ . وظلَّ الصراع قائماً لم يفتُر ، أكثر من أربعة قرونٍ .

● المرحلة الثانية : صراعُ الغضَبِ المتفجِّر المتدفّق من قلب أوربة ، مشحوناً ببغضاء جاهلةٍ عاتية عنيفةٍ مكتسحةٍ مُدمِّرةٍ سفَّاحةٍ للدماء ، سَفَحت أوّل مَا سفَحَت دماءَ أهل دينها من رعايا البيزنطية ، جاءت تريدُ هى الأُخْرَى ، اختراقَ دار الإسلام ،

وذلك عهد الحروب الصليبية الذى بَقى فى الشام قَرْنين ، ثم ارتدَّ خائباً إلى مواطنه فى قلب أوربّة .

• المرحلة الثالثة : صِراعُ الغَضَبِ المكظومِ الذى أورثه اندحارُ الكتائب الصليبيّة ، من تحتِه بغضاءُ متوهِّجةٌ عنيفةٌ ، ولكنَّها متردِّدَةٌ يكبحُها اليأسُ من اختراق دار الإسلام مرَّةً ثالثة بالسلاح وبالحرب ، فارتدعَتْ لكى تبدأ فى إصلاح خَلَل الحياة المسيحية ، بالاتّكاءِ الشديد الكامل على علومِ دار الإسلام ، ولكى تستعدَّ لإخراج المسيحيّة من مأزِقٍ ضنْكٍ مُوئِس ، وظلَّت على ذلك قرناً ونصف قرنٍ .

وهذه المراحلُ الثلاث ، كانت ترسُفُ فى أغلالِ « القرون الوسطى » ، أغلالِ الجَهْلِ والضَّياع . ولم تصنع هذه المراحل شيئاً ذا بالٍ .

• المرحلةُ الرابعة : صراعُ الغَضَبِ المشتعل بعد فتح القسطنطينيّة ، يزيدُه اشتعالاً وتوهُّجاً وَقودٌ من لَهيب البغضَاءِ والحِقْد الغائر فى العِظَام على « التُّرك » ، (أى المسلمين) ، وهُمْ شبحٌ مُخِيفٌ مندفعٌ فى قَلْبِ أوربّة ، يُلْقِى ظِلَّه على كُلِّ شىءٍ ، ويفزِّعُ كُلَّ كائنٍ حىّ أو غيرَ حَىّ بالليل وبالنَّهارِ . وإذا كانت المراحلُ الثلاثُ الأوَلَ لم تصنع للمسيحيّة شيئاً ذا بالٍ ، فصراع الغضب المشتعل بلهيبِ البغضاء والحقد هو وحدَهُ الذى صنَع لأوربَّة كُلَّ شىءٍ إلى يومنا هذا .

صَنع كُلَّ شىءٍ ، لأنه هو الذى أدَّى بهم إلى يَقَظةٍ شاملة قامتْ على الإصرارِ ، وعلى المجاهدة المُثَابِرَةِ على تحصيل العلم وعلى إصلاح خَلَلِ الحياة المسيحية ، ولكنْ لم يكن لها يومئذٍ من سبيلٍ ولا مَدَدٍ ، إلّا المَدَدُ الكائن فى دار الإسلام ، من العِلْم الحىّ عند علماء المسلمين ، أو العلِم المسطَّر فى كتُب أهلِ الإسلام . فلم يتردَّدُوا ، وبالجهاد الخارق ، وبالحماسة المتوقّدة ، وبالصبْر الطويل ، انفكّتْ أغلالُ « القرون الوسطى » بغتَةً عن قَلْب أوربّة ، وانبعثت نهضةُ « العصور الحديثة » مستمرَّةً إلى هذا اليوم .

من يومئذٍ ، عند أوّل بَدْءِ اليَقظة ، تحدَّدَت أهدافُ المسيحيَّة الشمالية ، وتحدَّدَت وَسائلُها . لم يَغِبْ عن أَحدٍ منهم قطُّ أنهم فى سبيل إعدادِ أنفُسهم لحرب صليبيّةٍ رابعة ، لأنّهم كانوا يومئذٍ يعيشون فى ظِلِّ شَبحٍ مُخيفٍ متوغّلٍ فى أرض أوربّة المقدسةِ ببأسٍ شديدٍ وقوّة لا تُرْدَع ، بل هو شَبَحٌ متجوِّل يطوف أنحاءَ القارة كُلِّها ، لا يَطْرِف فيها جَفنٌ حتّى يَراهُ مَاثِلاً فى عينه آناءَ الليل وأطراف النهار ، « التُّركَ التُّركَ » !! . وهذه « التُّرك » ، وهم المسلمون ، طلائعُ عالمٍ إسلامىّ زاخرٍ هائلٍ مُخيفٍ غيرِ معروفٍ لهم مَا فى جَوْفِه ، مسيطِرٍ على رقعةٍ متراحبةٍ ممتدَّةٍ من الأندلسِ إلى أطرافٍ تحيط بأرض روسيا ، إلى جوف قارَّة آسية ، إلى جوفِ قارّة إفريقية . وهُم يعلمون الآن علماً ليس بالظنِّ ، أنَّ السلاحَ ، فى هذه المرحلة الرابعة ، (وهو يومئذٍ قريبٌ من قريبٍ) ، ليس يُغْنى غَنَاءً حاسماً ، فقد وعظَتْهُم المراحِلُ الثلاثُ الأُوَل ، فنَحَّوْا أمرَهُ جانباً إلى أن يحينَ حينُه ويُصْبح قادراً وحاسماً . لمْ يبق لهُمْ ، إذنْ ، إلا سلاحُ العَقْل والعلمِ والتفوُّق واليَقَظة والفَهْم وحُسْنِ التدبير ، ثم المَكْرُ والدهاءُ واللِّين والمداهنة وتَرْك الاستثارةِ ، استثارةِ عالَمٍ ضَخْمٍ مجهولٍ ما فى جوفِه ، ولا قِبلَ لهم بتدفُّق أمواجِه الزاخرة ، والتى كان « التركُ » الظَّافرونَ طلائعَها الظاهرة لهمْ عياناً فى قلب أوربة . وهذه رعايا المسيحيَّة أمامَ أعيُنهم تتساقَطُ فى الإسلام ، مرَّةً أخرى ، طائعةً مختارةً ، وتدخُل بحماسَةٍ ويقينٍ ثابتٍ فى جحافِل الإسلام الطاغية ! يا لها من فَجيعة !! ويرتاعُ مع كُلِّ فَجْرٍ قلبُ المسيحية ، ويَغْلِى رهبانُها ورعاياهم بُغْضاً للإسلام ، وحماسةً وغضباً للمسيحية ، ويَرْسخُ الإصرارُ فى القلوبِ على دَفْع غائلةِ الإسلام ، وعلى التماس قهرِه بكُلِّ وسيلةٍ ومن كُلِّ سبيل ، وتَتَلَهَّبُ أمانىُّ الاستيلاء على كُنُوزه الباهرة التى لا تنفدُ ، والتى غالَى فى تصويرها لهم العائدونَ من الحرب الصليبيّة الثالثة ، (وهى الحملات السبع المعروفة باسم « الحروب الصليبية ») ، وصارتْ أحلاماً بهيجةً يحلُمُ بها كُلّ صغير وكبير ، وعالم وجاهِلٍ ، وراهبٍ ورعيّةٍ ، بل

صارت شهوةً عارمةً تدبُّ دبيباً فى كُلّ نَفْسٍ ، بل صارت غريزةً مستحكمةً من غرائز النَّفس الأوربية . هذا إيجازٌ شديدٌ لما كان ، وليكنْ منْك على ذُكْرٍ أبدًا لا تنساهُ .

كان كُلُّ مَدَد اليَقَظةِ ، كما قدّمتُ ، مُسْتجلَباً كُلُّه من علوم دار الإسلام ، من العِلْم الحىِّ فى علمائه ، ومن العلم المُسَطَّر فى كُتبه . والسبيلُ إلى ذلك فى الأمرين جميعاً كان معرفةَ لسانِ العربِ . ولن أقصَّ عليكَ التاريخ الطويل ، ولكن آعلم أنّ لسانَ العربِ كان له السيادة المطلقَةُ على العالم ، قروناً قبل ذلك طِوالاً ، وكانت المسيحيّة الشماليةُ مجاورةً لهذا السُّلطان المطلق ، ومصارعةً لأهله صراعاً طويلاً تارةً ، ومخالطةً لهم بالتجارة والرحلة وغيرهما زمناً طويلاً تارة أخرى ، ولذلك كان هذا اللسان العربىّ معروفاً معرفةً جيدةً لطوائف من العامّة والخاصّة فى ديار بيزنطة من ناحية ، وفى قلبِ أوربة نفسها لمجاورتها الأندلس . ولن أشغل نفسى بالحديث عن هذا التاريخ ، وقد مَضتْ من قَبْلُ إشارةٌ إليه خاطفةٌ ، فالذى يعنينى هنا ما كان عند بَدْءِ اليقظة فى أوربّة . فبالهمَّة والإخلاصِ والعَقْل أيضاً ، كانَ لابُدَّ لهُمْ من أن يزدادَ عَدَدُ الذين يعرفون اللسانَ العربىّ ويجِيدونه زيادةً وافرةً ، (١) لحاجتهم يومئذ إلى أنْ يعتمدُوا اعتماداً مباشِرًا على الاتِّصال بالعِلم الحىِّ فى علماء الإسلام ، لكى يتمكَّنُوا من حلِّ الرُّموز اللُّغَوية الكثيرة المسطَّرة فى الكتب العربية ، ولا سيَّما كتبُ الرياضة والجبر والكيمياء والطبِّ والفلكِ وسائرُ علوم الصناعة التى قلَّ من يعرفُها .

فكانَ من الأهدافِ والوسائل ، كما ذكرتُ قبلُ ، بِعْثَةُ أعدادٍ كبيرة ممَّنْ تعلَّموا العربيةَ وأجادوها إجادةً مّا ، تخرجُ لتسيح فى أرض الإسلام ، وتجمع الكُتُب شراءً أو سَرِقةً ،

(١) لم يقتصر أمرهم على تعلم اللسان العربى ، بل انطلقوا يتعلمون كُلّ لسانٍ كان فى دار الإسلام ، كالتركى والفارسىّ وغيرهما من لغاتٍ كانت للمسلمين منطوقة ، أو فى القراطيس مكتوبة .

وتُلاَقِى الخاصَّةَ من العلماءِ ، وتُخَالِطُ العامة من المثقَّفين والدَّهماء ، وتُدَوِّنُ فى العقول وفى القراطيسِ ما عَسَى أن ينفعهم فى فهم هذا العالم الذى استعصى على المسيحية واستغْلَى قرونًا طوالاً . يخرجون أفواجاً تتكاثر على الأيَّام ، ويجوبون أرجاء هذا العالم ، ويعودون لإتمام عملين عظيمين : إمدادِ علماءِ اليقظة بهذه الكنوز النفيسة من الكتب الَّتى حازُوهَا أو سطَوْا عليها ، وإطلاعِهم على ما وقفوا عليه فيها ، باذلين كُلّ جُهْدٍ ومَعُونةٍ فى ترجمتها لهم ، وفى تفسير رُموزها بقدر ما استفادُوا من العلم بها = وأيضاً إطلاعِ رُهْبان الكنيسة وملوكها على كُلِّ ما علموا من أحْوال دار الإسلام ، وما رأوه عياناً فيها ، وما لاحظوهُ استبصاراً . وكانَ أهمَّ ما لاحظوه أو خَبَروه ، هذه الغَفْلة المُطْبقة على أرضِ الإسلامِ ، والَّتى أورَثهم إياها الاستنامةُ إلى النَّصْر القديمِ على المسيحية ، والاغترار بالنصرِ الحادثِ بفتح القسطنطينية ، ثُمَّ سماحةُ أهلِ الإسلام عامَّتِهم وخاصَّتِهم مع مَنْ دينُه يخالفُ دينَهُمْ ، ولا سيَّما اليهود والنَّصارَى ، لأنهم أهلُ كتابٍ وأهلُ ذِمَّةٍ ، ولأنهم أتباعُ الرسولين الكريمين مُوسَى وعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عليهما السلام ، ولأنَّ دينَ أَحَدِهم لا يَسْلَم لهُ حتّى يؤمِن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُلِه لا يُفَرِّق بين أحدٍ من رُسُله سبحانه = وأعلموا رهبانهم وملوكهم أن هذا هو الذى يَسَّر لهم أن يجوبوا فى الأرض غير مروَّعين ، ويسَّر لهم خاصةً أنْ يُدَاهنوا العلماء والعامَّة وينافقوهُمْ ويوهموهُم بالمكر والمِحَالِ أنّهم طُلاّبُ علم لا غيرُ ، خالصةٌ قُلُوبهم لحبّ العلم والمعرفة ، والله عليمٌ بالسَّرائِر .

ومن يومئذٍ نشأت هذه الطبقةُ من الأُوربيّين الذين عُرِفوا فيما بعدُ باسم « المستشرقين » ، وهُمْ أهمُّ وأعظَمُ طبقةٍ تمخَّضَت عنْها اليَقَظَةُ الأوربيّة ، لأنَّهم جُنْدُ المسيحية الشمالية ، الذين وَهَبُوا أنفُسهم للجهادِ الأكبر ، ورضُوا لأنفُسهم أن يظلُّوا مَغْمورين فى حياةٍ بدأت تموجُ بالحركة والغِنَى والصيتِ الذائع ، وحَبَسُوا أنفُسهم بين الجُدْران المختفية وراءَ أكْداسٍ من الكُتُب ، مكتوبةٍ بلسانٍ غيرِ لسان أُمَمهم التى ينتمون

إليها ، وفى قلوبهم كُلُّ اللَّهيب المُمِضّ الذى فى قلب أوربَّة ، والذى أحدثته فجيعةُ سقوط القسطنطينية فى حوزة الإسلام ، ولكن لا همَّ لهُمْ ليلاً ولا نهارًا إلاّ حيازةُ كنوزِ علم دار الإسلام بكُلِّ سبيلٍ ، تتوهَّجُ أفئدتهم ناراً أعتَى من كُلّ ما فى قُلوب رُهبان الكنيسة ، ولكنَّهم كانوا يملكونَ من القدرة الخارقة أن يخالطوا أهلَ الإسلام فى ديارهم ، وعلى وجوههم سِيمِيَاءُ البراءة واللين والتواضع وسلامة الطويّة والبِشْر . وبفَضل هؤلاءِ المتبتِّلين المنقطعين عن زُخْرف الحياة الجديدة = وبفضلهم وحدهُم ، وبفَضْل ملاحظاتهم التى جمعوهَا من السياحة فى دار الإسلام ومن الكتب ، وبذَلوها لِلُوك المسيحية الشمالية ، نشأت طبقَةُ السَّاسة الذين يُعِدُّون ما استطاعوا من عُدَّةٍ لردّ غائلة الإسلام ثُمَّ قَهْرِهِ فى عُقر دياره ، ولتحقيق الأحلام والأشواق التى كانت تُخَامرُ قلبَ كُلِّ أوربى ، أن يظفَر بكنوزِ الدُّنيا المدفونة فى دار الإسلام وما وراء دار الإسلام ، وهم الذين عُرِفوا فيما بعدُ باسم رجال « الاستعمار » = وبفضلهم وحدهم أيضاً ، وبفضْل ملاحظاتهم التى زوَّدوا بها رُهْبانَ الكنيسة ، ثارت حميَّة الرهبانِ ، ونشأت الطائفة التى نَذَرت نَفْسها للجهادِ فى سبيل المسيحيّة ، وللدُّخول فى قلب العالم الإسلامىّ لكى تُحَوِّلَ مَنْ تستطيع تحويله عن دينه إلى الملّة المسيحية ، وأَنْ ينتهى الأمرُ إلى قَهْر الإسلام فى عُقْر داره ، = هكذا ظنُّوا يومئذٍ = وهذه الطائفة هى التى عُرِفت فيما بعدُ باسمِ رجال « التبشير » .

فهذه ثلاثةٌ متعاونةٌ متآزرةٌ متظاهرةٌ ، وجميعُهم يدٌ واحدةٌ ، لأنهم إخوةٌ أعيانٌ ، أبوهم واحدٌ ، وأُمُّهم واحدةٌ ، ودينُهم واحدٌ ، وأهدافُهُمْ واحدَةٌ ، ووَسَائلهم واحدةٌ . ليس من هَمِّى هنا « التبشير » ، فقد فرغتُ من بعض شأنِه فى كتابى « أباطيلٌ وأسمارٌ » ، وليس من همّى هنا « الاستعمارُ » ، لأنّا ذُقْنا طرفاً من أفاعيله تجربةً ومعاشرةً ، وإن كان من خِذْلان الله لنا أنّا لم نفهمه فهماً نافذاً شاملاً على الوجه الصحيح ، ولكن هَمّى هنا مصروفٌ إلى « **الاستشراق** » لعلاقته الحميمة بفساد حياتنا الأدبية والاجتماعية = ولأن

حاجَة « التبشير » و « الاستعمار » إليه ، حاجةٌ كانت ملحّةٌ ، وهى إلى اليوم حاجةٌ دائمةٌ ، لا يستغنيان عنهُ ولا عن نصائحه وإرشاداته وملاحظاتِه طَرْفَةَ عينٍ . ومرةً أخرى ، لا تنسَ ما حييتَ أنّ هذه الثلاثة إخوةٌ أعيانٌ لأبٍ واحدٍ وأمّ واحدة ، لا تُفرِّقْ قطُّ بين أحدٍ منهم .

° ° °

١٧ — من العسيرِ ، إن لم يكن من المُحَالِ الممتنع ، أن أقصَّ عليكَ فى كتابٍ كبيرٍ ، قصَّةَ شعوبٍ مختلفة كثيرةِ العدد ، تطاولت عليها أيّامٌ وتتابعتْ سنون ، منذ ذَرَّتْ عليهم شمْسُ اليقظة ، ثم انبسطت عليهم أشعَّتها ، حتّى تحرَّكت أوصالُ كُلِّ حيٍّ من جماهيرها الغفيرة ، هذا محالٌ . أفتظنُّ ، إذنْ ، أنى قادرٌ على مثل ذلك فى ورقاتٍ قلائلَ ؟ كلاَّ ، فما هو إلا هذا الوصفُ السريعُ الخاطف .

تهاوَتْ فى أوربّة سُدود الجَهْل ، وانبثقت اليقظة ، وفُتِحت بعض مغاليقِ خزائن العلم ، وانقشعت ظُلمة « القرون الوسطى » ، ولاحت تَباشيرُ فجرٍ جديدٍ ، واصطفَّ الهَمَجُ الهامجُ كتائبَ تزحفُ فى أيديها مصابيح ينبعث منها بصيصٌ يُضِىءُ ليكشف غَيَاهِبَ الظُّلُمات ، واستنارت الطُّرُق ، وازدحَمَ على سُلُوكها كل مُطِيقٍ للزَّحْفِ . وبالصبْر وبالجُهْد وبالجرأة وبالعزيمة وبنَبْذِ التوانِى ، صارت أوربّة قوةً تُمدُّها فُتُوح العلم الجديد بما يزيدُها بأسًا وصرامةً .... ولا أقولُ شال الميزانُ ، بل أقولُ بطَل عملُ الميزان ، وصارَ فى الأرض عالَمَانِ عالَمٌ فى دار الإسلام مُفَتَّحةٌ عيونُهُم نيامٌ ، يُتَاخم من أوربّةَ عالماً أيقاظاً عيونُهم لا تنامُ ، وقُضِىَ الأمر الذى فيه تستفتيان ! وبدأت « المرحلة الرابعة » فى الصراع بين المسيحية المحصورة فى الشمالِ ، وبين دارِ الإسلام التى تحجُبُ عنهم من ورائها عالمًا مُبْهماً مترامىَ الأطرافِ ، (انظر أول الفقرة السالفة : ١٦) .

وكان ما كانَ ... فمع اليقظة ازدادت « الأهداف » وُضوحاً وجَلاءً ، وازدادت « الوسائلُ » دقّةً وتحديداً وشمولاً ، بعد أن وَعَظت أوربّةَ المراحلُ الثلاثُ الأُوَل التى لم تصنع للمسيحية المحصورة فى الشمالِ شيئاً ذا بالٍ . « الأهدافُ » معروفةٌ لك الآن ، أكبرُها شأناً هو اختراقُ دار الإسلام ، ثم تمزيقُها من قلبِها ، ثُمَّ الظَّفر بالكنوز الغالية التى كانت ، ولم تَزَلْ ، تراودُ كُلَّ قلبٍ ينبضُ فى أوربة بأحلامٍ شَرِهةٍ مسعورةٍ إلى الغنى والثروةِ والمتاعِ ، غَرَستْ بذورَها فى أعماق النفوس أحاديثُ العائدين من حملات الحروب الصليبية القديمة . أمّا « الوسائل » ، فقد وُضِعتْ لها قواعدُ راسخةٌ تُجنِّبهم أخطاءَ المراحلِ الثلاثِ السابقة التى مُنِيَت بالإخفاق . كان على رأسِ هذه القواعد : تنحيَةُ السلاحِ جانباً ، بعد أن ثبت لهم إخفاقُه فى اختراق دار الإسلام ، لأنّه يستثير ما لا يعلمونَ مَغَبَّته من سوءِ العواقب ، وكفى بالتجارب الثلاثِ الغابرة وَاعظاً . فمن يومئذٍ صارتِ القاعدةُ الراسخةُ فى سياسة أُوربّة هى اجتنابَ استثَارةِ هذا العالم الضَّخْم المُبْهَم الذى كان « التركُ » هم طلائعَهُ المظفَّرةَ الناشبةَ أظافيرُها فى صميم المسيحية الشمالية فى قلب أوربة = ثمّ العملَ الدائبَ البصيرَ الصامتَ الذى يُتيح لهم يوماً مّا تَقْليمَ هذه الأظافِرِ وخَلْعَها من جُذُورها = ثم استنفَادَ قُوَّته بالمناوشةِ والمُطاولة والمثابرةِ ، بالدهاءِ والمَكْرِ والسياسة والصَبْر المتمادِى ، حتَّى يأتىَ عليه يومٌ لا يَمْلكُ فيه إلَّا أن يستكينَ ويستسلمَ ، وليكُنْ كُلُّ ذلك من وراءِ الغَفْلة ، وبالدهاء والرِّفْقِ تارةً ، وبالتنمُّر والتكشير عن الأنيابِ تارة أخرى ... وكذلك كان ما كانَ ، وما هو كائنٌ إلى هذه الساعة ، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ .

● وفَضَّت المسيحية الشماليةِ قيودَ الحصار عن نفسها ، وخرجتْ جحافِلُها مكتسحةً تجوبُ البحرَ والبرّ . انطلقت الأساطيل من شواطىء أوربة مُزوّدةً بالعُدَّة والعَتَاد والرجال الأشدّاء والمغامرين ، والعلماءِ والرهبان ، وهدفُها أن تطوّق دار الإسلام

محيطةٌ بها من شواطىء المغربِ إلى شواطىء الهند ، تتحسَّس مواطنَ الضعف فى أقاليمها المتطرّفة ، فانقضُّوا على الضعيف والعاجزِ والغافل ، وخادعوا ونافقوا ، وآستغفلُوا وأرهبُوا ، واستنزفُوا ونهبُوا ، وازدادوا شَهوةً وشَراهَةً وجُوعاً إلى الكنوز المخبوءةِ فى قلب دار الإسلامِ ، واستضعفوا وسيطروا ، ولهيبٌ فى القلوب لا تطفأُ نارُه . وفَجْأة ، وبمعونة البحّارين المسلمين العرب ، عَثَر كولمبس (١٤٥١ - ١٥٠٦ م / ٨٥٥ - ٩١٢ هـ) على أرض الهنود الحُمْر (أمريكا) . وما هو إلاّ قليلٌ حتى تدفَّق السيل الجارف من أوربة ، يجذبُه بريق الذَّهب والغنَى ، وملأ المغامرون القُساةُ الغِلاظُ الأرضَ البِكْرَ ، وزحفوا فيها واستباحوها ، وسَفَحُوا دماءَ الملايين سفحاً مُبيراً ، غَدْراً وخِسَّةً ، لا يردَعُهم رَادعٌ عن استئصال شأفتهم بقسوةٍ وعُنْفٍ ، وشَفَى كُلُّ أوربىّ غليلاً كانَ فى قلبه مُعَدًّا لدار الإسلام ، واتَّجهت أساطيلهم إلى إفريقية تختطف آلافاً مؤلَّفةً من الآمنين السُّود مسلمين وغير مسلمين ، رجالاً ونساءً وصغاراً ، يحملونهم فى السفن إلى هذه الأرض الجديدة البعيدة ، أرضِ الهنود الحُمْر ، وتهلكُ فى هذه الرحلات آلافٌ كثيرة منهم تحت السِّياط ، وتبقى آلافٌ قليلةٌ تُلْقَى على البَرِّ لتكون تحتَ أيديهم بَهائمَ مُسخَّرةً بالذُّل لعمارة الأرض . وظهر الفسادُ فى البرّ والبحر ، وبلغت أوربة مبلغاً يزيدُها فجوراً وشراهةً وسفكاً للدماء ، وغطرسةً فوق ذلك تزدادُ على الأيام تعالياً فى نَشْوة عارمةٍ ، نشْوةُ السكرانِ الثَّمِلِ إلى جانبها إفاقَةٌ من سُكْرٍ ! وصارت أوربّة عالماً مخيفاً مرهوبَ الجانب ، وتزدادُ كُلَّ يومٍ ثقافةً وعلماً ، وفهماً ويقظةً ، وتجربةً وخبرةً فى كُلِّ خيرٍ وشرّ ، وتَزدادُ أيضاً نِفاقاً وخُبثاً ومكراً وغَدْراً بالآمنين حيثُ كانوا فى أرجاء عالمٍ كانت تحجُبُه عنهم دارُ الإسلام قُروناً طويلة . أما دار الإسلام ، فعَلى الأيّام ، وَهَنت قُوَّةُ طليعتِه المسلمةِ الناشبةِ فى قلب أوربّة ، وصارتْ داراً محصورةً فى الجنوبِ ، بعدَ أنْ كانت حاصِرَةً للمسيحية فى الشمال . وكذلك بدأت حضارةٌ عتيقةٌ تتضعضَعُ قُواها وتَرِثُّ حبالُها ، وقامت فى الأرض

حضارةٌ جديدة غُذِيت بالدَّمِ المسفوح ، ومُزِجَت ثقَافتها بالمكر والغَدْر والدهاء والخُبث ، تؤُزُّها نارُ أحقادٍ مُكتَّمةٍ ، ثم صارتْ لهيباً يُؤَجُّ أجَّا = حضارةٌ سوف تطبِّق وجه الأرض ، وهى بذلكَ كُلّه حضارةٌ إنسانيّةٌ عالميةٌ ، أليس كذلك ؟ ويزيدُها إنسانيةً وعالميةً أنها جاءت مبشِّرةً بدينٍ جديدٍ ، عقيدتُه مبنيّةٌ على البغضاءِ والحِقْدِ والجَشع والغَدْرِ وسَفْكِ الدماءِ .

● ومَعَ هذه الأساطيل الفاجرة ، خرجتْ من مَكامِنها أعدادٌ وافرةٌ من رجالٍ يجيدون اللسان العربىّ وألسنةَ دار الإسلام الأُخَر ، ومنهم رُهبان وغير رُهبانٍ ، وركبُوا البَّر والبحرَ ، وزحفُوا زَرَافاتٍ ووُحداناً فى قلبِ دار الإسلام : على ديار الخلافة فى تركية ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوفِ إفريقية وممالكها المسلمة = خرجُوا وفى القلوب حميَّة الحقد المكتَّم ، وفى النفوس العزيمة المصَمِّمة ، وفى العيون اليقظةُ ، وفى العقولِ التنبُّهُ والذكاءُ ، وعلى الوجوه البِشْرُ والطَّلاقةُ والبراءَةُ ، وفى الألسنة الحلاوةُ والخِلابَةُ والمُمَاذقة ، ولَبِسُوا لجمهرة المسلمين كُلَّ زِيٍّ : زِىَّ التاجر ، وزىَّ السائح ، وزىَّ الصَّديق الناصِح ، وزِىَّ العابد المُسْلم المتبتِّل = وتوغَّلُوا يستخرجون كُلّ مخبوءٍ كان عنهم من أحوالِ دار الإسلام ، أحوالِ عامَّتِه وخاصَّتِه ، وعلمائه وجُهَّاله . وحُلَمائه وسُفَهائه ، وملوكه وسُوقته ، وجيوشِهِ ورعيَّته ، وعِبَادته ولهوِهِ ، وقُوَّته وضعفه ، وذكائه وغَفْلته ، حتَّى تدسَّسُوا إلى أخبار النساءِ فى خدُورهنّ ، فلم يتركوا شيئاً إلاَّ خَبَرُوه وعَجَمُوه ، وفتَّشوهُ وسَبَرُوه ، وذاقُوه واستشفُّوه . ومن هؤلاءِ ، ومن خِبْرتهم وتجربتهم ، خرجت أهمُّ طبقةٍ تمخَّضَت عنها اليقظةُ الأوربية « طبقة المستشرقين » الكبار ، وعلى علمهم وخبرتهم وتجاربهم ، رَسَتْ دعائمُ « الاستعمار » ، ورسَخَتْ قواعد « التبشير » كما وصفتُ لك أمرَهم فى آخر الفقرة السادسة عشرة = وَٱلْتَقت حَلْقَتَا البِطَان ، هذه المرَّة ، على دار الإسلام ، واسترخَتْ حَلْقتَاهُ عن المسيحية الشمالية ، (انظر أول الفقرة : ١٤ ، ص : ٣٨) .

• وما هو إلاّ قليلٌ حتى كان تحت يد « الاستشراق » آلافٌ مؤلَّفةٌ من مخطوطاتٍ من كُتُبِ دار الإسلام نفيسةٍ منتقاةٍ ، مُشْتراةً أو مسروقةً ، موزَّعة مفرَّقة فى جميع أرْجاء أوربّة وأدْيِرتها ومَكْتباتها وجَامعاتها ، وأكبَّ عليها « المستشرقون » المجاهدون الصابرون ، الذين هجروُا دُنْيا النَّاسِ المائجة بكُلِّ زُخْرُفٍ ومتاعٍ ، وعكفُوا بين جُدْرانٍ صامتةٍ مُغْلَقةٍ ، وأكداسٍ من الأوراقِ المكتوبة بلسان غير لسانِ أقوامِهم ، يَقْضُون سحابَة النَّهارِ وزُلَفاً من الليل يَفْرِزونها ورقة ورقةً ، وسطراً سطراً ، وكلمةً كلمةً ، بصبرٍ لا ينفَدُ وعزيمةٍ لا تكِلُّ ، ويَكابدون كُلَّ مشقةٍ فى الفَهْم والوقوف على أسرارِ المعانى المخبوءة تحت رموز الألفاظ العربيّة أو غير العربيّة فى كل عِلْم ومَعْرفة وفنّ ، دِيناً كانَ أو أدباً أو لغةً أو شعراً أو تاريخاً أو علمَ بُلْدان ، (جغرافية) ، أو طِبّاً أو رياضةً أو فلكاً أو صناعاتٍ وآلاتٍ ، كُلَّ ذلك يدرسونه بدقّةٍ ونظامٍ وترتيبٍ ، وبتعاوُنٍ كامِلٍ بينهم مهما تباعدت بلادهم وأوطانهم . ثم لا تنقطِعُ لهم رحلةٌ فى قلب دار الإسلام وفى أطرافِها ، يَجُسُّون ويُجرِّبون ويختبرون ، ويتعلَّمون ويسألون ، ويجمعون كُلَّ خِبْرة وكُلَّ تجربةٍ وكُلَّ معرفةٍ ، وكُلّ صغير وكبير يُعينُهم على الدرْسِ والاستفادةِ ، وعلى فَهْم أسرارِ هذا العالَم الغَرِيب الذى كان بالأمسِ ممتنِعاً على الاختراق قروناً طِوالاً .

ولما كانت هذه المخطوطات التى يعكُفُ نَفَرٌ منهم على دراستها متفرقةً فى البلاد ، وحَبِيسةً تحت يد عَدَدٍ قليل جدًّا ، قد يكون رجلاً واحدًا فى قرية أو ديرٍ ، عَمَدوا إلى نشر بَعْضِها مطبوعةً ، لتكون تحت يد كُلِّ دارس مستشرقٍ فى أىِّ بلدٍ كانَ من بلاد أوربَّة ، [١] ولكى تكون الفائدةُ أكثر تماماً ، والجُهْدُ أكثَرَ جدْوى ، أنشأوا أيضاً مجلاَّت

---

(١) لا تصدِّق من يقول لك إن « الاستشراق » قد خدمَ اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها ، لأنه نَشَر هذه الكتب التى اختارَها مطبوعة ، فهذا وهمٌ باطلٌ . كانوا لا يطبعون قطُّ من أى كتاب نشروه أكثر من خمسمئة =

بكُلِّ لسان من ألسنتهم ، ينشُر فيها كُلّ مستشرقٍ نتائجَ بحثِه ودِراستِه ، ويعرضُ كُلَّ تَجارِبه وخبرته وملاحظاته ، لتكون عَوْناً لكُلّ دارسٍ مستشرقٍ وغير مستشرق ، وهى مجلاَّت الدراسات الإسلامية أو الشرقية . بل سَمَتْ هِمَّتُهم فبدأوا صُنْعَ « جماهر الإسلامِ » التى يسمونها « دوائر المعارف الإسلامية » ، [١] وكذلك صار « الاستشراقُ » فى أوربة كُلِّها هيئةً واحدةً ، لها هدفٌ واحدٌ ، ونِظامٌ واحدٌ ، وهِمَّةٌ واحدةٌ ، وفَهْمٌ واحدٌ ، وأسلوبٌ واحدٌ ، ونَظَرٌ مُشْتَرَكٌ واحدٌ ، إلى حضارةِ دار الإسلام قديمها وحديثها .

• كان هذا « الاستشراق » فى نَأْنَأتِه الأولى ، بعد سبعة قرون من الصِّدام الذى انتَهى بإخفاق الحروب الصليبية قائماً على أفرادٍ قلائل : إمّا طالبِ معرفةٍ وعلم يتعلَّم من العربِ المسلمين ليَقْشَع الجهل عنْ نَفْسه وقومه ، كما فعل « بِيكُنْ » وطبقتُه = وإمّا راهبٍ ذى حَمِيَّةٍ ودفاعٍ عن دينه ، حينَ أحسَّ بالخَلَل الواقع فى الحياة المسيحية ، فكُلُّ همِّه أن يُصْلح خَلَل المسيحية ويمكِّنها من حُجَّةٍ مُقْنِعةٍ تحولُ بين الناسِ وبين الانبهار بالإسلام وثقافته وحضارته والتساقُط فيه ، مُتَّكِئًا على ما عند دار الإسلام من العلم ، كما فعل « تُوما الإِكْوِينىّ » ، (انظر ما سلف فقرة : ١٤ ص : ٣٩ ، ٤٠)

أمَّا فى أوّل نأنأتِه الثانية ، عند فجر اليقظَةِ الأوربيّة ، فكانت بِعْثاته فى دار الإسلام تعود من جَوْلتها إلى أوربّة لأداءِ عملين عظيمين هما : إمداد علماء اليقظةِ بمزيدٍ

= نسخةٍ ، = ولم تزل هذه سُنّتهم إلى يومنا هذا = توزّعُ على مراكز الاستشراق فى أوربة وأمريكة ، وما فَضَل بعد ذلك وهو قليلٌ جدًّا ، كانت تسقُط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخةُ والنسختان والعشرة على الأكثر ، لم يسعَوْا قَطُّ إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين ، كما يسوِّقون بَضائعهم وتجاراتِهم وسائر مَا ينتجونَ ، بين هذه الملايين طلباً لربْح المالِ . هدفهم كان مَا قلتُ لك لا غيرُ .

(١) « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » كما هو شائع ، اخترتُ أن أسمِّيها « جَمْهَرَة » ، كما سمّى أسلافنا كتبهم « جمهرة اللغة » و « جمهرة الأنساب » و « جمهرة الأمثال » ، وبينتُ ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ٢٧٣ ، ٢٧٤ . وجمع « جَمْهَرَة » « جماهر » .

ممّا وقفوا عليه من كُنُوز العلم فى دار الإسلام ، يفسِّرون لهم رموزَها ، ويُترجمونَ لهم ما استطاعوا فهمَه منها ، ثم إطلاعِ رُهبان الكنيسة وملوكها على ما علموا ولاحظوا من أحوال المسلمين ، (انظر ما سلف الفقرة : ١٦ ، ص : ٤٨) .

= أمّا عند انبثاق اليَقَظة واستحكام أمرِها ، حين صارت ضوءًا شاملاً يَسْرِى فى جماهيرَ غفيرةٍ مُتنوِّعة الأهداف والأهواء والأغراض ، فقد هبَّت أفواجٌ منها زاحفةً زحفاً متتابعًا على دار الإسلام وغير دار الإسلام ، مُصْعِدةً فى طريقها إلى التفوُّق والغَلَبة والانتشار ، بلا قِرْنٍ ، (أى نظيرٍ) ، يكافئُها فى اليقظة والتنبُّه والتصميم ، يَصُدُّها ويُكَفْكِفُ من غُلَوائها ، ويعوقُ من زَحْفها = وعندئذٍ أيضاً كان « الاستشراق » قد كَسَب هو أيضاً يقظةً فائقةً ، وبصيرةً نافذَةً ، وتنبُّهاً لامعاً ، وتكوّنت الطبقة الأُولى من « المستشرقين » الجادِّين النابهين ، التى سوف تَرِثُها طبقةُ أساطين « الاستشراق » ودَهَاقِينِهِ الكبار ، (« الدِّهْقانُ » وجمعه « دهاقين » : الرجل الحديد الماضى القوىُّ على التصرُّف) ، فهؤلاءِ جميعاً الذين وقع عليهم العبءُ الأكبر فى تيسير الأمرِ للزحوفِ الأوربية المتتابعة المستمرة التى اقتحمت دار الإسلام فاستعمرتها ، وغيَّرت وجه الحياةِ فيها تغييراً بعيدَ الغَوْرِ ، لم يزلْ سارياً إلى يومنا هذا كما سترى .

* * *

١٨ - ينبغى أن يكون بيِّناً لكَ أنّ أوربة عند استواءِ يَقَظتها ، أدركت إدراكاً واضحاً أن الذى بلغتْهُ قد ضمنَ لها التفوُّق الحاسمَ ، وأنّها مُقْبلةٌ على زَحْفٍ شاملٍ يخترق قلبَ دار الإسلامِ ، لا بقعقعة السلاح ، بل بوسائل أُخَرَ أمضى من وقع السلاح ، أدرك ذلك ساستُها ورهبانُها وعلماؤها وعامَّةُ جماهيرها المثقَّفة . وهذا الزحفُ الصامتُ المصمِّمُ الخَفِىُّ الوَطْءِ ، سوف يضُمُّ ألوفاً مُؤَلَّفةً من أشتات الناس ، ما بين تاجر وصانِع

ومُغَامرٍ ومدرّسٍ وسائحٍ ومبشّرٍ وجنديّ وسياسيٍّ وراهبٍ وطالب معرفةٍ وأفّاقٍ وصَفّاقٍ ومتكسّبٍ . والنِيَّة أن تتكوّن من هؤلاءِ الأشتاتِ جالياتٌ كبيرةٌ تُقِيم فى دار الإسلامِ ، تعاشر المسلمين فتطولُ عشرتهُم أو تَقْصُر ، ولكل امرىءٍ منهم اتجاهٌ أو هَوًى أو أسلوبٌ أو فهمٌ . فأمْرٌ مخوفٌ أن يخالطُوا عالَماً له دينٌ وحضارةٌ باقيةُ الآثار ، كان لهُ الغلبةُ والتفوُّق والسيادةُ من قبلُ قروناً طِوالاً ، كما جرَّبوا وعلمُوا = أمرٌ مخوفٌ أن يخالطوه دون أن يكون لهذا العالم عند أكثرهم صورةٌ مستقرَّةٌ فى أنفسهم ، تحميهم من التفرُّق والضياعِ فيه ، وتُحَصّنُهم أيضاً من الانبهار بالإسلام وحضارته كما انبهَرَ أسلافٌ لهم غَبَروا ، فصارَ حَتْماً أن يكونَ فى مُتنَاوَل هؤلاءِ صورةٌ للإسلام وحضارته ، مكتوبةٌ بدقّة ومهارةٍ ، ومُقْنِعةٌ أيضاً لكلِّ عقلٍ مُتطلِّع ، يُصَوِّرها لهم خبيرٌ ثقةٌ مأمونٌ عندهم .

و « المستشرقون » المتبتِّلون ، بلا شكٍّ عندهم ، هم أهلُ الخبرةِ بكُلِّ ما فى دار الإسلامِ قديماً ، وما هو كائنٌ فيها حديثاً = من دَقيق العلوم عند خاصّة المسلمين ، إلى خفِيِّ أحوال المسلمين من عاداتِهم ومَعَايشهم وطرائق أفكارهم وخصائص حياتهم ، إلى علمٍ وثيقٍ بشأن دُوَلهم وأقاليمهم وبُلْدانهم التى تُغَطّى أكبر رُقْعةٍ من الأرضِ . وهُمْ قد جمعوا كُلّ ذلك وعكفُوا عليه وتأمّلُوه ودرسوه ونظَّمُوه ورتّبوه بعنايةٍ فائقةٍ ، وبهمَّةٍ وجَلَدٍ وتنبُّهٍ ونَفَاذ بَصَرٍ . فكُلُّ دارسٍ منهم مأمُونٌ عند كُلِّ أوربىّ ، من أوّل طبقة الرُّهبان والسَّاسة إلى آخر رجلٍ من جماهير الناس = مأمونٌ على ما يقولُه ، مصدَّقٌ فيما يقولُه ، فى أُمُورٍ لا سبيلَ لأَحدٍ منهم إلى مَعْرفتها ، لأنها تتعلَّقُ بأَقوامٍ لِسانُهم غير لِسَانِهم ، ولا يقومُ بِها إلاّ دارسٌ صابرٌ ذو معرفةٍ بهذا اللِّسان الغريبِ ، مُتَّصِفٌ بصفتين لابُدَّ منهما حتّى يكون مأمونًا مُصَدَّقًا :

الصِّفة الأولى : أنّ فى قلبه كُلَّ الحميَّة التى أثارها الصراعُ بين المسيحية المحصورة فى الشمال ، وبين دار الإسلام الممتنعة على الاختراق على مدى عشرة قرونٍ على الأقلّ =

وأنّ فى صميم قلبه كُلَّ ما تُكِنُّه المسيحيَّة الشمالية من البغضاء النافذة فى غَوْرِ العِظام ، والتى أورثتها الحروب المتطاولة ، كما وصفتها لك آنفاً فى الفقرة الخامسةَ عشرة والسادسة عشرة ، (ص : ٤٢ — ٤٦) .

الصِّفة الثانية : أنَّ فى صميم قلبه كُلَّ ما تحملُه قلوبُ خاصَّةِ الأوربيِّين وعامَّتهم ، ومُلوكهم وسُوقَتِهم ، من الأحلامِ البهيجة والأشواق الملتهبة إلى حِيازة كُلّ ما فى دار الإسلام من كنوز العلم والثروةِ والرفاهية والحضارة . أحلامٌ وأشواق أورثَهم إياها الاحتكاكُ المستمرُّ قروناً بهذه الحضارة الزاهية الغنيَّة التى كانت يومئذٍ فى دار الإسلام .

وبهاتين الصِّفَتين يكون مؤهَّلا لحمل هُموم المسيحية الشمالية التى ظلَّت قروناً محصورة فى الشمال ، ودليلُ إخلاصه المُطْلَق لهذه الهموم ، هو تبتُّله الذى يقطَعُ ما بينه وبين زَهْرة الحياة الدُّنيا وزينتها من حوله ، حبيساً بين جُدْرانٍ تَضُمّ رُكاماً من أوراقٍ قديمةٍ مكتوبةٍ بلسانٍ غيرِ لسانِ قومه ، قد رَضِى لنفسه أن يبقَى اسمُه فى دنيا الناسِ مغموراً غير مشهورٍ (انظر ما سلف ص : ٤٨) .

وبديهىٌّ أن يكون « المستشرقون » ، كما عرفتَ صفتهم ، هُمْ أسبقَ النّاس إلى معرفة هذه الحاجةِ الملّحةِ التى تضمنُ للزَّحْف الأكبر على دار الإسلام أن يسيرَ على هُدًى لا يختَلُّ ولا يضِلُّ ، ويَعصِمُ أكبر قَدْرٍ ممكِنٍ من أشتات الزاحفين ، حين يدخُلُ دار الإسلام ليطُولَ مُقَامُهم بها ، ويجرى بينهم وبين مَنْ يخالطونهم ما يجرى بين الناس من التفاوُض وتجاذُب الأحاديث = يَعْصِمُه أن يَنْبهر بما يَرَى أو يسمَع ، أو أن تضعفَ حَمِيَّته ، أو تَلينَ قَنَاتُه ، أو يتردَّدَ ويتلجلجَ . لابُدَّ إذنْ من أساسٍ يرتكزُ عليه تفكيرُه ، ومن صُورةٍ سابقة شاملةٍ ثابتةٍ يثقُ بها ويطمئنُّ إليها ، ويثقُ أيضاً بصدقِها وأمانتها ، حتّى يتمكَّن من أن يرفُض أكثر ما يرىَ وما يسمع ، إذا هو خالفَ ما يعتقدُ أنَّه الصورة الوثيقة

المأمونة التّى سوّغَهُ إيَّاها دارسٌ عارفٌ بأحوالِ هؤلاء الناس . واستقلَّ « المستشرقون » بحَمْل هذا العِبْءِ الجديد الثالث ، (انظر ما سلف ص : ٥٤) ، فكتبوا لجماهيرهم آلافاً من المقالات ، ومئاتٍ من الكُتُب ، تَنَاولتْ كُلَّ شيءٍ يخُصُّ أممَ دار الإسلام فى مَاضيها وحاضِرِها . كتبوا فى القَرآن ، وفى حديث رسول الله ﷺ وسيرتِه ، وفى تفسير القرآن ، وفى الفِقْه ، وفى تفاصيل شرائع الإسلام ، وفى تاريخ العرب والمسلمين ، وفى الأدب ، واللغة ، والشِّعْر ، وفى الفنون والآثار ، وفى علم البلدان ، (الجغرافية) ، وفى تراجم رجال الإسلام ، وفى الفرق الإسلامية ، وفى الفلسفة عند المسلمين ، وفى علم الكلامِ = فى كُلِّ ما ذكرتُ وما لم أذكُرْ ، كتبوا وألَّفُوا وصنَّفُوا ، لكن لهدفٍ واحدٍ لا غيرُ : هو تصويرُ الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصورة مُقْنعةٍ للقارىء الأوربىِّ ، وبأسلوبٍ يدلُّه على أنّ كاتبها قد خبرَ ودرس وعرفَ وبذلَ كُلّ جُهْد فى الاستقصاءِ ، وعلى منهجٍ علمىّ مألوفٍ لكُلّ مثقّفٍ أوربىٍّ ، وأنه وصَل إلى هذه النتيجة التى وضعها بين يديه ، بعد خبرةٍ طويلة وعَرَقٍ وجُهْدٍ وإخلاصٍ ، حتى لا يشُكَّ قارىءٌ فى صدق ما يقرؤه ، وأنّه هو اللبابُ المُصَفَّى من كُلِّ كَدَرٍ ، والمبّرأُ من كُلِّ زَيْفٍ ، وأنه الحقُّ المبينُ والصِّراطُ المستقيم .

● كان جوهرُ هذه الصُّورةِ ، المبثوثُ تحت المَبَاحثِ كلِّها ، هو أن هؤلاءِ العربَ المسلمين هم فى الأصل قومٌ بُدَاة جُهَّالٌ لا علمَ لهم كانَ ، جِيَاعٌ فى صحراءَ مجدبَةٍ ، جاءَهم رجُلٍ من أنْفُسِهم فادَّعى أنّه نبىٌّ مرسلٌ ، ولَفَّق لهم ديناً من اليهوديّة والنصرانيَّة ، فصدَّقوه بجهلهم واتَّبعوه ، ولم يلبث هؤلاء الجياعُ أن عاثوا بدينهم هذا فى الأرضِ يفتحونها بسيوفهم ، حتى كان ما كان ، ودانَ لهم من غَوغاءِ الأمم مَنْ دان ، وقامت لهم فى الأرض بعد قليلٍ ثقافةٌ وحضارةٌ جُلّها مسلوبٌ من ثقافات الأمم السالفة كالفُرْس والهند واليونان وغيرهم ، حتَّى لُغَتُهم كُلُّها مسلوبةٌ وعَالَةٌ على العِبْرية والسُّريانية والآراميّة والفارسيّة

والحَبَشيّة . ثم كانَ من تصاريف الأقدار أن يكون علماءُ هذه الأمّة العربية من غير أبناءِ العرب ، (المَوَالى) ، وأنّ هؤلاءِ هم الذين جعلُوا لهذه الحضارة الإسلامية كُلِّها معنىً . هذا هو جوهرُ الصورة التى بثّها المستشرقون فى كُلِّ كُتُبهم عن دين الإسلامِ ، وعن عُلوم أهلِ الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتِهم ، وأنّ هذه الحضارة إنّما هى إحدى حضاراتِ « القُرون الوسطى » المظلمة التى كان العالم يومئذٍ غارقاً فيها = يعنون عالمَهُم هم = يَجْرِى عليها حُكْمُ قُرونهم الوسطى ! بَثُّوا تلك الصورة فى كُلِّ كُتُبهم بمهارة وحِذْقٍ وخُبْثٍ مُعْرِقٍ ، وبأسلوبٍ يُقنِع القارىء الأوربىّ المثقّف الآن كُلَّ الإقناع ، وتنحطُّ فى نَظَره حضارةُ الإسلام وثقافته انحطاطَ « القرون الوسطى » ، ويزداد بذلك زَهْوًا بأنّ أسلافَهُ من اليونان والآريِّين كانوا هم رَكائز هذه الحضارة المزيَّفَةِ الملفَّقةِ ديناً ولُغَةً وعلماً وثقافةً وأدباً وشعراً ، ويزداد بذلك الأوربىُّ ، أيًّا كانَ ، غَطْرسةً وتعالياً وجَبرِيَّةً ، ولا يرَى فى الدُّنيا شيئاً لهُ قيمةٌ ، إلَّا وهو مستمدٌّ من أُسلافِه اليونان والآريين والهَمَج الهامج !

ومن خِلالِ الصراحَة العارية التى طرحتْ كُلَّ حجابٍ ، أو الصراحةِ المتحجِّبة بالبراءة وخلوص النيَّة وحبِّ العلم ، أو بالصراحة الحييّة التى أمالَها الخَفَرُ ، (شدّة الحياء) ، إلى التبرُّج بحبِّ الإنصافِ ، استطاع « الاستشراق » أن يجعل هذه الصورة حيّةً متحركة فى جميع كتبه ومقالاته ودراساته ومباحثه على اختلافها ، حتى الدراسات التى تستعصِى على قَبُول هذه الصورة واضحةً لم تخْلُ من غَمْزٍ خَبِىءٍ ولَمْزٍ خفىّ يستدعى حُضُور هذه الصورةِ بطريقةٍ مّا . وكذلك نجح « الاستشراق » فى تحقيق هدفه كلَّ النجاح ، واستطاعَ أنْ يُدْرِج الإسلامَ وشرائعه وثقافته وحضارته فى مُسْتَنقع « القرون الوسطى » الذى طَمَرته « النهضةُ الحديثة » ووَطِئَهُ « عصر الإحياء والتنوير » بأقدامِه وَطْأَةَ المُتَثاقل . وبذلك عَصَم العقلَ الأوربىَّ المثقّف من أن يزِلّ زلّةً ، فيرى فى دين الإسلام أو فى ثقافته وحضارته ، ما يوجبُ انبهارَه كما انبهر أسلافٌ له من قَبْلُ تساقطوا فى

الإسلام وثقافته وحضارته طواعيةً ، ثم صاروا ، مع الأسف ، من بُنَاة مجده على مدى اثنى عشر قرناً على الأقلّ . واعلم أنى على عَمْدٍ هُنا أتناسى عمل « الاستشراقِ » فى السَّطْو على الكنوز المخبوءَة كانتْ فى علم دار الإسلام ، ثم ما بذلوه فى نقله سِرًّا إلى علمائهم فى زمنِ النَّأْنأة وما بعدها ، لِيَبْنُوا عليه حضارتهم العظيمة القائمة اليوم بيننا ، وكيف أغلقُوا الأبواب على ذِكْر ما سَطَوْا عليه بالضَّبَّة والمفتاح ، حتى لا يعلمَ خَبيئته أحدٌ ، حتى ولو كان أوربيًّا قُحًّا = وأتناسَى على عَمْدٍ منّى أيضاً حديث السفاهةِ والبذاءةِ التى جرت على ألسنة دَهَاقينهم من المطاعن فى القرآن العظيم ، وفى رسول الله ﷺ وصَحابته ، إمدَادًا لهيئات « التبشير » ، للقيام بعملها النبيل فى دار الإسلام وفى توابعه التى كانت محجوبة عنهم ، ثم انفسح لها الطريق مع الزحف الأكبر .

• وبيِّنٌ لك الآنَ بلا خفاءٍ أنّ كتب « الاستشراق » ومقالاتِه ودراساتِه كُلَّها ، مكتوبة أصلاً للمثقَّف الأوربىّ وحدَه لا لغيرِه = وأنَّها كُتبتْ لهُ لهدفٍ مُعيَّنٍ ، فى زَمانٍ معيّنٍ ، وبأسلوبٍ معيَّنٍ ، لا يرادُ به الوصول إلى الحقيقة المجرَّدة ، بل الوصولُ الموَفَّقُ إلى حمايةِ عَقْل هذا الأوربىّ المثقَّف من أن يتحرَّكَ فى جهةٍ مخالفةٍ للجهة التى يستقبلها زحفُ المسيحية الشمالية على دار الإسلام فى الجنوب = وأن تكون لهُ نظرةٌ ثابتةٌ هو مقتنعٌ كلَّ الاقتناع بصحَّتها ، ينظر بها إلى صُورةٍ واضحةٍ المعالم لهذا العالِم العربىّ الإسلامى وثقافته وحضارته وأهله = وأن يكون قادراً أيضاً على خَوْضٍ ما يخوضُ فيه من الحديث مع من سوف يلاقيهم أو يعاشرهُم من المسلمين ، وفى عقله وفى قلبه وفى لسانه وفى يقينه وعلى مدِّ يده ، معلوماتٌ وافرةٌ يثقُ بها ويطمئن إليها ويُجَادلُ عليها ، دون أن تضعفَ له حَمِيَّةٌ ، أو تلينَ لهُ قَناةٌ ، أو يتردَّد فى المنافَحة عنها أو يتلَجْلج ، أيًّا كان الموضوع الذى تدفعه المُفَاوضةُ إلى الخوضِ فيه .

و « الاستشراق » لا يُذَمُّ لأنه فعَل كُلَّ ذلك ، لأنّه بلا شكٍّ قد أدَّى ما عليه لبنى جِلْدته أحسنَ أَداءٍ وأتمَّه ، ونَصر أَهل دينه وأخلصَ لهم كُلّ الإخلاصِ ، وكافحَ فى سبيلِ هَدَفه بكُلّ سلاحٍ أجادَ صَقْله وتقويمُهُ = أمَّا الذى هو حقيقٌ بالذمِّ والمَعَابةِ ، فالعاقلُ الذى يظنُّ نفسه عاقلاً ، والبصيرُ الذى يظنُّ نفسه بصيراً ، ثم لا يكاد عقلُه يدركُ شيئاً هو أبين بياناً من البدائه المسلَّمة ، ولا يكادُ بَصَرُهُ يَرى ما هو أظهرُ ظهوراً من الشمس الساطعةِ .

فما كتبه « الاستشراق » ، من حيثُ هى كُتُبٌ أو دراساتٌ مكتوبةٌ للمثقّف الأوربىّ خاصةً ، ولهدفٍ بعينه ، حقيقةٌ باحترام كُلِّ أوربىّ مثقَّف = أو من كان بمنزلة الأوربىّ المثقَّف فى الغُرْبة عن العربيّة والإسلام = لأنها يَسَّرت له ما لم يكن ليتيسَّر البتَّةَ : أنْ يَعرف أشياءَ كثيرةً متنوِّعةً هو عن عالَمها غريبٌ كُلّ الغُرْبة ، وأن يَرَى عالَمَها فى صورةٍ واضحةٍ مصوّرةٍ بمهارةٍ ، ومصنوعةٍ بأسلُوب مُقْنِع مقبولٍ لا يرفُضُه عَقْلُه ، بل لعله يرتضيه كُلّ الرضَى . ولأنّ هذا العالَم الذى يراهُ مصوّراً عالمٌ غريبٌ عنه ، ولا سبيلَ لهُ إلى معرفة الحقيقة فيه ، لولا الجُهْد العظيم الذى بذلهُ دهاقينُ المستشرقين الكبارُ فى تصويره ، فهو غيرُ حريصٍ بعد ذلك على التحقُّقِ من صحَّة التفاصِيل التى تكونت منها الصورة ، ولا هو قادرٌ على التشكُّك فى سلامَتها من الآفات ، ولا يخطُر بباله أن يسألَ نفسه : أهى صادقةٌ أم كاذبةٌ ؟ أهى مطابقةٌ للحقيقة أم غير مطابقةٍ للحقيقة ؟

أمّا من حيثُ هى كُتُبٌ أو دراسَاتٌ علميّةٌ جديرةٌ باحترام مثقَّفٍ غير أُوربىّ ، أى من أبناءِ العربِ والمسلمين خاصةً ، أى أبناء لُغة العرب وأبناء دين الإسلام ، فهذا عندئذٍ موضعُ نَظَرٍ = لأن الأمرَ ، ولا خيارَ لى أو لك فيه ، يختلفُ اختلافاً بيِّناً حينئذ ، ويتَطَلَّب النظر فى أمرينِ : أمرِ الكاتبِ وأمرِ المكتوبِ معاً ، وهذا يردُّك لَا محالةَ إلى ما كتبتُه لك آنفًا فى شأن « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، (ما سلف ص : ٢١ - ٣٣) ، سواءٌ كان الكاتب عربياً

أو غير عَرَبىّ ، (أى مستشرقاً أوربيًّا) . ولذلك يحسنُ بكَ هنا أن تُعِيد قراءته بتأنٍّ وحذرٍ ، لأنه غير لائق أنْ أعيد ذكرهُ فى هذا الموضع مفصَّلاً ، وإنما هى الإشارة إليه لا غيرُ . وآعلمْ أنّى سأبيِّنُ لك الأمر هنا فى حالةٍ واحدةٍ ، هى حالة استحقاقِ الدراسة أن توصف بأنها « علميَّة » ، وهلْ هو أمرٌ ممكنٌ أن يكون ما كتبه « المستشرقون » دراسةً « علميَّة » بمعناها الصحيح ، الموجِبِ للاحترام والتقدير . وكُنْ أبدًا على ذُكْرٍ بأن ما قلته عن « المنهج » و « ما قبل المنهج » هو : « أصلٌ أصيلٌ فى كُلِّ أمَّةٍ ، وفى كُلِّ لسانٍ ، وفى كُلِّ ثقافة حازها البشرُ على اختلافِ ألسنتهم وألوانهم ومللهم ونِحلَهِم » (ص : ٢٣) ، فهو أمرٌ لا يختلف فيه اثنان من البَشَر مهما تبايَنَا لغةً وثقافةً وديناً ، ولا تقوم فى أمّةٍ ثقافة أو حضارةٌ إلاّ بالالتزام بهذا الأصلِ الأصيل فى ثقافتها أو حضارتها . (اقرأ بدقة ما كتبته آنفاً من ص : ٢١ - ٣٣) .

* * *

١٩ - « ما قبل المنهج » ، كما علمتَ ، مكوّن من شطرين : « شطر جمع المادة » و « شطر التطبيق » ، فلننظُر الآن أين يقع « المستشرق » منهما ليكون الأمر واضحاً لك كُلَّ الوضوح ، وأنا مُحدِّثك عنهما بإيجازٍ شديدٍ جدًّا ، وفيما مضَى قبلُ بلاغٌ يضىءُ لك الطريق .

• فالشطر الأوَّلُ ، « شطر جمع المادة » كما قلتُ : « يتطلَّبُ جَمْعَها من مَظانِّها على وجهِ الاستيعابِ ، ثم تصنيفَ هذا المجموع » ، (ص : ٢٢) ، وهذا ممكنٌ للمستشرق إمكاناً مّا ، مع ما فيه من العَوائق الجليَّة ، بَلْهَ العوائقَ الخفيَّة التى تحتاجُ إلى بَسْط وإيضاح = « ثم تمحيصُ مفرداته تمحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزاء تراكيبه بدقّةٍ متناهيةٍ ، وبمهارةٍ وحِذْقٍ ، حتّى يتيسَّر للدارس أن يرى ما هو زَيْفٌ واضحاً جليًّا ،

وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ، وبلا هَوًى ، وبلا تسرُّع » ، (ص : ٢٢) . وهذا مبنىٌّ على ما سبقَه ، فهو ممكنٌ للمستشرقِ بعضُه بصورة مَّا ولِهدَفٍ مَّا ، ومستحيلٌ بعضُه أن يكون منه عندهُ مثقَالُ ذرةٍ بصورة أُخرَى ، لأنه يدخُل فى حديثٍ آخرَ سيأتى بعد قليلٍ ، وهو حديث « اللغة » و « الثقافة » و « الأهواء » .

• وأمَّا الشطرُ الثانى ، « شطر التطبيق » ، فكما قلتُ لك : « فيقتضى ترتيب المادة ، بعد نَفْى زَيْفها وتمحيص جيّدها ، باستيعاب أيضاً لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرُّع » ، (ص : ٢٢) . وهذا ، بلا شكٍّ ، مترتّب على الشطر الأوّل كُلّه ، فما كان ممكناً فيه فهو ممكنٌ هنا ، وما كان غيرَ ممكنٍ فهو هنا أيضاً غيرُ ممكنٍ = « ثم على الدارس أن يتحرَّى لكلِّ حقيقةٍ من الحقائقِ موضعاً هو حقُّ موضعها ، لأن أخفى إساءَةٍ فى وضع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يشوِّهَ عمودَ الصورة تشويهاً بالغ القُبْح والشَّناعة » ، (ص : ٢٢) ، وهذا غيرُ ممكنٍ البتّةَ ، بل هو ممتنعٌ ، بل هو مستحيلٌ ، لأن عمَل « الاستشراق » كُلَّهُ مبنىٌّ على رسم صورةٍ محدَّدةٍ قائمةٍ فى نفسه ، منصوبةٍ لعينيه ، يرسمُها لهدفٍ معيّنٍ مقصودٍ لذاته ، ومن أجلِ إحداثِ هذه الصورة المُقْنعة للمثقّف الأوربى يُعَانِى مشقة « جمع المادة » ، ويَكِدُّ كدًّا فى ممارسةِ « التطبيق » . وقد بيَّنت لك آنفاً « أهداف الاستشراق » ، (فى الفقرتين : ١٦ ، ١٧) ، وكشفْت لك حقيقة « الصورة » ، (فى الفقرة : ١٨ ، ص : ٥٩ ، ٦٠) فهذا العملُ وحدَه ، أو هذا القصْد المتعمَّدُ وحدَه ، آفةٌ خبيثةٌ كافيةٌ وَحْدَها فى إسقاط عمل « الاستشراق » كُلّه إلى حضيضِ الفسادِ والإفسادِ فى « ما قَبْل المنهج » ، ومُفْضِيةٌ بعد ذلك إلى قَذْفِ عمله كُلّه منبوذاً خارجَ حدود كُلّ ما يمكنُ أن يُوصف بوجهٍ مَّا أنّه « عملٌ علميٌّ » خالصٌ . ومُحَقِّرٌ لعقله مَنْ لا يُدْركُه ، فدَعْ عنك مَنْ يرتَضِيه ؟ ومُغَطّى على بَصيره من لا يُبْصِرهُ ، فما ظنُّك بمن يُنافحُ عنه ؟ فإنه كما قلت آنفاً : « أبينُ بياناً من البدائه المسلّمة ، وأظهرُ ظُهوراً من الشمس الساطعة » ، (فقرة : ١٨ ، ص : ٦٢) .

• والنازلون فى مَيْدانِ « المنهج » ومَيْدانِ « ما قبل المنهج » من الكتَّاب والعلماء ، فى كُلّ لغةٍ ، وفى كُلّ أُمّةٍ ، وفى كُلّ مِلّةٍ ، وفى كُلّ ثقافة ، لهم شروطٌ مُحْكَمَةٌ لا يُمكِنُ إغفالُها البتّةَ ، فهى أركانٌ لا يقوم بناءٌ إلا عليها ، ولا يُمكنُ أن يسمَّى « كاتباً » أو « عالماً » أو « باحثاً » إلاّ من حاز أكبر قَدْرٍ من هذه الشروط ضربةَ لازبٍ . ولم تُوجَد على الأرضِ أمةٌ واحدةٌ سمحت لأحدٍ أن ينزلَ ميدان « ما قبل المنهج » وميدان « المنهج » فى أىِّ علم كانَ أو فنٍّ ، إلاَّ وهو مُطيقٌ للنزول فيه بحقِّه ، فإذا اجترأ مجترىءٌ عارٍ من الشروط وفعل ، نُفِىَ وطُرِدَ طَرْداً ، وأبَوْا منْ أن يعدُّوه فى الكتَّاب كاتباً ، أو فى العلماء عالماً ، أو فى الباحثين باحثاً ، وأُلقِى عملُه كلُّه فى سَلَّة المهملات ، كما يقولون . وجِماعُ الشُّروط كُلِّها فى هذا الشأن مَنُوطٌ بثلاثةِ أمور : لُغَتِهِ التى نشأ فيها صغيراً ، وثقافةِ أمّته التى ينتمى إليها وآرتضَع لِبانها يافِعاً ، وأهوائِهِ التى يَملكُ ضَبْطها أوْ لا يملكُه بعد أن استوَى رجلاً مُبينًا عن نفسه ، (انظر ما سلف ص : ٢٧) .

• أمَّا « اللُّغَة » التى نشأ فيها صغيراً ، فشرطُ نُزُوله الميدانَ : أن يكون محيطاً بأسرارها الظاهرةِ والباطنةِ ، وبين تَمام الإحاطة بها وقصورِ هذه الإحاطة ، يرتفع قدْرُ ما يكتُبه ، أو ينزِلُ إلى حَضِيض الإسقاط والإهمال ، مع مخاوفَ ذكرتها لك آنفاً ، (ما سلف ص : ٢٧) .

• وأمّا « الثقافةُ » ، وهى سرٌّ من الأسرار الملثّمة ، وحقائقها عميقةٌ بعيدة الغَوْر متشَعِّبةٌ ، وقِوامُها « الإيمانُ » بها عن طريق القلب والعقل = ثم « العملُ » بما تقتضيه حتّى تذوبَ فى بُنْيان الإنسان وتجرى منه مَجْرى الدّمِ لا يكاد يحسُّ به = ثم « الانتماءُ » إليها انتماءً يحفظُه ويحفظُها من التفكُّك والانهيار ، وبين تمام الإدراكِ لأسرار « الثقافة » وقُصور هذا الإدراك ، يرتفع أيضاً قَدْرُ ما يكتبُه ، أو ينزِلُ إلى حضيض الإهمال ، (ما سلف ص : ٢٨) .

• وأمّا « الأهواءُ » فهى الداء المُبيرُ ، والشرُّ المستطيرُ ، والفسادُ الأكبر ، إنْ هو ألمَّ بأىِّ عملٍ إلمامَةً خفيَّةَ الدبيبِ بَلْهَ الوَطْءَ المتثاقل ، أحَالَهُ إلى عمل مُسْتَقْذَرٍ منبوذٍ كَريهٍ ، حتى ولو جاءكَ هذا العمل فى أحسن ثيابه وحُلِيِّه وعطوره وأتمِّها زينةً ، من دقَّةٍ واستيعابٍ وتمحيص ومَهارةٍ و حِذْق وذكاءٍ ، ثم يزدادُ بشاعةً إذا كان الكاتب مُلمًّا تمام الإلمام بأسرار « اللغة » وأسرار « الثقافة » ، لأنه حينئذ منافِقٌ خبيثُ النِّفاقِ ، وخائنٌ لئيمُ الخيانة ، (ما سلف ص : ٢٨ ، ٢٩) .

• وهذه شروط لا يختلفُ فى شأنها أحدٌ قطُّ فى كلّ ثقافةٍ وفى كُلِّ أُمَّة . فإذا كانَ لا يُعَدُّ كاتباً أو باحثاً أو عالماً من أبناء اللغة وأبناءِ الثقافة أنفسِهم ، إلاّ من اجتمعت له هذه الشروط ، فإذا عَرِىَ منها لم يكن أهلاً للنزول فى ميدان « المنهج » ، فإذا فعلَ فهو متكلِّمٌ لا أكثرُ ، ثم لا يُلْتَفتُ إلى قوله ولا يُعْتَدُّ به عند أهل البحثِ والعلم والكتابة = إذا كان هذا هكذا ، فينبغى قبلَ كُلِّ شىءٍ ، أن نعرفَ من هو « المستشرق » الذى ينزلُ هذا الميدان ؟ وهل يمكنُ أن يكون داخلاً تحت هذه الشروط المحكمة المتَّفَق عليها فى كُلِّ لغة وثقافة ؟

• و « المستشرق » فتىً أعجمىٌّ ، ناشىءٌ فى لسان أُمَّته وتعليم بلاده ، ومغروسٌ فى آدابها وثقافتها ، (ألمانى ، أو إنجليزى ، أو فرنسىّ) ، حتى آستوى رجُلاً فى العشرين من عُمُره أو الخامسة والعشرين ، فهو قادرٌ أو مُفْتَرَضٌ أنه قادرٌ تمامَ القُدْرة على التفكير والنظر ، ومؤهَّل أو مُفترضٌ أيضاً أنّه مؤهَّل أن ينزلَ فى ثقافته ميدانَ « المنهج » و « ما قبل المنهج » بقدمٍ ثابتةٍ . نعم ، هذا ممكنٌ أن يكون كذلك = ولكن هذا الفتى يتحوَّل فَجْأةً عن سلوك هذه الطريق ليبدأ فى تعلُّم لُغَةٍ أخرى ، (هى العربية هنا) ، مفارقةٍ كُلَّ المفارقة للِّسان الذى نشأ فيه صغيراً ، ولثقافته التى ارتضع لِبَانها يافعاً ، « يدخُل قِسْم « اللغات الشرقية » فى جامعة من جامعات الأعاجم ، فيبتدىء تعلُّم ألف باء تاء ثاء ، أو أبجد

هوّز ، فى العربية . ويتلقّى العربيةَ نحوَها وصَرْفَها وبلاغتَها وشِعْرَها وسائرَ آدابها وتواريخها ، عن أعجميّ مثله ، وبلسانٍ غير عربيّ ، ثم يستمِعُ إلى مُحَاضِرٍ فى آدابِ العربِ أو أشعارها أو تاريخها أو دينها أو سياستها بلسانٍ غير عربيّ ، ويقضِى فى ذلك بضع سنواتٍ قلائل ، ثم يتخَرَّج لنا « مستشرقاً » يُفْتِى فى اللسان العربىّ ، والتاريخ العربىّ ، والدين العربى » !! [1] عَجَبٌ ، وفوق العَجَب !

كَيْفَ يجوزُ فى عَقْلِ عاقلٍ أن تكون بضعُ سنواتٍ قلائلَ كافيةً لطالب غريبٍ عن « اللُّغة » ، وهذه حالُه ، أن يُصْبح محيطاً بأسرار اللغة وأساليبها الظاهرةِ والباطنةِ ، وبعجائب تصاريفها التى تجمّعتْ وتداخلتْ على مرِّ القرون البعيدة فى آدابها ، (انظر ما سلف ص : ٢٧) = وأن يُصْبح بين عَشيّةٍ وضُحَاها مؤهَّلاً للنزول فى ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ؟ كيفَ ؟ مع أنّ هذا الشرط صعبٌ عسيرٌ على الكثرة الكاثرة من أبناءِ هذه اللغة أنفُسهم ، ولا يبلُغ هذا المبلغَ إلا القليلُ منهم ؟ كيف يجوز هذا فى عقل عاقلٍ ؟ هذا ، مع أنه أيضاً تعلّمها تلقّياً من أعجميّ مثله ، ولم يخالط أهلَها مخالطةً طويلةً متماديةً تُتيح له التلقِّىَ عنهم تلَقّياً يبصِّرُهُ ببعض هذه الأسرارِ . غَايةُ ما يمكنُ أنْ يحوزَهُ « مستشرق » فى عشرين أو ثلاثين سنة ، وهو مقيمٌ بين أهل لسانه الذى يَقْرَعُ سمعَه بالليل والنهار : أن يكون عارفاً معرفةً مّا بهذه « اللغة » ، وأحسنُ أحواله عندئذٍ أن يكون فى منزلة طالبٍ عربيٍّ فى الرابعة عشرة من عمره ، بل هو أقلّ منه على الأرجح ، أىْ هو فى طبقة العوَامِّ الذين لا يَعْتَدُّ بأقوالهم أحدٌ فى ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » . أليس

---

(١) ما بين القوسين منقولٌ من فصل كتبته فى كتابى « برنامج طبقات فحول الشعراء » (ص : ١١٥ - ١٢٧) ، وفيه تفصيلٌ وبيانٌ وأدلّةٌ على فساد عمل « الاستشراق » ، وعلى التهويل فى شأن علم « المستشرقين » بالعربية ، فاقرأه هناك .

كذلك ؟ هذا على أن « اللغة » نفسَها هى وِعاءُ « الثقافة » ، فهما متداخلان ، فمحالٌ أن يكونَ محيطاً بأسرارها ، دون أن يكون مُحيطاً أيضاً بثقافتها إحاطةً تؤهِّله للتمكُّن من « اللغة » ، فمن أين يكون « المستشرق » مؤهَّلاً لنزول هذا الميدان ؟

• وإذا كان أمر « اللغة » شديداً لا يسمحُ بدخول « المستشرق » تحت هذا الشرط اللازم للقِلَّة التى تنزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فإن شرط « الثقافة » أشدُّ وأعتَى ، لأنَّ « الثقافةَ » ، كما قلتُ آنفاً : « سِرٌّ من الأسرارِ الملثَّمَة فى كُلِّ أُمّة من الأمم وفى كُلّ جِيلٍ من البشر ، وهى فى أصلها الراسخ البعيدِ الغَوْرِ ، معارفُ كثيرةٌ لا تُحْصَى ، متنوِّعةٌ أبلغَ التنوُّع لا يكاد يُحاط بها ، مطلوبةٌ فى كُلّ مجتمع إنسانىٍّ ، للإيمان بها أوَّلاً من طريق العقلِ والقلبِ = ثم للعمل بها حتى تذوبَ فى بُنْيان الإنسان وتجرى منه مَجْرى الدم لا يكادُ يحسُّ به = ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه انتماءً يحفظُهُ ويحفظُها من التفكُّك والانهيار » ، (ص : ٢٨) وهذه القيود الثلاثة ، « الإيمان » و « العمل » و « الانتماءِ » ، هى أعمدةُ « الثَّقافة » وأركانُها التى لا يكون لها وجودٌ ظاهرٌ محقَّقٌ إلاّ بها ، وإلاّ انتقض بُنيان « الثقافة » ، وصارت مجرَّدَ معلوماتٍ ومعارفَ وأقوالٍ مطروحةٍ فى الطريق ، متفككةٍ لا يجمع بينها جامعٌ ، ولا يقوم لها تماسُكٌ ولا ترابطٌ ولا تشابكٌ .

• وبديهىٌّ ، بل هو فَوْقَ البديهىّ ، أنّ شرط « الثقافة » بقيوده الثلاثة ، ممتنعٌ على « المستشرق » كُلَّ الامتناع ، بل هو أدخلُ فى باب الاستحالة من اجتماع الماءِ والنار فى إناءٍ واحدٍ ، كما يقول أبو الحسن التِّهامىُّ الشاعرُ :

ومُكَلِّفُ الأيَّامِ ضِدَّ طِباعِهَا　　　مُتَطَلِّبٌ فى الماءِ جُذْوَةَ نَارِ

وذلك لأن « الثقافة » و « اللُّغَة » متداخلتان تداخُلاً لا انفكاكَ له ، ويترافَدانِ ويتلاقَحانِ بأسلوبٍ خفىٍّ غامضٍ كثير المداخل والمخارج والمسارب ، ويمتزجان امتزاجاً

واحداً غير قابلٍ للفَصْلِ ، فى كُلِّ جِيلٍ من البشر وفى كُلِّ أُمّةٍ من الأمم . ويبدأ هذا التداخُل والترافُد والتلاقُح والتمازُج منذُ ساعة يولدُ الوليد صارخاً يتلمّس ثَدْى أمّه تلمُّساً ، ويسمعُ رَجْع صوتِها وهى تُهَدْهِدُه وتُنَاغِيه ، ثم يظلُّ يرتضعُ لِبَان « اللغة » الأوّلَ ، ولِبانَ « الثقافة » الأوّل ، شيئاً فشيئاً ، عن أمّه وأبيه حتى يَعْقِل ، فإذا عَقَل تولّاهُ معهُما المعلّمون والمُؤدِّبون حتى يستحصِدَ ، (أى يشتدَّ عودُه) ، فإذا استحصدَ وصارَ مُطيقاً إطاقةً مَّا للبصر بمواضع الصواب والخطأ ، قادراً قدرةً مَّا على فَحْص الأدلّة واستنباطِها فناظر وباحثَ وجادَلَ ، فعندئذٍ يكون قد وضعَ قَدَمَه على أوّلِ الطريقِ = لا طريقِ « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فهذا بعيدٌ جدًّا كما رأيتَ = بل على الطريقِ المُفْضى إلى أن تكون له « ثقافة » يؤمن بها عن طريق العقل والقلب = ويعَمْل بها حتى تذوبَ فى بنيانِه وتجرى منه مَجْرى الدم لا يحسُّ به = وينتمى إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظُه ويحفظُها من التفكُّك والانهيار ، كما أسلفتُ . وهذا ، كما تَرَى ، شرطٌ لازمٌ للبدءِ فى الإحاطة بأسرار « اللغة » ، ثم « اللغةُ » ، بعد ذلك ، هى التى تمهِّدُ له الطريق إلى الإحاطة بأسرار « الثقافة » ، لأنّ أمر « الإحاطة » عندئذٍ منوطٌ كُلُّه بالقدرةِ على تمحيص مفردات « اللغة » تمحيصاً دقيقاً ، وتحليل تراكيبها وأجزاءِ تراكيبها بدقَّة متناهية ، وبمهارة وحِذْق وحَذَرٍ ، حتى يَرَى ما هو زَيْفٌ جليًّا واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ولا هوًى ولا تسرُّع ، (انظر ص : ٢٢ ، ٦٤ ، ٦٥) = ثم منوطٌ أيضاً بالقدرة الفائقة على النظر فى «الثقافة » وعلى ترتيبِ مادَّتها بعد نَفْى زَيْفها وتمحيص جيِّدها ، باستيعابٍ لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرُّع ، متحرِّياً وَضْعَ كُلِّ حقيقة من الحقائق فى حقِّ موضعها ، لأنّ أخفى إساءةٍ فى وَضْع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يُشوِّه عَمُود الصورة تشويهاً بالغَ القُبْح والشَّناعة ، (انظر ص : ٢٢ ، ٦٤ ، ٦٥)

فقَبْلَ كُلّ شىء ، أَنَّى للمستشرق أن يحوزَ ما لا يحوزُه إلاّ من وُلد فى بُحْبوحة اللغة وثقافتها منذُ كان فى المهد صَبيًّا ، ثم نُشِّىء فيها وارتضَع وأُدِّب حتى عَقَل واستحصد ؟ غيرُ ممكنٍ . وهَبْهُ ممكناً أن يأتىَ « المستشرق » على الكِبَر فيعاشر أصحاب هذه اللغة وهذه الثقافة ويخالطَهم دهراً طويلاً ، وهبهُ ممكناً أيضاً أن ينسىَ كل ما نَشأ هو فيه صغيراً وأُدِّب ، أفَممكنٌ هُو أن يحوزَ ذلك كُلّه ، وهو مقيمٌ فى بلاده بين أهل وعشيرته ، بأن يتعلم على الكِبَر من معلِّم يعلِّمه لغةً وثقافةً هما معاً أجنبيَّان عنه وعن معلِّمه جميعاً ؟ غيرُ ممكنٍ . أقْصَى ما يبلغُه هذا « المستشرق » بعد عشراتِ السنين من الدَّأْب والجهد ، وبعد أن تَشيبَ قُرونَه ، (والقرون ضفائر شعر الرأس) ، أن يكُون شادياً لا أكثر ، (و « الشادى » ، الذى تعلَّم شيئاً من العلم والأدب ، أى أخذَ طَرَفاً منه) ، أى أنه إنَّما تعلَّم لغةً أجنبيَّةً عنه وبَسْ . [1] هذا صَريحُ العقل ، إذنْ فخبِّرْنى : أهو ممكنٌ أن يكونَ مجرَّدُ تعلُّم لُغَةٍ أنت فيها شادٍ ، كفيلاً بأن يجعلك كاتباً أو باحثاً فى أسرار هذه اللغة وفى ثقافتها ، مهما كانت منزلتُك أنت فى لُغَتك وثقافتِك ؟ أَمُمكن هو ؟ مجرَّدُ خُطور إمكانِ هذا فى وَهْمك ، مُخْرِجٌ لك من حدِّ العقل . فأعجبُ العجبِ ، إذن ، أن يَعُدَّ أحدٌ شيئاً مما كتبه « المستشرقون » فى لغتنا وثقافتنا وتاريخنا وديننا ، داخِلاً فى حدِّ الممكِن ، وأنْ يراهُ مُتضمِّناً لرأى حقيقٍ بالاحترام والتقدير ، فضلاً عن أن يكون « عملاً علميًّا » أو « بحثاً منهجيًا » نسترشدُ به نحنُ فى شؤون لُغتنا وثقافتنا وتاريخنا وديننا ، كما هو السائد اليوم فى حياتنا هذه الأدبيّةِ الفاسدةِ . أليس هذا شيئاً لا يُطاق سَمَاعُه ولا تصوُّرُهُ ؟ ومع ذلك فهو كائنٌ معمولٌ به بلا غَضَاضة ، أليس هذا غريباً ! أليس غريباً جدًّا أن لا يكون لمثلِ هذا شبيهٌ البَتّة فى أى لغةٍ وأىّ ثقافة كانت فى الأرضِ ، أو هى كائنةٌ اليوم ؟ وقلت

---

(١) « بَسْ » بمعنى « حَسْبُ » و « فقط » ، مستعملة فى العامية ، ولكنَها قديمةٌ جدًّا ، ويقالُ إنّ أصلها فارسىٌّ .

يوماً : « أرأيتَ قطُّ رجُلاً من غير الإنجليز أو الألمان مَثلاً ، مهما بلغ من العلم والمعرفة ، كان مسموعَ الكلمة فى آداب اللغة الإنجليزية وخصائص لُغتها ، وفى تاريخ الأمّة الإنجليزية ، وفى حياة المجتمع الإنجليزى ، يدينُ له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم » ؟ (١) أليس غريباً أن يكون غيرُ الممكنِ ممكناً فى ثقافتنا نحنُ وحدَها ، دون سائر ثقافات البشر قدِيمِها وحديثها ؟ غريبٌ عجيبٌ لا محالةَ .

• وأشياءُ قليلةٌ ، ولكنّها عظيمة الخَطَر ، أحبُّ أنْ أنبِّهك إليها ، ونحنُ فى حديث « الثقافة » ، حتّى لا تختلط عليك الأُمور . يوجبُ ذلك علىَّ علمى بفساد حياتنا الأدبية الحديثةِ حَاضِرِها وغابرِها ، ولأنها تسيرُ بنا اليومَ فى طريق الغُموض ، لا فى طريق الوضوح . وقد استشرى خَطَرُ هذه السِّيرة بما شاع فى هذه الحياة من الثرثرة والادِّعاءِ والتحكُّم والعَجْرَفيَّة وقِلّة المبالاةِ والزَّهْوِ الفارغ ، فأدَّى بنا ذلك كلُّه إلى أن نَأْلَف استعمالَ ألفاظٍ مُوهِمةٍ غامضة الدلالة ، فضْفاضة المعانى ، بُجْرأة وبلا أناةٍ وبلا ضبطٍ وبلا تعمُّقٍ . فالأمر يحتاجُ منِّى ومنكَ إلى وقفةٍ متأنيّةٍ ، ومُراجعةٍ ضابطةٍ للفظ « الثقافة » ، لأنّ أَمرها أجلُّ وأخطَر ممّا توهمك به النَّظْرة الأولى . بيْد أنّى لا أستطيع هنا الإفاضةَ فى بيانها ، وما هو إلاّ الإشارة الخاطفة والتحديدُ لا غيرُ = وأَيضاً لأنَّ لفظ « الثقافة » لفظٌ مستحدثٌ فى زماننا هذا ، تَفَشَّى استعمالُه على الألسنة بلا ضابطٍ وبلا دِقّة وبلا مبالاةٍ .

• « الثقافةُ » فى جوهرها لفظٌ جامعٌ يُقْصَدَ بها الدلالةُ على شيئين أحدهُما مَبْنىٌّ على الآخر ، أى هما طَوْران متكاملان :

---

(١) انظر كتابى « برنامج طبقات فحول الشعراء » ص : ١١٨ .

الطَّور الأوَّل : أُصولٌ ثابتة مكتسبةٌ تنغرسُ فى نفس « الإنسان » منذ مولده ونشأته الأولى حتى يُشارف حدَّ الإدراك البيِّن ، جِماعُها كُلُّ ما يتلقَّاهُ عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلّميه ومؤدِّبيه حتى يصبحَ قادراً على أن يستقِلَّ بنفسه وبعقله ، وتفاصيل ما يتلقّاه الوليد حتى يترعرَعَ أو يُراهق ، تَفُوتُ كلَّ حَصْرٍ بل تعجزُهُ . وهذه الأصولُ ضرورةٌ لازمةٌ لكل حيٍّ ناشىءٍ فى مجتمع مَّا ، لكى تكون له « لغةٌ » يُبِينُ بها عن نفسه ، و « معرفةٌ » تُتيحُ له قِسْطاً من التفكير يُعينه على معاشرةِ من نشأ بينهم من أهله وعشيرته . وهذا على شدّة وضوحه عند النَّظرة الأولى لأنَّك أَلِفتَهُ ، لا لأنَّك فكرَّت فيه وعمَّقت التفكير ، هو فى حقيقته سِرٌّ مُلثَّمٌ يحيِّر العقُولَ إدراكُ دَفينِه ، لأنه مرتبطٌ أشدّ الارتباط ، بل مُتغلغِلٌ فى أعماق سِرَّين عظيمين غامضين هما : سِرُّ « النُّطْقِ » وسرُّ « العقل » اللَّذان تَميَّز بهما « الإنسانُ » من سائر ما حَوْلَهُ من الخَلْق كُلِّه ، وتحيَّرت عقول البشر فى كيف جاءَا ؟ وكيف يعملان ؟ لأنّ « الإنسان » لم يَشْهد خَلْق نفسِه حتّى يستطيع أن يستدلَّ بما شَهِد ، لكى يصلَ إلى خَبِىءِ هذين السرَّين الملثَّمين المُسْتَغلقين البعيدين ، وإنْ توهَّم أحياناً بالإلْفِ أُنهما قريبان واضحانِ .

ولأنّ « الإنسانَ » منذ مولِده قد استُودِع فِطْرةً باطنةً بعيدةَ الغَور فى أعماقه ، تُوزِعُه ، (أى تُلْهِمُه وتحرّكه) ، أن يتوجَّه إلى عبادةِ ربٍّ يُدرِك إدراكاً مبهماً أنّه خالقُهُ وحافظُهُ ومُعِينُه ، فهو لذلك سريعُ الاستجابة لكلِّ ما يُلَبِّى حاجةَ هذه الفِطرةِ الخفيَّة الكامنة فى أغواره . وكُلُّ ما يلبِّى هذه الحاجة ، هو الذى هدَى الله عبادَه أن يسمُّوه « الدِّين » ، ولا سبيلَ البتَّةَ إلى أن يكونَ شىءٌ من ذلك واضحاً فى عقل الإنسانِ إلاّ عن طريق « اللُّغة » لا غيرُ ، لأن « العقل » لا يستطيع أن يعملَ شيئاً ، فيما نعلَمُ ، إلا عن طريق « اللغة » . فالدِّين واللُّغة ، منذ النشأةِ الأُولى ، متداخلانِ تداخُلاً غير قابل

للفَصْلِ ، [(١)] ومن أغفَل هذه الحقيقة ضَلَّ الطريقَ وأوغل فى طريق الأوهامِ . هذا شأن كُلِّ البشر على اختلاف مِلَلهم وألوانهم ، لا تكاد تجدُ أُمَّةً من خلق الله ليس لها « دينٌ » بمعناهُ العامِّ ، كتابيًّا كانَ ، أو وثنِيًّا ، أو بِدْعًا ، (« البِدْعُ » ، الدِّينُ ليسَ له كتابٌ أو وَثَنٌ معبود) .

ولذلك ، فكلُّ ما يتلقَّاهُ الوليدُ الناشىء فى مجتمعٍ مّا ، من طريق أبويه وأهله وعشيرته ومعلِّميه ومؤدِّبيه ، من « لغةٍ » و « معرفةٍ » = يمتزجُ امتزاجاً واحدًا فى إناءٍ واحدٍ ، رَكيزتُه أو نَوَاتُه وخَميرتُه دِينُ أبويه ولُغتُهما ، وأبلغُهما أثراً هو « الدين » . فالوليد فى نَشْأته يَكونُ كُلُّ ما هو « لغةٌ » أو « معرفةٌ » أو « دِين » متقبلًا فى نفسه تقبُّل « الدِّين » ، أى يتلقَّاهُ بالطاعةِ والتسليم والاعتقادِ الجازمِ بصحّته وسلامته ، وهذا بَيِّنٌ جدًّا إذا أنت دقَّقتَ النظر فى الأسلوب الذى يتلَقَّى به أطفالُك عَنْك ما يسمعونه منك ، أو من المعلِّم فى المراحل الأُولى من التعليم . ويظلُّ حالُ الناشىء يتدرَّج على ذلك ، لا يكادُ يَتَفَصَّى شىءٌ من مَعارفه من شىءٍ ، (« يتفصَّى » : أى يتخلَّص من هذا المَضِيق) حتَّى يقاربَ حدَّ الإدراكِ والاستبانِة ، ولكنه لَا يكادُ يبلغُ هذا الحدَّ حتى تكون لُغتُه ومَعارفُه جميعاً قد غُمِسْت فى « الدين » وصُبِغتْ به . وعلى قدْر شمولِ « الدين » لشؤون حياة الإنسان ، وعلى قدر ما يحصِّل منه الناشىء ، يكون أثرُهُ بالغ العمق فى لغته التى يفكِّرُ بها . وفى معارِفه التى ينبنى عليها كُلُّ ما يوجبُه عملُ العقل من التفكير والنظر والاستدلال . فهذه هى الأُصول الثابتة المكتسبةُ فى زمن النشأةِ على وجه الاختصار .

---

(١) فى حياتنا الأدبية الفاسدة ، تروجُ دعوة خبيثةٌ جاهلةٌ لفصل « اللُّغة » عن « الدِّين » ، وهذا شىءٌ لا يتيسَّر إلا بمفارقة دينٍ ، والدخول فى دِينٍ آخر يصنعونه لأنفسهم . ولبيان معنى « الدين » ، أرجو أن تقرأ أولاً ما كتبته فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ٥١٣ - ٥٥٢ ، فهو مهمٌّ هنا جدًّا ، وأن « الدين » عندنا يشتمل على الدلالة على الأصول الصحيحة المحكمة التى يسترشد بها العقل فى التفكير والنظر والاستدلال .

الطَّورُ الثانى : فروعٌ مُنْبثقةٌ عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأةِ . وهى تنبثقُ حين يَخرج الناشيءُ من إسارِ التسخير إلى طَلاقة التفكير . وإنما سمَّيتُ « الطور الأوّل » : « إسارَ التسخير » ، لأنه طورٌ لا آنفكاكَ لأحدٍ من البشر منه منذُ نشأته فى مجتمعه . فإذا بلغَ مبلغَ الرجالِ استوَتْ مداركُه ، وبدأت معارفُه يتفصَّى بعضُها من بعضٍ ، أو يتداخل بعضها فى بعضٍ ، ويبدأ العقلُ عملَهُ المُسْتتِبَّ فى الاستقلال بنفسه ، ويستبدُّ بتقليب النظر والمباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص ، ومعالجةِ التعبير عن الرأىِ الذى هو نتاجُ مُزاولةِ العقلِ لعمله ، فعندئذ تتكوَّن النواةُ الجديدة لما يمكن أن يسمَّى « ثقافة » . وبيِّنٌ أن سبيله إلى تحقيق ذلك هو « اللغة » و « المعارف » الأُوَل التى كانتْ فى طورها الأوَّل مصبوغة بِصِبْغَة « الدين » لا محالة ، حتى لو استعملها فى الخروج على « الدينِ » الموروث ومناقشته رَفْضاً لهُ أو لبعضٍ تفاصيله . هذه حالُ النَّشأِ الصغار حتى يبلغوا منزلة الإدراك المستقلّ المفضِى إلى حَيِّز « الثقافة » .

- و « ثقافة » كل أمّةٍ وكل « لُغَة » هى حصيلةُ أبنائها المثقَّفين بقدْرٍ مشتركٍ من أصول وفروعٍ ، كُلّها مغموسٌ فى « الدين » المتلقَّى عند النشأةِ . فهو لذلك صاحبُ السلطانِ المُطْلَق الخَفِيِّ على اللُّغَة وعلى النفس وعلى العقل جميعاً ، سلطانٌ لا ينكره إلاّ من لا يُبالى بالتفكُّر فى المنابع الأُوَل التى تجعل الإنسانَ ناطقاً وعاقلاً ومبيناً عن نفسه ، ومستبيناً عن غيرِه . فثقافة كُلِّ أمّةٍ مِرْآةٌ جامعةٌ فى حيِّزها المحدود كُلَّ ما تشعَّثَ وتشتَّت وتباعَدَ من ثقافة كُلِّ فردٍ من أبنائها على اختلاف مَقاديرهم ومَشاربهم ومَذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم فى الحياةِ . وجوهَرُ هذه المرآة هو « اللغة » ، و « اللغة » و « الدين » ، كما أسلفت ، متداخلان تداخُلاً غيرَ قابلٍ للفَصْلِ البتّة .

فباطِلٌ كلَّ البطلانِ أن يكون فى هذه الدنيا على ما هى عليه ، « ثقافَةٌ » يمكن أن

تكون « ثقافةً عالمية » ، أى ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعاً ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومِلَلهم ونِحلَهم وأجناسهم وأوطانهم . فهذا تدليسٌ كبيرٌ ، وإنّما يُراد بشُيوع هذه المَقُولة بين الناسِ والأمم ، هدفٌ آخرُ يتعلّق بفرضِ سيطرة أمَّةٍ غالبة على أممٍ مغلوبَة ، لتبقَى تبعاً لهَا . فالثقافات متعدِّدة بتعدُّد المِلَل ، ومتميِّزة بتميُّز المِلَل ، ولكُلّ ثقافة أسلوبٌ فى التفكير والنظر والاستدلال مُنْتزعٌ من « الدين » الذى تدينُ به لا محالةَ . فالثقافَات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش ، ولكن لا تتداخلُ تداخُلاً يُفْضِى إلى الامتزاج البتَّةَ ، ولا يأخُذُ بعضُها عن بعضٍ شيئاً ، إلاّ بعد عَرْضه على أسلوبها فى التفكير والنظر والاستدلال ، فإن استجاب للأُسلوب أَخذَته وعدَّلته وخلَّصَته من الشوائب ، وإن آستعصَى نَبَذتْهُ واطَّرَحَتْهُ . وهذا بابٌ واسع جدًّا ليس هذا مكان بيانه ، ولكنّى لا أفارقُه حتَّى أنبِّهك لشيءٍ مهمّ جدًّا ، هو أن تفصل فَصْلاً حاسماً بين ما يسمَّى « ثقافة » وبين ما يسمَّى اليومَ « علمًا » ، (أعنى العُلُوم البَحْتَةَ) ، لأنّ لكُلٍّ منهما طبيعةً مُباينةً للآخر ، فالثقافة مقصُورةٌ على أمَّةٍ واحدةٍ تدينُ بدينٍ واحدٍ ، والعِلْم مُشاعٌ بين خَلْق الله جميعاً ، يشْتركون فيه اشتراكاً واحداً مهما اختلفت الملل والعقائد .

● فإذا عرفتَ هذا واستبصرت خَبيئَه ، وأنعمتَ النظر فيه ، فعندئذٍ يُفضى بك النَّظَر إلى أمر « المستشرق » . فهو حين ينظُر فى « ثقَافة » أمَّةٍ أخرى غير أمّته ، إنما ينظر فيها لأحدِ أمرين : إمّا أن ينظر فيها لِيَكْسِب منها شيئاً لأمَّتِهِ وثقافته ، وإمّا أن ينظُر فيها ليناظِرَ ويناقش . وكلا الأمرين حقٌّ لا ينازعُه فيه منازعٌ . وفى كلا الأمرين هو واقعٌ فى مأزِقٍ ضيّق : مأزِقِ « اللغة » ومأزِقِ « الثقافة » . لا يستطيعُ أن يأخذ إلاّ على قَدْر ما فهم من « لغةٍ » غريبة أصْلاً عن لُغَتِه ، ولا يستطيعُ أن يناقش إلاّ على قَدْر ما يتصوَّرُ أنه استبانهُ وأدركه من « ثقَافة » غريبة عن ثقافته . ولكن ليس هذا شأنَه وحدهُ ، بل هو شأنى وشأنك أيضاً فى ثقافة « المستشرق » وأمته التى ينتمى إليها ، وعلى نفس القاعدة التى ذكرتها لك قبل أسطرٍ .

• ولكن « المستشرق » ، وإن يكن قد فَعل الأمرين جميعاً خدمةً لأمته ، كما مضى ذِكْرُ ذلك فى ثنايا كلامى ، فإنه قد جاء فدخل مَدْخلاً آخر من غير هذين البابين ، ودخوله من هذا الباب الثالث هو موضع النّزاع بيننا وبينَه ، دخَل لا مستفيداً ولا مناقشاً ، بل دخَل باحثاً ودارساً عليه طَيْلَسَان العلم ، (أى الرِّداء المميِّز لأساتذة الجامعات) فى ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، وهو ميدانٌ له شروطٌ لازمةٌ لا تختلُّ . دخَل فى « لُغةٍ » هو فيها هجِينٌ كُلَّ الهُجْنَة ، (« الهجين » الذى فى نسبه عيب قادحٌ) ، وفى « ثقافة » هو غريبٌ عنها كُلَّ الغُرْبة . ودخوله هذا عمل مُسْتَشْنَعٌ فى ذاته ، لأنه اجتراءٌ على دخول هذا الميدان بغير حقِّه ، ولا يُسْمَح بمثله فى ثقافة أمَّته هو نفسه ، لأنه لا يملكُ شيئاً ذا بالٍ من مُسَوِّغاته ، ولا تسمحُ به طبيعةُ ما يمكنُ أن يسمَّى « بحثاً » أو « دراسة » ، كما بيّنت ذلك آنفاً (ص : ٦٦ - ٧٠) . أمّا « اللغة » فغيرُ ممكن أن يكون فيها إلا طالباً شادياً يعرفهما معرفة مّا ، لا تسمح بدخوله تحت شرطها ، كما بيَّنْتُ آنفاً . (ما سلف : ٦٦ - ٧٠) = وأمَّا « الثقافة » ، وشرطها أشدُّ وأقسَى ، (انظر ص : ٢٨ ، ٦٨) فيحولُ بينَه وبينها أهْوَالٌ لا يجتازُها إلاّ من عرفَ « اللغة » معرفةَ أستاذٍ متمكّن ناشىء فى هذه « الثقافة » وفى لُغَتها . وفوق ذلك كلّه ، « المستشرقُ » ناشىءٌ فى لغةٍ وفى ثقافةٍ أخرى قد رسختْ فى نفسه وعقله ، وهى بطبيعتها ، كما بيَّنتُ آنفاً ، مصبوغة صِبْغَةً شديدة فى اليهودية والمسيحية ، وهما مِلّتَان تُباينُهما ملّةُ الإسلام مُبَاينةً تبلُغ حدَّ الرَّفْضِ والمناقضة . وثقافتُه هذه تُنَازِعُه حيث ذهبَ فى البحث والدرس ، فممكنٌ أن يناقش « ثقافة » الإسلام ، ممكنٌ ، لأن هذا حقُّه ، ولكنه مستحيلٌ كُلّ الاستحالة أن يكون فى ثقافتنا نحنُ « باحثًا » أو « دارسًا » يبدِى رأياً يستحقُّ النظر والاحترامَ ، فى قرآنها وحديثها وتفسيرها وفى تفسير شرائعها ، وفى تاريخها وفى آدابها ولغتها وشعرها إلى آخر ما ذكرته آنفاً ، (ص : ٥٩) ، مستحيلٌ ، لأنه ممتنِعٌ عليه امتناعاً لا يملك الفرارَ منه .

بيد أن دوافع « المستشرق » إلى هذا الدخول الجرىء المُسْتَبْشَع وركوب هذا المَرْكب الوَعْر ، كانت ضرورةً تحملُه على أن يخدم أبناء جلدته وعشيرته وأهلِ مِلّتِه ، بما أوجبَه الصراعُ المحتَدِمُ قروناً بين الإسلام والمسيحية المحصورة فى الشمال ، فانبعثَ يكتُب ما يكتُب حاملاً هُموم المسيحية الشمالية فى أعماق قلبه ، (انظر ما سلف ص : ٥٨) ، لأسبابٍ فصَّلتها آنفاً ، و « ليصوِّر الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصُورةٍ مقنعة للقارىء الأوربىّ (المسيحى) ، وبأسلوب يدلُّ على أنّ كاتبها قد خبرَ ودرس وعرفَ وبذلَ كلَّ جهدٍ فى الاستقصاءِ ، وعلى منهجٍ مألوفٍ لكلّ مثقف أوربىّ ، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التى وضَعها بين يديه ، بعد خِبْرَة طويلة وعَرَقٍ وجُهْد وإخلاصٍ ، حتَّى لا يَشُكَّ قارىءٌ منهم فى صدق ما يقرؤُه ، وأنّه هو اللُّبَاب المصفَّى من كُلِّ كدَرٍ ، والمبرَّأ من كل زَيْفٍ ، وأنه هو الحقُّ المبينُ والصراط المستقيم » ، (اقرأ ص : ٥٩ وما قبلها وما بعدها) . وفَعَلَ « المستشرق » ذلك لأسباب تستطيع أن تُعيد قراءتها فيما سلف ، (ص : ٥٦ ، ٥٧) .

وهذا العملُ على ما فيه من المَعَابة ، هو بلا شكٍّ أيضاً ، حقٌّ خالصٌ للمستشرق لا ينازعه فيه منازعٌ ، لأنه كتب ما كتبه للمثقف الأوربى المسيحىّ وحدَهُ لا لغيرِهَ (انظر ما سلف : ٦١) ، حتّى ما كان من ذلك كُلِّه سَفاهةً وبذاءةً لا غيرُ (ص : ٦١) ، كُلُّ ذلك حقُّه ، وما كان فيه من إثْمٍ فحسابُه على الله سبحانه لا علينا . وكُلّ ذلك أيضاً لا يوجِبُ عندى أن يوصف عملِ « المستشرق » هذا بأنّه مبنىٌّ على خُبْثِ الطويَّة ، لأن خُبْث الطوِيّة يقتضى أن تكون تَعرِفُ الحقَّ أبلجَ مستنيراً ، ثُم تَطْمسه مُرِيداً لإفسادِ الحقِّ على غيرك . و « المستشرق » بعيدٌ كُلَّ البعد عن أن يعرف الحقَّ مُعْتِماً دامساً ، فكيف يعرفه أبلجَ مستنيراً . و « المستشرق » ، كما علمتَ ، لم يَعْمِدْ إلى إفساد حقٍّ على المثقف الأوربىّ المسيحى ، بل عَمَد إلى حياطته حتى لا ينبَهر بدين عدوِّه المسلم انبهاراً مجرّبَةً

عاقبتُه على مرِّ القرون الطوال بالتساقُطِ فى الإسلام . وفوق ذلك كُلِّه ، فإن هذا المسلَكَ ، مسلك « الغايةُ تسوِّغ الوسيلةَ » ، مَسْلَكٌ مألوفٌ مستحسنٌ محبَّبٌ إلى الحضارة الأوربية السائرةِ على هُدَى « مكيافِلِّى » الذى هداهُمْ إليه ، ونزل عندهم منزلة « الدين » ، وإنّ كان دينُنا ، نحنُ المسلمين ، يُنكِره ويأباه علينا كُلَّ الإباءِ . وإذا كان من حقِّنا أن نصف « المستشرق » بخُبْثِ الطويَّة ، فذلك جائزٌ لنا فى عمل آخر من أعماله ربَّما أشرتُ إليه فيما بعدُ .

• أما الأمر الثالث ، وهو أمر « الأهواء » ، (انظر ما سلف ص : ٦٦) ، فلن أضيع وقتى ووقتك فى الحديث فيه ، وإن كان شرطاً مهمًّا ، حَتْمٌ أن يبرأ منهُ كُلّ من ينزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، لأن بديهةَ الفطرة فى الإنسان تقضى بأنَّ « الأهواءَ » مرفوضةٌ فى كلِّ عملٍ يستحقُّ أن يوصف بأنه عملٌ شريف أو عملٌ علمىّ . وظاهرٌ من كُلِّ ما كتبته لك آنفاً أن « الاستشراق » ، من فَرْع رأسه إلى أخْمَص قَدَميه ، غارقٌ فى « الأهواء » . والثقافة الأوربية والحضارة الأوربية تستقبل « الأهواءَ » بلا نكير ولا أنَفَة ، بل هى تسوِّغ استعمالَ رذيلةِ « الأهواءِ » فى الدنيا وفى الناس بلا حَرَج ، لأنها حضارة قائمة على المنفعة والسَّلْب ونَهْب الأُمَم وإخضاعها بكُلِّ وسيلة لسلطانها المتحضِّر !! والدلائل على ذلك لا تخفَى على بصيرٍ ذى عينين تُبْصران ، فهى تسوّغ ذلك فى العلم وفى الثقافة وفى السياسة وفى الدين وفى كُلِّ شيءٍ ، ما دام جالباً للمنفعة أو دافعاً للمضرة ، بل تسوِّغها أيضاً فى الدعوَى الغريبة العجيبة التى لم يسبق لها مثيلٌ فى تاريخ الأمم ، دَعْوَى أنها « حضارة عالميةٌ » ، وفحواها أن العالم كُلَّه ينبغى أن يخضع لسلطانها وسيطرتها ، ويتقبَّل برضىً غَطْرَستها وفُجورها الغنىَّ الأخّاذ الفاتن !

وأخيراً ، هذا تمام خبر « الاستشراق » وحقيقةِ « المستشرق » الذى انتفض بهموم المسيحيّة الشمالية ، فكتب من الكتب ما كتب لأهل مِلّته وخاضَ فى مَعْمعانِ حياةِ

أمّته الثقافية والسياسية مدافعاً شديد الحميّة ، ومحامياً عن أقوامه أبلغَ المحاماة ، وهو شىءٌ لا يَعْنِينا ، أو كان ينبغى أن لا يعنينا هو ولا ما كتبه فى ثقافتنا قُلَامَةَ ظُفْرٍ ، لما عرفتَ من استحالة قدرته على مَعْرفة العَرَبيَّة إلا مثلَ تَحِلَّة القَسَم ، (أى قليلاً ، بمقدار ما يُكَفِّر المرءُ قَسَمه ولا يُبَالغ) ، ومن عجزه المُطْلَق عن استبانة وجه الحقِّ فى ديننا وثقافتنا ، لأنه مكفوفٌ عنهما بحجابٍ من ثقافته التى نشأ فيها وليداً واستمرَّ حتى شابت قرونُه . فما بالُه شَغَل نَاسَنَا بالحديثِ عنه ؟ أجلْ ، كيف كان ذلكَ ؟ ولِمَ كان ما كانَ ممّا أفضَى إلى انتدابِه إلى إلقاء محاضرات فى جامعاتنا العربية والإسلامية ؟ وأعجبُ من ذلك استلحَاقُه بهيئات المجامع اللغوية فى بلاد عربية إسلامية ، يا للعجب ! أىُّ ناسٍ نحنُ !

* * *

٢٠ – كيف كان ذلك ؟ ولِمَ كان ما كان ؟ قصَّةٌ طويلة عريضةٌ مِلْؤها الغرائبُ والعجائبُ ، والمضحكاتُ والمبكياتُ ، والحسراتُ والآهاتُ ، من مبدئها إلى منتهاها . ليتنى أستطيع على المكان ، (أى الآن) ، أن أقصَّها عليك كاملةً بتفاصيلها ، ولكن أنَّى يكون لى ذلك الآن ؟ فَاقنَعْ منّى بالاختصار المُفْهِم ، والإيماءِ الخاطف ، واللَّمْحة الدالّة ، إبراءً للذِّمة ، ذِمَّتى أنا ، وأداءً للأمانة التى حُمِّلتُها لأستودِعها بين يديك . وأنتَ مخيَّرٌ بين خُطَّتين لا ثالثةَ لهما : إمّا أن تَتَقصَّى المكنُونَ الغائبَ من تفاصيلها المشتَّتة فى تاريخك وكُتُبك ، بعقلٍ وهمَّةٍ وجِدٍّ ويَقَظةٍ وبَصَرٍ وإدراكٍ ، وبأنَفَةٍ من قَبُول الذُّلّ والعار والمَهانةِ = وإمَّا أن تَمَلَّها فتطرحَها عن كاهِلك قابلاً لمَزيدٍ من الذُّلِّ والعارِ والمهانةِ ، مُستحلياً خِدَاع النفس بأوْهامٍ سوَّلتها لك حياتُنا هذه الأدبيّةُ الفاسدة ، والَّتى ألقت بكُلّ فسادها فى حياتنا اللُّغوية والثَّقافية والسياسية والاجتماعية والأَخلاقية ، بل فى صميم حياتنا الدينيّة أيضاً ، حتى أوشك أن يضيعَ كُلّ شيءٍ كان غيرَ قابلٍ

للضياع . فآختَرْ لنفسك منهما ما شئتَ . فإن آخترت الخُطَّة الأولى ، فاصبر على لَأوائها ومَشقّتها ولا تَجْزَعْ ، وكنْ رابطَ الجأشِ لا تستحوذْ عليك المخاوفُ والرَّهبةُ ، ولا تَهُولَنَّك أسماءُ الرجالِ المُحْدَثين الكبارِ ، والتى لها دوىٌّ وضَخامةٌ ، فإنّما هى طَبْلٌ فارغٌ ، وزِقٌّ منفوخٌ مِلْؤُه هَواءٌ . وآعلم أنْ الأمرَ جِدٌّ كلُّه ، فإنْ داخلَه الهزلُ خرجتَ منه صِفْرَ اليدين . وَلا يَغرُرْكَ زُخرفُ الألفاظِ الوَسيمةِ المتلألئةِ ، مثل قولهم : « الجديدُ والقديم » و « الأصالةُ والمعاصرةُ » ، و « التجديد والتقدُّم » ، و « الثقافة العالمية » و « الحضارة العالمية » و « التخلُّف والتحضُّر » ، فإنما هى ألفاظٌ لها رَنينٌ وفِتْنةٌ ، ولكنها مليئةٌ بكُلّ وهْمٍ وإيهامٍ وزَهْوٍ فارغٍ مُميتٍ فاتكٍ ، تُوغِلُ بنا فى طريق المهالك ، وتستزلُّ العَقلَ حتى يرتطم فى رَدْغةِ الخبالِ ، (أى طينته اللَّزجة) ، فإن استبان لك أوّلُ الطريق ولكن هِبْتَ وتردّدتَ ، فاستمعْ عندئذٍ لنَصيحةَ الحسن البصرىّ رضى الله عنه : « إنَّ مَنْ يُخَوِّفُك حتَّى تَلْقَى الأَمْنَ ، أشفقُ عليك ممَّن يُؤَمِّنك حتى تلقَى الخوفَ » ، كان الله فى عونى وعَوْنك .

• غَبَر ما غبَر على يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م بسقوط القسطنطينية حصن المسيحية الشمالية الشامخ المنيع ، وعلى تدفُّق كتائب الإسلام فى قلب أوربة الغارقة فى حَمْأة قرونها الوسطى ... غبَر ما غبرَ على فَرْحةٍ أذْهلت دارَ الإسلام عن فجيعَتها بسقوط الأندلس كلّه بعد أربعين سنة فى قبضة المسيحية الشمالية يوم سقطت غَرْنَاطَةُ آخرُ حصون الإسلام فى الأندلس ، (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) ... وغَبرَ ما غبَر على جَزع المسيحية الشمالية وشعورها بالإخفاق والمذَلَّة والعار ، (اقرأ ما سلف : ٤١ وما بعدها) ، وعلى ما كان من توغُّل محمد الفاتح فى قلب أوربة وتساقُط رعايا الرُّهبان فى الإسلام طواعِيَةً واختياراً ، ودخولهم بحماسة ويقين فى جحافل الإسلام الزاحفة ، (اقرأ ما سلف : ٤٦) ... غَبَر ما غبَر ، ودخلتْ دار الإسلام فى سِنَةٍ

لذيذةٍ أورثتها نشوةُ النَّصْر المؤزَّر ، ودخلت أوربة كُلُّها فى عزيمةٍ حاسمةٍ لتردَّ عن عِرْضِها العارَ ، وبلغَ السَّيْل الزُّبَى ، فكانت يقظَةٌ محسوسةٌ فى جانبٍ ، وغَفوَةٌ لا تُحَسُّ فى جانبٍ ، وشال الميزان ، (اقرأ ما سلف : ٤٤ ، ٥٠) ، وانطلقت الأساطيلُ الأوربية تطوِّقُ دار الإسلام من أطرافها البعيدة ، فإذا دارُ الإسلام محصورةٌ فى الجنوب ، بعد أن كانت حاصرةً للمسيحية فى الشمال ، وشيئاً فشيئاً فقدت دارُ الخِلافة فى القسطنطينية هَيْبَتها وسيطرتَها ، وصارت لأوربّة هَيْبةٌ مرهوبةٌ وسَيْطرةٌ ، (اقرأ ص : ٥٢) .

يومئذٍ كان قد مضى على فتح القسطنطينية قَرْنانِ ، مئتَا عامٍ .... ويومئذٍ آنس قلبُ دار الإسلام رِكْزًا خفيًّا فأرهفَ لهُ سَمْعه . سَمع نَقِيضَ أركانِ دارِ الخلافة وهى تتقَوَّض ، فتوجَّس توجُّساً غامضًا لشرٍّ مستطير آتٍ لا يدرى من أَيْن ؟ فهبَّ من جوف الغَفْوةِ الغامرة أشتاتٌ من رجالٍ أيقظتْهم هَدَّةُ هذا التقوُّض ، فانبعثُوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة فى غَفْوتها . رجالٌ عظامٌ أحسُّوا بالخَطر المُبْهَمِ المُحْدِق بأُمَّتهم ، فهبُّوا بلا تَواطُؤٍ بينهم . كانوا رجالاً أيقاظاً مُفَرَّقِين فى جَنَباتِ أرضٍ متراميةِ الأطراف ، متباعدةٌ أوطانُهم ، لا يجمعهم إلا هذا الذى توجَّسُوه فى قرارةِ أنفسهم مبهماً من خطرٍ مُحْدقٍ . أحسُّوا الخطرَ فرامُوا إصلاح الخَلَل الواقع فى حياة دار الإسلام : خَلَلِ « اللُّغةِ » و « خلَلَ العقيدة » و « خَلَل علوم الدين » و « خَلل علوم الحضارة » . وبأناةٍ وصَبْر عَمِلوا وأَلَّفوا وعَلَّمَوا تلاميذهم ، وبهمةٍ وجدٍّ أرادوا أنْ يُدْخِلُوا الأمَّة فى « عصر النهضة » ، نهضةِ دار الإسلام من الوَسَنِ والنومِ والجهالةِ والغفلة عن إرث أسلافهم العِظام . من هؤلاء خمسةٌ من الأعلامِ أذكرهُم لكَ هنا مجرَّد ذِكْرٍ باختصار : [1]

---

(١) كتبت فى مجلة الهلال فى عددى مايو ويونيه سنة ١٩٨٢ ، فصْلاً عنهم ، وقطعتنى الشواغلُ عن إتمام القول فى شأنهم وشأن « النهضة » التى أحدثوها ، وأسأل الله أن يوفقنى لإتمامها بعونه سبحانه .

١ – « البغدادىّ » ، « عبد القادر بن عمر » ، صاحب « خزانة الأدب » (١٠٣٠ – ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ – ١٦٨٣ م) فى مصر .

٢ – « الجَبَرْتِىّ الكبير » ، « حسن بن إبرهيم الجبرتىّ العَقِيلىُّ » ، (١١١٠ – ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ – ١٧٧٤ م) فى مصر ، وسأحدِّثك عنه بعد قليل .

٣ – « ابن عبد الوهاب » ، « محمد بن عبد الوهاب التميمىُّ النجدىُّ » ، (١١١٥ – ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ – ١٧٩٢ م) فى جزيرة العرب .

٤ – « المُرتَضَى الزَّبِيدىُّ » ، « محمد بن عبد الرزاق الحسينىّ » ، صاحب « تاج العروس » (١١٤٥ – ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ – ١٧٩٠ م) فى الهند وفى مصر .

٥ – « الشَّوْكانىُّ » ، « محمد بن على الخَوْلانىُّ الزَّيدىُّ » ، (١١٧٣ – ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ – ١٨٣٤ م) فى اليمن .

وإذا أنعمت النظر فى هذه التواريخ ، علمت أنَّ « عصر النهضة » عندنَا واقعٌ بين منتصف القرن الحادى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثانى عشر ، ويقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، تذكَّرْ هذا ولا تنسَهُ أبداً ، فهو الذى يكشف لك اللِّثامَ عن التغريرِ الفاضح الذى طفَحتْ به حياتُنا الأدبيةُ الفاسدةُ المهلكةُ .

هبَّ « البغدادىُّ » فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، فألَّف ما ألَّف ليردّ على الأمّة قُدْرتها على « التذوُّقِ » ، تذوّقِ اللُّغة والشِّعر والأدبِ وعلومِ العربية [1] = وهبَّ « ابن عبد الوهّاب » يكافح البِدَع والعقائد التى تخالفُ

(١) اقرأ ما كتبته عن « التذوّق » فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٣٤ ، وفى مواضع من هذا الكتاب الذى بين يديك .

ما كان عليه سَلَفُ الأمَّة من صفاءِ عقيدة التوحيد ، وهى ركن الإسلام الأكبر ، ولم يقنع بتأليف الكتب ، بل نزل إلى عامَّة الناس فى بلاد جزيرة العرب ، وأحدث رجَّةً هائلة فى قلب دار الإسلام = وهبَّ « المرتَضَى الزَّبيدىُّ » يبعثُ التُّراثَ اللُّغوىّ والدينىّ وعلوم العربيّةِ وعلوم الإسلام ، ويُحْيى ما كادَ يخفَى على الناس بمؤلَّفاته ومجالسِه = وهبَّ « الشوكانىُّ الزيدىّ الشيعىُّ » مُحْيِيًا عَقِيدة السلف ، وحَرَّم « التقليد » فى الدينِ ، وحَطَّم الفُرْقَةَ والتنابُذَ الذى أدَّى إليه آختلاف الفِرَق بالعَصَبيّة = أما خامسُهم ، وهو « الجبرتىُّ الكبير » ، فكان فقيهاً حَنفيًّا كبيراً نابهاً ، عالما باللُّغة ، وعلم الكلام ، وتصدَّرَ إماماً مُفْتياً وهو فى الرابعة والثلاثين من عُمْره ، ولكنه فى سنة ١١٤٤ هـ (١٧٣١ م) ، وَلَّى وجَهَهُ شَطْر « العلوم » التى كانت تُراثاً مستغلقاً على أهل زمانه ، فجمع كُتبها من كُلِّ مكانٍ ، وحَرَص على لِقاءِ من يعلمُ سِرّ ألفاظها ورُموزها ، وقضى فى ذلك عشر سنواتٍ (١١٤٤ - ١١٥٤ هـ) ، حتى ملك ناصية الرُّموز كُلِّها ، فى الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كُلِّها ، حتى النِّجارة والخِراطة والحِدادة والسَّمْكرة والتجليد والنقش والموازين ، وصارَ بيتُه زاخِراً بكُلِّ أداة فى صناعةٍ وكُلِّ آلةٍ ، وصارَ إمَاماً عالماً أيضاً فى أكثر الصناعاتِ ، ولجأ إليه مَهَرة الصُّنَّاع فى كُلِّ صناعة يستفيدون من علمه ، ومارس كُلَّ ذلك بنفسه ، وعلَّم وأفادَ ، حتَّى علَّم خَدَمَهُ فى بيته ، ويقول ابنه عبد الرحمن الجبرتىّ المؤرّخ ، (تاريخ الجبرتى ١ : ٣٩٧) :

« وحضَرَ إليه طُلاَّبٌ من الإفرنج ، وقرأوا عليه علم الهندسة ، وذلك فى سنة تسع وخمسين (١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م) وأهدوْا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياءَ نفيسةً ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجُوه من القُوَّة إلى الفعل ، وآستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء ، وجرِّ الأثقال ، واستنباط المياهِ ، وغير ذلك » .

وهؤلاء « الإفرنج » ، هم « المستشرقون » ، كما قصصتُ عليك من أخبارهم ، ومن اتّصالهم بالعلم الحىّ عند علماء دار الإسلام ، لحلّ رُموز الكتب العربيّة ، (اقرأ ما سلف : ٤٧ ، ٥٣ - ٥٥) . و « الجبرتىُّ الكبيرُ » رحمه الله ، كان على خُلُق أهل الإسلام ، فلم يضنَّ على أحدٍ من هؤلاءِ الإفرنج بشىءٍ من علمه ، ولا أساءَ بهم الظنَّ ، (اقرأ ما سلف : ٤٨) ، بل عمل بما أدّبه به نبيُّه ﷺ إذ يقول : « مَنْ سُئِل عَنْ علمٍ فكتمهُ ألجمَهُ الله يوم القِيامة بلجامٍ من نارٍ » ، [1] ولو علم « الجبرتى » بخبيئة أنفسهم وهم يتملّقونه ويتخشّعون بين يديه ، فلا أدرى ماذا كان يفعلُ ، وهو الفقيه المُفْتى رحمه الله ؟

هذا طَرَفٌ لا يجزىءُ عن « النهضة » التى كانت فى دار الإسلام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (السابع عشر والثامن عشر الميلادىّ) ، قصصتُه عليك خَطْفاً ، لتعرفَ بعد ذلك ما كان كيفَ كان ؟

• دَوَّت أسماءُ هؤلاء الخمسة فى أرجاء دارِ الإسلام ، وأشتاتِ غيرهِم ، مُؤْذِنةً بيقظةٍ جديدة ، وإحياءٍ لعلم الأمّة ولُغَتها وثقافتها ، واستعادةٍ لسيطرةِ الأمّة على أسبابِ حضارتها الزاهرة القديمة ، وإرادةٍ لبعثِها بعثاً جديداً ، دون شعورٍ واضحٍ أوْ علم مستبينٍ ، بالذى كان يجرى فى ديار المسيحيّة الشمالية من يَقَظة ونهضةٍ وبَعْثٍ جديد . ونصيحةٌ وتنبيهٌ : لا تنظُر إلى الفرقِ الهائل الكائن اليومَ بين الشمالِ المسيحى والجنوبِ الإسلامىّ ، فإنَّك إنْ فعلتَ ضَلِلْتَ عن الحقيقة . والحقيقةُ يومئذٍ أنّ الفرقَ بيننا وبينهم كانَ خُطْوةً واحدةً تُسْتدركُ بالهمَّة والصَّبر والدَّأْبِ والتصميم لا أكثر ، بل أكبر من ذلك ، فإن اليَقَظة الأوربيَّة كانت بعدُ فى أوّل الطريقِ وتتّكىء اتكاءً شديداً على ما كانَ عندنا من

---

(١) هو حديث أبى هريرة ، رواه أبو داود فى السنن ، « كتاب العلم » والترمذى فى « كتاب العلم » ، ورواه أحمد فى مسنده فى مواضع مختلفة أهمها برقم : ٧٥٦١ (١٤ : ٥ من شرح أخى رحمه الله) ، وكتب أخى فصلاً مهمًّا جدًّا فى حلّ مشكلة تحيط بهذا الخبر .

العلم المسطُور فى كتبنا برموزه التى تحتاج إلى استبانةٍ وفهمٍ ، وعلى العلم الحىِّ الذى عند أهل دار الإسلام ، كما حدَّثك الجبرتىُّ المؤرِّخ عن أبيه الفقيه الجليل الجبرتىّ الكبير ، (انظر ما سلف قريباً) ، وقراءةِ « المستشرقين » عليهِ ليهتَدوا به اهتداءً مَّا إلى حلِّ هذه الرموز واستبانتها وفهمها . وكُلُّ الفرق بين اليقظتين يومئذٍ هو أن يَقَظتنا كانت هادئةً سليمةَ الطويَّة منبعثةً من داخِلها ، ليس لها هدفٌ إلاَّ استعادَة شبابها ونَضْرَتها فى حدود الإسلام ، وإن كانت يومئذ « يقظةً » متباعدة الدِّيار ، غير متماسكة الأوصال ، ولكنها كانت قريبة التواصُل ، وشيكة الالتئام = وأمَّا يَقظتُهم هم ، فكانت متفجِّرةً بحقد قديم مكظومٍ شِيمتُه السَّطوُ الخفىّ ، وشَمْلُها مجتمعٌ بالضغينة المتقادمة ، وهدفُها إعدادُ العُدّة لاختراق دار الإسلام بالدَّهاء والخِداع والمكر ، كما حدثتُك آنفاً فأطلتُ الحديث ... أىْ هُما يقظتنان كانتَا فى زمنٍ واحدٍ ، إحداهما من طبيعتها الرِّفقُ المُهَذَّب ، والأخرى من طبيعتها العدوانُ الفاجر ، فأنظر الآن ماذا كان بعد ذلك ، لأمرٍ أرادَ الله أن يكون . ودَعْ عنك ما تقوله اليوم حياتنا هذه الأدبية الفاسدة .

• كما قلت لك آنفاً ، كان « المستشرقون » منذ نأنأة « الاستشراق » = وإلى هذا اليوم = يَجُوبونُ دارَ الإسلام من أطرافها إلى قلبها ، يُلاقونَ الخاصةَ من العلماء ، ويخالطون عامَّة المثقَّفِين والدَّهماء ، (اقرأ ص : ٤٨) ، وفى قلوبهم حَمِيَّة الحقد المكتَّم ، وفى النفوس العزيمةُ المصمِّمة ، وفى العيونِ اليقظةُ ، وفى العقولِ التنبُّه ، وفى الوجوهِ البِشْرُ والبراءةُ ، وفى الألسنة الحلاوةُ والتملُّق ، ولَبِسوا لجمهرة المسلمين كُلَّ زِيّ ، وتوغَّلُوا يستخرجون كُلَّ مخبوءٍ ، (اقرأ ص : ٥٣ وما بعدها) = وكانت بلادُهم يومئذٍ قريبة عهدٍ بعصرِ النهضة وعصر اليقظة وعصر الإحياءِ ، فهُم على أتمِّ معرفة بأسرارِ اليقظة كيف تبدأُ وإلى أينَ تنتهى ، فأدركوا إدراكاً واضحاً لا لَجاجةَ فيه أن ما كان يجرى فى دار الإسلام منذ منتصف القرن الحادى عشر الهجرىّ ، (السابع عشر الميلادى) ، إلى منتصف القرن الثانى عشر

الهجرى ، (الثامن عشر الميلادى) ، إنّما هو « يَقظَةٌ » حقيقيّةٌ ، و « نهضةٌ » كاملةٌ ، و « إحياءٌ » صحيحٌ ، مُنْبثق كُلُّه من يُنْبوعٍ صَافٍ عَتِيقٍ ، طَمستْ معالمه كرُّ الدُّهورِ والقرونِ ، هو جميعُه فى حوزةِ دارِ الإسلام ، وهم فى يَقظتهم هذه يومئذ عالةٌ عليه ، ولا يَسْتقون إلاَّ من ثِمادِه بعد جُهْدٍ جهيدٍ ، (« الثِّمادُ » ، حُفَرٌ فيها ماءٌ قليل) ، فوجَفتْ قلوبُهم ورَجَفتْ من هَوْلِ ما هم مقبلون عليه ، إذا تَمَّت لدار الإسلام « اليَقَظةُ » واستوت وبلغتْ أَشُدَّها ، واستقامت خُطُواتها على سَنَنِ الطريق .

● وعلى عادة « المستشرقين » التى حدَّثتُك عنها ، (اقرأ ص : ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٦) ، وهُمْ حَمَلةُ هُموم المسيحية الشمالية ، والذَّادةُ عنها وحُمَاتُها المستبسلون ، هبُّوا هَبَّةَ الفَزَعِ من هذه « اليقظة » ، فتسارعُوا ينقلون كُلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ممّا هو جارٍ تحت أعيُنهم فى دار الإسلام . ووضعوهُ بيِّناً جليًّا ، مشفوعاً بمخاوفهم ومُلاحظاتهم ونُصْحِهم وإرشادِهم ، تحت أبصار ملوك المسيحية الشمالية وأمَرائها ورؤسائها وقادَتها وسَاسَتها ورُهْبانها ، وبصَّرُوهم بالعواقب الوَخِيمة المَخُوفة من هذه « اليقظة » الوَليدة التى بدأت تَنْسَاحُ فى أرجاء دارِ الإسلام . وتناجَوْا بينهم نَجْوَى طويلةً ، يُقلِّبون النَّظر فى أهدافِهم ووسائلهم ، (اقرأ ما سلف ص : ٤٥ وما بعدها) ، وتبيَّنُوا الخطرَ الداهِمَ الذى جَاءَ يتهدّدهم ، إذا ما تمَّت هذه « اليقظةُ » ، واشتدَّ عُودُها ، واستقامتْ خُطُواتُها على الطريق اللاحب . وببديهة العقلِ ، لم يكن للمسيحية الشمالية يومئذٍ خيارٌ ، طريقٌ واحدٌ لا غيرُ ، هو العملُ السَّريع المحكَمُ ، واهتبالُ الغَفلة المحيطة بهذه « اليقظة » الوليدة ، كما حدثتك آنفاً ، ومعاجَلتُها فى مَهْدها قبل أن يتمَّ تمامُها ويستفحلَ أمرُها ، وتصبحَ قوَّةً قادرةً على الصِّراع والحركة والانتشار ، فإنْ تمَّ ذلك ، فما هو إلاَّ أن تعودَ الحربُ بين الشمالِ والجنوبِ جَذَعةً ، وعندئذٍ لا يضمنُ أحدٌ مغبَّة الصِّراع المشتعِلِ بين سِلاَحين متكافئين ، وثقافتين مُتَكاملتين . لا يضمنُ أحدٌ لأَيِّ الفِئَتين تكونُ الدُّولة والغَلَبة والسِّيادة = ومرةً أُخرى أقول

لك : لا تنظُر الآن إلى الفَرْق الهائل الكائن اليوم بين الشمال المسيحىّ والجنوب الإسلامىّ ، فإنَّك إن فَعلت ضَلِلتَ عن الحقيقة ، والحقيقةُ يومئذٍ أنّ الفرقَ بيننا وبينهم كان خطوةً واحدةً تُسْتَدرَك باليقظة وبالهمة والصَّبر والدَّأْبِ والتصميم لا أكثر . ولِعِلْمِ « الاستشراق » يومئذ بهذه الحقيقة ، كان فَزَعُهم الأكبر . لا تنسَ هذا أبداً ، وكُنْ على حَذَرٍ من الضَّلالِ ، ومن التضليل والتغرير الذى تعِجُّ به اليومَ حياتنا هذه الأدبيةُ الفاسدة ، وألسنتُها الثرثارةُ المتشدِّقة بأوهام « الأَصَالة والمعاصرة » و « القديم والجديد » و « الثقافة العالمية » ، وبالقضية الهزليّة : « قضيَّةِ موقفنا من الغرب » ! ياَلَهُ من عارٍ فاضحٍ ، وياَلهُ من عَبَثٍ رزينٍ مُتَعاقل ! ما عَلَينا ؟

• .... « الاستشراق » كما رأيت قبلُ هو عينُ « الاستعمار » التى بها يُبْصِرُ ويحدِّقُ ، ويدُه التى بها يُحِسُّ ويبطِش ، ورِجْله التى بها يَمشى ويتوغَّل ، وعَقْله الذى به يفكِّر ويستبينُ ، ولولاهُ لظلَّ فى عميائه يتخبَّط . ومَنْ جَهِل هذا فهو ببدائه العقولِ ومُسَلَّماتها أجْهل . فلمّا فَزِع « الاستشراق » فزعَتْ معه كُلُّ المسيحية الشمالية ودُوَلُها التى كانت أساطيلُها تطوِّق دار الإسلام من أطرافها البعيدةِ ، وتتوغَّل بسيطرتها على سَوَاحلها ، متحسّسَةً طريقها إلى قلبِ هذه الدّار المترامية الأطراف ، بالدَّهاءِ وبالمكر وبالخديعة ، وبالتنمُّر أحياناً حين يتطلَّب الأمْرُ التنمُّر والتَّرْويع .

كانت دُوَل أوربة كُلُّها فى صِراع مستميتٍ فيما بينها على نَهْشِ أطراف دار الإسلام ، واستنزافِ ثَرْواتها وكنوزها وخيراتها بشراهةٍ لا تشبع . وكان أكبر الصّراع المتوحّش على الطَّرَف البعيد فى الهند ، حيث لا تستطيع طليعةُ الإسلام فى دار الخلافة (تركية) أن تصنَعَ لإنقاذها شيئاً ذا بالٍ ، بل هى يومئذ مشغولة أيضاً بالحفاظ على وُجودها وهَيْبتها لا أكثر . كان أكبر دولتين يومئذ : إنجلترا وفرنسا ، وكان السَّبقُ لإنجلترا ،

فأنشأت ما يسمُّونه « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، وهو أوَّل جهازٍ استعماريٍّ قوىّ وذلك فى سنة (١٦٠٠ - ١٨٥٨ م / ١٠٠٩ - ١٢٧٥ هـ) ، وتبعتها فرنسا فأنشأت جهازها الاستعمارى باسم « شركة الهند الشرقية الفرنسية » (١٦٦٤ - ١٧٦٩ م / ١٠٧٥ - ١١٨٣ هـ) ، ولا يغْرك لفظ « شركة » ، فإنه فى الحقيقة جَيْشٌ غازٍ مسلَّحٌ ، مهمته النهبُ والسَّلْب وقَطْعُ الطريقِ ، وتخويفُ الضُّعفَاء الذى لا يملكون عن أنفسهم دَفْعاً . بدأ الصراعُ بين « الشركتين » فى الهند = أى « اللصَّينِ » = صراعاً مستحرًّا مستميتاً ، وظَلَّ محتدماً حتى قضت « الشركة البريطانية » على « الشركة الفرنسية » قضاءً مبرماً ، على يد القائد البريطانى المحنَّك « روبرت كلايف » (١٧٢٥ - ١٧٧٤ م / ١١٣٨ - ١١٨٨ هـ) فى معركة فاصلة سنة ١٧٥٧ م / ١١٧١ هـ) وطردتها من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فخرجت هى والأسبان وغيرهم من حَلْبَةِ الصَّراع فى الهند داميةً وجوههم وأكبادُهم ، واستأثرت إنجلترا وحدها بالصَّيدِ الغَزير .

ففى ذلك الوقت جاءَهم النذيرُ ، نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدْلهمّ الذى تهدّدهم به « يَقظة » دار الإسلام بقيام محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، وظهورِ الجبرتىّ الكبير (١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) فى مصر هو والزَّبيدى ومن قبله البغدادىّ (انظر ص : ٨١ ، ٨٢) . كان نذِير « الاستشراق » مروِّعاً وحاسماً . أمَّا إنجلترا صاحبة « الشركة الهندية الشرقية البريطانية » فأسرعَ مُستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، وبالدَّهاء والمكر والدسائس جاءتْ فى زىِّ الناصر والمعين لتتدسَّس إلى يَقظة « ابن عبد الوهاب » = يقظةِ تنقيةِ « الدِّين » مما تراكَم عليه من البِدَع المفسدة لعقيدة التوحيد = لتتخَّذ بذلك عندها يدًا ، وبهذه اليد تسيطرُ عليها وتَحتَويها ، وأبعدتْ إنجلترا الرحلة من ناحيةٍ أخرى ، تؤلِّبُ عليها من حولها لتطوِّقها تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . وهذا هو أُسلوب بريطانيا حيثُ حَلَّتْ من الأرضِ .

وأمّا فرنسا التى عادتْ من الهند تلْعَقُ جراحَ هزائمها ، فكان وَقْعُ النذيرِ مختلفَ الأثَرَ ، مختلف الأسلوب ، فى قصةٍ طويلةٍ من تنبُّه « الاستشراق » لما يجرى فى دار الإسلام . فإذا كانت إنجلترا قد ظفرتْ بنصيب الأُسَد فى الهند ، فإن لفرنسا لَنَصيباً قريباً تُعِدُّ العُدّة للظَّفر به ، لا يفصِلُ بينها وبينه إلّا بَحْرٌ ضيِّقٌ ، ممكنٌ أن يكونَ لَها عليه السلطانُ الأعظم . ومن قبلُ ظلَّت تدبِّر الأمر زمناً طويلاً لتظفر بهذا النصيبِ فى مصر وفى الجَزائر ، ومعنى ذلك أنها عادتْ مرةً أخرى تفكِّر فى اختراق دار الإسلام ، الأمْرُ الذى كان مستعصياً نحو عشرة قرون أو أكثر . وكانَ نذيرُ « الاستشراق » يومئذٍ يحَذِّر المسيحية الشمالية من هذه « اليقظة » المَخُوفَة العواقب ، يقظةِ « اللُّغة » على يد الشيخين الكبيرين البغدادىّ والزبيدىّ وتلاميذهما ، ويقظة « علوم الحضارة » على يد الشيخ الجبرتىّ الكبير وتلاميذه . « يقظةٌ » فى ديارٍ تضُمُّ أقدَم بيتين من بُيُوت العلم على ظهر الأرض ، عاشا جميعاً متواصِلَيْن اثنى عشر قرناً مَوْئِلاً للعلم والعلماء ، هما « الجامع العتيق » بالفسطاط (جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه) و « الجامع الأزهر » بالقاهرة ، وهما اسمان يتردّدان فى أرجاءِ دار الإسلام من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمالِ إلى الجنوب . فاليقظة التى تأتِى من قِبَلهما سوفَ تُؤدِّى إلى يقظة دارِ الإسلام كُلِّها ، بما فيها اليَقَظة المتفجرّة المتحركة الجديدة فى جزيرة العرب . فإذا تم اندماجُ اليقظتينِ فلا يعلم إلاّ الله كيف يكونُ المصير ؟

وقيّض الله لفرنسا قائداً أوربيًّا محنّكاً مظفَّراً شديد البأس ، خوَّاضًا لغمراتِ الموتِ ، ضَرّسته الحروبُ فى أوربة حتى صار اسمُه مثيراً للرُّعب فى القلوبِ بأنه قائدٌ لا يُقْهر ، هو الصليبىُّ المكيافِلِّىُّ المغامر المفتون الفاجر : « نابليون » ، (١٧٦٩ - ١٨٢١ م / ١١٨٣ - ١٢٣٧ هـ) ، فلمَّا فرغ من حروبه فى أوربَّة منصوراً نصراً مؤزّراً ، أصاخَ سمعَهُ لنذير « الاستشراق » ، ولنُصْحه وإرشاده ، فقدَّرَ أنّ الحِين قدحانَ

ليكونَ أوّلَ قائدٍ أوربيّ استطاعَ بقوَّته التى لا تُقْهر ، أن يَخْترق قلبَ دار الإسلامِ من الشمال ، وأنْ يُدَاهم « اليَقَظَة » التى أرَّقت مَنَام « الاستشراق » ، وأن يبطشَ بها فى عُقْر دارها بَطْشة جبَّارٍ عاتٍ لا يُبْقى على شيءٍ ، وفوق ذلك كُلِّه : أن يُردّ لفرنسَا هيبتَها التى ضاعت يوم طردتها بريطانيَا طرداً مخزياً من دار الإسلام فى الهند القصيَّة البعيدة ، وبذلك تتفردُ فرنسا وحدَها بالمجدِ السنىِّ كُلِّه ، وتكلِّلها المسيحية الشمالية عندئذ بأكاليل الغار .

وفى أول يوليه سنة ١٧٩٨ م / ١٧ من المحرم سنة ١٢١٣ هـ هَوَى نابليون هُوِىَّ العُقَاب على مَهْد « اليقظة » فى الديار المصرية ، هَوَى على الإسكندرية فجأةً بجحافله وأساطيله مزوَّدةً بكُلِّ أداةٍ للحرب جديدةٍ مما تمخَّض عنه علم أوربة يومئذٍ ، مصطحباً معه عشرات من صغارِ « المستشرقين » وكبارهم ، وطائفةً من العلماء فى كُلِّ علمٍ وفنٍّ ، معهم كُلُّ غريبةٍ مما كشف عنه العلم المُسْتَحدث . فاستباح الإسكندرية ودمّر ما دمَّر ، ثم طوَى الأرض طيًّا مكتسحاً فى طريقه شمالَ مصر ، حتى دخل القاهرة فى العاشر من صفر سنة ١٢١٣ هـ (٢٤ يوليه ١٧٩٨ م) . وذُعِر الخَلْقُ ، فبدأ يُدَاهنُ الناس ، وحاول أن يستميل « المشايخَ » فى رجال الأزهر ، كى يستجيبوا لِمحَالِه ومخاتلته ، فلمّا رأى امتناعَهُم على تطاوُل الأيام ، عَجل فأطلق جنوده الغُزَاةَ ، ليطفئوا ما استقرَّ فى قلوبِهم من نار الأحقاد المتوارثة على دار الإسلام ، وأتركُ الجبرتى المؤرخ يصف لك ما حدثَ فى يوم السبتِ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ ، (٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨) ، قال الجبرتىّ ، (تاريخ الجبرتى ٣ : ٢٦) بلفظه :

« بعد هَجْعة من الليل ، دخل الإفرنجْ المدينة كالسَّيْل ، ومرُّوا فى الأزقَّة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جُنْد إبليس ، وهدَّموا ما وجدُوه من المتاريس ... ثم دخلوا إلى « الجامع الأزهر » وهم راكبون الخُيول ، وبينهُم المُشَاة

كالوعول ، وتفوَّقوا (أى : قاءُوا) بصَحْنه ومقصورته ، وربطوا خُيُولهم بقبلته ، وعاثُوا بالأَرْوِقة والحارات ، وكسرُوا القناديل والسهَّارات ، وهشَّموا خزائن الطَلَبة ، والمجاورين والكَتَبَة ، ونهبوا ما وجدوهُ من المتاعِ ، والأوانى والقِصَاع ، والودائع والمخبَّآت ، بالدواليب والخزانات ، ودَشَتُوا الكُتُب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثُوا فيه وتغوَّطوا ، وبالُوا وتمخَّطُوا ، وشربُوا الشرابَ وكسروا أوانيه ، وألقوها بصَحْنه ونواحيه ، وكُلُّ مَنْ صادفوه به عرُّوهُ ، ومن ثيابه أخرجوهُ » . (١)

وكانَ ما كان بعد ذلك وقبل ذلك ، من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها ، بحقدٍ وشراسة . وبالطبع ، وظاهرٌ جدًّا ، أن « الحملة الفرنسية » بقيادة نابليون ، ومعها مستشرقوها وعلماؤها ، لم يتكبّدوا المشقَّة فما فوقها بقطع البحار ، والبرارى والقِفار ، إلاّ ليخرجوا هذه الأمة من الظُّلمات إلى النور ، أى من عَصر الجهالة المظلمةِ إلى عصر العلم المضىء ، أى لنبدأ « عصر النَّهضة الحديثة » فى بلادنَا نحنُ ، أو كما يقالُ !! هكذا ينبغى أن نقول لأبنائنا فى المدارس والجامعات !! ألم أقلْ لك آنفاً إنها قصةٌ مليئة بالمضحكات والمبكيات ، والحَسرات والآهات ؟

* * *

• « قِصَّةٌ مقحمة » ، وأنا أصحِّح تجارب هذه الرسالة لطبعها ، وقفتُ على فَصل مهم جدًّا ، كتبه الدكتور زكى نجيب محمود فى الأهرام ، (الاثنين ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٥) ، فرأيتُ أن أُقْحمها بين الكلامين ، لكى تصحّح بها الأخطاء التى وقعت أنا فيها فى سياق الحديث عن « الحملة الفرنسية » بتسرُّعى وَحِدّتى يقول الدكتور زكى :

---

(١) للأستاذ محمد جلال كشك كتاب سماه : « ودخلت الخيل الأزهر » ، فاقرأهُ لأنه مفيدٌ .

« جاءت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ، ووصلت إلى شواطىء الإسكندرية سنة ١٧٩٨ ، أى قُبَيْل فاتحة القرن التاسع عشر بسنتين ، وكان مع الحملة جماعةٌ من العلماء الفرنسيين فى تخصصاتٍ علمية مختلفة ، فكان ممّا صنعه أولئك العلماء ، أن استدعَوْا كبار علماء الأزهر الشريف ، جماعةً بعد جماعةٍ ، ليطلعوهم على عجائب العلوم الجديدة . من ذلك ، مثلاً ، أن يوقفوهم صفًّا ، مشبّكى الأيدى جاراً مع جاره ، ثم يمسُّون الواقف بسلكٍ مكهربٍ ، فتسرى رعدة الكهرباءِ فى جميعهم ، وأما هُمْ فيأخذهم العجب ، وأما العلماء الفرنسيون فيأخذهم الضَّحك . ولقد حدث يوماً أن اغتاظ من تلك الألاعيب الصبيانية أحد الشيوخ ، فقال لهم ما معناه : هل فى علمكم الجديد ، ما يجعلُ إنساناً موجوداً هنا موجوداً فى بلاد الغرب فى وقتٍ واحد ؟ فأجابوا بقولهم : إنه ليس فى علومهم ذلك، لأنه محالٌ ، فردّ هو قائلاً : لكن ذلك ممكنٌ فى علومنا الروحانية .

« وإنى لأنظرُ إلى تلك اللحظة التى قال فيها الشيخ ذلك الذى قالهُ للعلماء الفرنسيين على سبيل التحدِّى ، أنظر إليها على أنها لحظةُ البدءِ فى أحد طريقين اتخذناهما من ذلك الحين وإلى هذه الساعة التى أكتب فيها هذه الكلمات . فطريقٌ منها اختاره الرافضون للغرب ، أى الرَّافضون للعصر وما أنتجه من علوم ترتَّب عليها ما تَرَتَّبَ من حضارة جديدة = وطريق آخر اختاره من أراد منّا ألاّ تُقْفل أمام العصر الجديد أبوابُنا ونوافذُنا ، وكانت نقطة البدء فى الطريق الثانى هى رفاعة رافع الطهطاوى » .

انتهى ما كتبه الدكتور زكى ، وأنا لا أستطيع أن أعلِّق عليه إلاّ بالتسليم الخاشع لبراعته فى تأريخ الحملة الفرنسية والمشايخ المصرية وعلماء الأزهر الشريف ، وإنما أقحمتُه لك هنا متبرِّعاً ، لتستفيد عقلاً جديداً لا يَمْلك مِثْلى أن يُفيدَكَ إيَّاه . ونعودُ إلى ما كنَّا فيه

(ثم اقرأ ما سيأتى فى الفقرة رقم : ٢٢) .

* * *

• فاقرأ الآن معى تاريخك بعين عربيَّة بَصيرةٍ لا تغفُل ، لا بعينٍ أوربية تخالطُها نَخْوةٌ وطنيةٌ ، كما فعل أستاذنا عبد الرحمن الرافعى ، غفر الله له ذنوبه ، فى كتابه « تاريخ الحركة القوميّة ، وتطوُّر نظام الحكم فى مصر » .

قضَى نابليون بحملته الصليبية التى غزت مصر ، على أكبر قوةٍ مقاتلةٍ فى دار الإسلام بعد قوّة دار الخلافة . قضى على بأس المماليك المصرية وشتَّتهم ومزّقهم كُلّ ممزّقٍ ، وتتبَّعهم ينْهبُ القُرى فى الأقاليم ويُبِيدُ من أهلها ما يُبيد . وبقى جمهورُ الأمّة فى القاهرة أعزلَ بلا سلاح يدفعُ به عن نفسه ، وبلا حكومةٍ تديرُ شؤونه . واضطرب أمر الناسِ ومَاجَ ، فأنشأ نابليون حكومةً جديدة سماها « الديوان » ، وهو مهزلةٌ من المهازل السخيفة ، ولكنّ حياتنا الأدبية الفاسدة تعدُّ « الديوان » نظاماً جديداً جاءَ يصلحُ فساد نظام المماليك المصرية !! تعدُّه كذلك ، لأنها تنظرُ بعينٍ أوربية تخالطها وطنيّةٌ غافلة . وكُلُّ ما فى الأمر أن نابليون وضع هذا النّظامَ الهازلَ الماكر ، لأنه كان قد قرّر فى نفسه أنّ فرنْسا ينبغى أن تبقى فى مصر إلى الأبد . ومعنَى هذا : أن يكون مَصِيرُ مِصر ، هو مصيرُ « الجزائر » التى اقتحمها الفرنسيون بعد ذلك سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦) ، وفعلوا بأهلها ما فعلوا ، ولا أظنُّك تجهل ما فعلوا بدار الإسلام فى الجزائر .

بقى هذا القائد المفتون نحو سبعة أشهرٍ فى القاهرة يخرِّبُ ويفعل الأفاعيل ، وفى فبراير سنة ١٧٩٩ م (رمضان ١٢١٣ هـ) خرج منها ليدوِّخ سورية بقوَّته التى لا تُقْهر ، وظلَّ يقاتل بها نحو ثلاثة أشهرٍ ، وحاصرَ « عَكّا » ، ولكنّ المقاومة التى لقيها هناك ، اضطرته إلى رفع الحصار عنها فى ٣٠ مايو سنة ١٧٩٩ م (ذى الحجة ١٢١٣ هـ) بعد أن فقد آلافاً من جيشهِ وعشراتٍ من قُوَّاده وعلمائه ومستشرقيه ، وعلى رأسهم المستشرق الداهية « فانتور » خليلُه ومستشارهُ فى شؤون دار الإسلام . كانت

هزيمتُه فى « عكّا » هزيمةً منكرةً ، فآبَ إلى القاهرة وفى قلبه الخوفُ من العواقب التى تَفْجَؤه بها دار الإسلام ، واستشفّ ببصيرته وذكائه أنّ أُمر الحملةِ قد انتهى إلى غير رجعةٍ ، وأحسَّ بما تغلى به القاهرة غلياناً سوف يُفضِى إلى الانفجار ، فانتهز فرصةَ اضطراب الأمور فى بلاده فرنسا ، واتَّخذ الليل جَمَلاً ، وكرَّ راجعاً إلى فرنسا فى ١٨ أغسطس ١٧٩٩ ، (١٨ ربيع الأول ١٢١٤ هـ) ، وتَركَ الأمر كُلَّه لخليفته « كليبر » ليعانى منه ما يُعَانِى ، وقد كَتَم عنه عزيمَتَهُ على السَّفر ، ثم راوغَه حتَّى رحل قبل أن يلقاهُ .

• وما كاد « كليبر » يستقرُّ على عرش خلافة نابليون أشهراً قلائل ، حتى أفاقت القاهرة من ذُهولها واستعدَّت لمقاومة الغزاةِ ، وانفجرت الثورةُ فيها شهراً كاملاً ، (٢٠ مارس – ٢١ إبريل ١٨٠٠ م / ٢٣ شوال – ٢٤ ذى القعدة ١٢١٤ هـ) وارتكب « كليبر » فى سبيل إخمادها أفظع ما يرتكبه قاطع طريقٍ مجنونٌ من الفظائع والجرائم ، وضرب القاهرة بمدافعه فخرَّب الدُّور والقصورَ والمساجدَ والحمامات والزوايا والقباب والأسوار ، « حتى بقى ذلك كُلّه خراباً متصلاً » ، كما يقول الجبرتى ، مما لاَ تزالُ آثاره شاهدةً باقيةً إلى يوم الناس هذا ، لمن ينظر بعين عربية ، لا بعين أوربية تخالطها وطنيّةٌ ! وأُخمِدت الثورة ، وظنّ « كليبر » أن مصر كُلَّها قد دانت له بالطاعة ، ولكنه لم يهنأ بظنِّه هذا شهرين حتى انقضَّ عليه عُقابٌ كاسِرٌ ، هو المجاهدُ « سليمان الحلبىّ » ، فعاجله بطعنة خِنْجرٍ فى قلبه فخرَّ وهو يصيحُ : « إلىَّ أيُّها الحراس » ، « وخَرَّ صريعاً لليَدَيْنِ وللفَمِ » ، وذلك فى يوم السبت (٢١ من المحرم ١٢١٥ هـ / ١٤ يونيه ١٨٠٠ م) . ما كان أذكى نابليون ! لقد توقَّع هذا المصيرَ ، فَنَجَا بجلده هارباً ، وهو يُنْشد ما قاله بشّار بن بُرْدٍ :

إذَا أَنْكَرَتْنى بَلْدَةٌ أو نَكِرْتُها   خَرَجْتُ مَعَ البَازِى عَلَىَّ سَوَادُ (١)

---

(١) « أنكرته ، ونَكِرْتُه » ، كرهته وأوجست منه خيفة ، و « البازى » ، ضربٌ من الصقور الجارحة ، وهو يخرجُ من وكره بغَلَس قبيل الفجر . و « علىَّ سواد » يعنى خرج فجراً يلفّه سواد الليل . وكذلك فعل نابليون .

● ثم خلف « كليبر » على عرش نابليون فى مصر ، « مينُو » القائد المكيافِلِّى الشقىُّ الكذّابُ المنافقُ الأرعن فى يونيه ١٨٠٠ م (المحرم ١٢١٥ هـ) . كان حاكِماً لرشيد من قِبَلِ نابليون ، فأصاخ سمعَهُ لسخفاءِ « الاستشراق » ومخادعيهم الكبار ، فقرَّر ، أو قَرَّروا له ، أن يتقرَّب إلى شعوب دار الإسلام ، بإعلان إسلامِه بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسولُ الله ، وأنّه « أحبَّ الإسلامَ وأهلَهُ ورغب فيهما ، تاركاً لدين النصرانيَّة والأديان الرديئة » ، [١] ثم ظنّ أكذبَ الظنّ أنه من أسرة فرنسية عريقة ، فهو خليق بأن يصاهر أسرةً من أهل رشيد ، شريفَة النسب ، من بيتِ النبوَّة ، فأجمعَ أمره على محاولة التقدُّم إلى الشيخ الجارم العريقِ النَّسب ، أن يزوّجه إحدى ٱبنَتَيه ، فلم يكد الخبر يَنْمِى إلى الشيخ حتّى أسرعَ مُبادِراً فزوّجهما رَجُلين من المسلمين قبل أن يتقدَّم إليه هذا الخبيث العريقُ الخَباثةِ ، ولكن وقع فى حبائل « مينو » السيدُ محمد البوَّاب أحد أعيان رشيد ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، [٢] فزوّجه ابنتَه المطلَّقة « زُبَيْدة » فى الخامس والعشرين من شهر رمضان ١٢١٣ هـ ، (٢ مارس ١٧٩٩ م) . وطَيَّر « مينو » الخبر يومئذ إلى نابليون بعد رحيله إلى فرنسا ، فما أنكر ذلك عليه . ولكن انظر يا سيدى إلى رجل عربىّ مسلم ، فى حياتنا هذه الأدبية الفاسدة ، يكون كُلُّ تعليقه ، بعد أن روى خبر زواج هذا الخبيث بهدوءٍ وأناةٍ فقال : « وكانت حادثَة زواج مِينُو ، فريدةً فى بابها ، لم يسبقْهُ إليها أحدٌ من قوّاد الجيشِ الفرنسىّ ، فلا غَرْوَ أَنْ كان موضعَ تهكُّم زملائه » . يا سبحان الله ! بكل هذه البساطة والسَّماحة فى التعبير ، يعبِّر العربى المسلم ! ويقول : « تهكّم زملائه » ؟ . [٣] ألم أقل لك إنها قصةٌ مليئةٌ بالمضحكات والمبكيات ، والآهات والحسرات ؟

---

(١) ما بين القوسين هو نصٌّ ما جاء فى وثيقة زواجه .

(٢) ولكن من الممكن أن ندرى ، بل نستيقن ، إذا نحن أحسنا معرفة ما فعله جهاز الاستشراق فيما قبل مجىء الحملة ، كما سأشير إليه فى قضية المشايخ والديوان فى الفقرة الآتية رقم : (٢٢) .

(٣) هو نص كلام الرافعى فى « تاريخ الحركة القومية » ٢ : ٢١٤ .

وبقى « مينو » فى إمارته ، يلاقى الأمَرَّين ، وينزل بالناسِ المصائبَ والبلايا ، ويعيثُ هو وبقايا الحملة الفرنسية فى الأرض فسادًا وتخريباً ، حتّى انتهى جلاءُ هذه الحملة الجاهلة التى جاء بها الفَتَى الصليبىّ المُخْترق « نابليون » ليخترق دار الإسلام فى أعظم معقل من معاقلها ، حيث « الجامعُ العتيق » بالفسطاط و « الأزهر الشريف » بالقاهرة ، وليدمّر « اليقظة » التى كانت فيها تدميراً لا يُبْقى ولا يذرُ ، ثُمَّ كان الجلاءُ الأخير من الإسكندرية ، يوم الاثنين ٢١ ربيع الآخر ١٢١٦ هـ / ٣١ أغسطس ١٨٠١ م ، وخرجت فرنسا من مصر على عَجَلٍ ، ولكن ...

° ° °

٢١ - ولكن ، هل يليقُ بى أن أكُفَّ ، وأدعَكَ مُصْغِياً إلَىَّ تترقَّبُ بقيَّةَ الحكاية ؟

... رَحلت فلولُ جيش الفتَى السفَّاح المغرور « نابليون » ، وجَلَتْ عن بلادٍ واسعةٍ عريضةٍ تركتها بَلْقَعاً تَصفِر فيه الرِّيح ، وآنكشَحَتْ عن عاصمةٍ عتيقةٍ تركتها خراباً .[1] كان خراباً شاملاً ، وتدميراً لمدينة زاهرةٍ من أجمل مُدُن العالم يومئذٍ ، بعمارتها وفنونها ، وبِركها ومتنزَّهاتها ، أقدمَ على تدميرها تدميراً كاملاً بَرْبَرِيٌّ جاهلٌ مُسْتَخْفٍ فى زِىٍّ متحضرٍ ! ولكنْ صار هذا التدميرُ ، فى عَيْنِ حياتنا الأدبية الفاسدة ، هو رسولَ الحَضَارة الذى جاء ليخرجنا من ظُلُمات الجهل إلى عصر النُّور والتَّنوير !! لا تضَحكْ ولا تَبْكِ ، ولكن أطْرِقْ إطْراقةَ الخِزْىِ والمهانَةِ والعار . وكيف لا تطرقُ إطراقة الخِزْى إذا انكشف لك الحجابُ عن نيَّة هذا المكيافلّى الخبيث . كان

---

(١) لا تحسب أن « انكشح » عاميّة ، بل هى عربية صحيحة . « آنكشح القوم » ، ذهبوا وتفرقوا .

هدفُ هذا البربرىّ المتحضّر (!!) أن يخرِّب عاصمةً من أكبر عواصم دار الإسلام وأجملها ، ويتركَها تاريخاً يُرْوَى فى وثائق « علماء الحملة الفرنسية » ، [1] أى يتركها أثراً بعد عينٍ ، حتّى إذا تمكَّن فى الأرض هو وجِنْسُه ، أنشأ على أنقاضِها البائدة مدينة فرنسيَّةً جديدة ، تعبِّر تعبيراً فصيحاً عن العبقريّة الفرنسية ، والفنّ الفرنسى ، والجمال الفرنسىّ ، والرقّة الفرنسية !! يعمُرها يومئذٍ شعبٌ فرنسىٌّ أصيلٌ كريم المحتِد ، يخدُمُه شَعْبٌ عربىٌّ مستأنسٌ مروَّضٌ ترويضاً حسناً على إلْف العادات الفرنسية الشريفة ، والتقاليد الفرنسية النبيلة ، والفجور الفرنسىّ الخالد .... كما سأحدثك عنه فيما بعد ، وليس الذى حدث فى دار الإسلام فى « الجزائر » عنك ببعيد .

ولكنهم لم يرحلوا عن القاهرة المخرّبة ، وعن الشعب الذى استنزفوا ثروتَه بالضرائب والإتاوات مدة ثلاث سنوات ، حتى سرق « المستشرقون » المصاحبون للحملة الفرنسية ، و « مستشرقون » آخرون من كل جنسٍ ، سَرَقُوا كُلَّ نَفيسٍ من الكُتُب ، وكانت القاهرة يومئذٍ من أغنى بلاد العالم بالكتب . ودليل السرقة قائمٌ بين أعيُننا إلى هذا اليوم ، يصيحُ شاهداً على نفسه بالسَّطوِ على ذخائرنا التى يمنُّون علينا بعد ذلك ، فى حياتنا هذه الأدبية الفاسدة : أنهم حفظوها لنا ، ونشروا لنا نفائسها ، (اقرأ ما ذكرته عن هذا النشر فيما سلف ص : ٥٤ ، ٥٥ ، والتعليق عليه) . دليل السرقة قائم فى جميع مكتبات أوربة ، صغيرها وكبيرها ، فى فرنسا وإنجلترا وهولندة وروسية وغيرها من البلدان ، وفى الأديرة والكنائس ، وفى جميع أرجاء العالم المتحضّر !! وكان همُّهم الأكبرُ يومئذٍ هو السطوَ على كتب « علوم الحضارة » أوّلاً ، ثم على كتب « التاريخ » ، ثم على كتب « الآداب » كُلِّها بلا تمييز . ورحم الله

---

(١) هو كتابُ « علماء الحملة الفرنسية » المعروف باسم « وصف مصر » وقد سجّلوا فيه كلّ صغيرة وكبيرة فى مصر ، لكى يصبح وثيقة تاريخيّة ، يتلذذون بها حين يقرأونها .

الشيخ الجبرتىّ المؤرخ ، فإنّه أرّخ لدمار القاهرة ، ولكنّه بغفلته لم يؤرخ لنا تاريخ هذا السطو على كُتُب المساجد والمدارس وبيوت العلماء والأمراء والمماليك المصرية إلاّ فى مواضع متفرِّقة قليلةٍ بلا بيانٍ واضح ، وإنّما هى الحسرةُ لا غيرُ . من ذلك أنه ذكر فى مقدمة كتابه (تاريخ الجبرتى ١ : ٦) بعد أنّ عدّد أسماء كتب التاريخ التى كانت فى القاهرة ، ثُمّ قال :

« قلتُ : وهذه أسماء من غير مسمَّيَات ، فإنا لم نَرَ من ذلك كُلِّه إلا بعضَ أجزاء مدشّتة بقيت فى بعض خزائن الأوقاف بالمدارس ، مما تداولته أيدى الصحَّافين ، وباعها القَوَمَةُ والمباشرون ، ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايَا فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدُوه إلى بلادهم » ، انتبه لهذا النص فهو مهمٌّ .

ثم قال أيضاً (تاريخ الجبرتى ٣ : ١٨٣) ، وهو يذكر قصة شروط الصلح للجلاء عن القاهرة ، ومن الشروط : أن الفرنسيين : « يستصحبون معهم ما يحتاجونه من أوراقهم وكتبِهم ، ولو التى شَرَوْها من مصر » ، هكذا فى الشرط ، والصحيح : « ولو التى سَرَقوها من مصر » . ورحم الله الشيخ الجبرتى ما كان أشدّ غفلته عن أمورٍ كثيرة لم يذكرها واضحةً ، بما فيها مكتبة أبيه « الجبرتىِّ الكبير » ، ماذا فعلوا بها ؟ وذلك لأنه كان مشغولاً عنها بتدبير أمرِ نفسه فى مَعْمَعة هذا التدمير الشامل للقاهرة وبيوتها وقصورها ومساجدها وعمائرها . و « لعل له عُذْراً وأنت تلومُ » .

• لم يكن هذا السَّطوُ الجائحُ على كُتُب دار الإسلام فى القاهرة ، والذى تولَّى كِبْرَهُ « مستشرقو » الحملة الفرنسية وأعوانهم من اليهود ومستشرقى سائر بلاد المسيحية الشمالية = لم يكن هذا سطواً لمجرّد رغبة « الاستشراق » فى أداءِ عمله ، من استمدادٍ لثقافة أُمَمِه من علم دار الإسلام المسطور فى الكتب ، (اقرأ ما سلف : ٤٧ - ٤٩ ، ٥٤ -

٥٦) ، ولشدة حاجة يقظتهم ونهضتهم يومئذ إلى هذا العلم ، لا ، بل كانت الغايةُ الأُولى المقدَّمةُ على كُلّ غايةٍ ، هى تجريدَ دار الإسلام فى القاهرة من أسباب « اليقظة » التى جاءت الحملة الفرنسية لوَأْدِها فى مَهْدها ، وللقضاء عليها قبل أن تتفاقَم . ووَفْرةُ هذه الكتب النفيسة فى القاهرة يومئذ ، هى التى يَسَّرتْ الطريقَ إلى هذه « اليقظة » التى حمل عِبْءَ البَدْءِ بها « الجبرتيُّ الكبير » وتلامذته ، و « البغداديُّ » و « الزَّبيدىُّ » وتلامذتُهما ، فكان لابُدَّ للاستشراق وفلولِ الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملةُ من أجله ، فهو الهدفُ الأكبر : وَأْدُ « اليَقَظَة » فى عُقْر دارها . وبلا شكٍّ كانت سنوات الحملة الثلاث ، وما أصاب القاهرةَ فيها من التدمير الشنيع وسفح الدماءِ ، وما عمَّ أحيَاءَها من الثَّوْارت والفِتَن الكبارِ والصِّغار ، ثم قَمْعِها بفجورٍ وشراسةٍ ، وتحضُّرٍ أيضاً ، = كان ذلك كُلّه حَدَثاً متمادياً كافياً أدّى إلى تشتيت شَمْل تلامذة « الجبرتىّ » و « البغدادىّ » و « الزبيدىّ » وتفرُّقهم فى الأرضِ ، وضَياعِهم فى الهَرْج والمَرْج . بل أنا لا أستبعد عن هؤلاء السفّاحين العُتاة ، أن يكون دُهاةُ « الاستشراق » على علمٍ بأعيانهم وأسمائهم ، منذ كان « المستشرقون » يتردَّدون على البيت العامِر بالصَّنادقية ، (حارة قرب الجامع الأزهر) ليقرأوا على صاحبه « الجبرتىّ الكبير » ، كما حدثتُك آنفاً ، (اقرأ ص : ٨٣) = لا أستبعد أن يكون وَكْرُ « الاستشراق » قد أغرى سُفَهاء السفّاحين بتعمُّدِ قَتْلِ بعضهم غِيلةً أو جَهْرةً ، لا أستبعد ، والله أعلمُ أىُّ ذلك كانَ . فكانَ السببُ الأكبر الدافِع إلى هذا السطو الجائح ، هو أن يحولوا بين « بقايا البقايَا » من تلامذة أئمة « اليقظة » الثلاثة الكبار ، وبين أسباب « اليقظة » ، وهى الكُتُب النفيسة ، وأن يتركُوهم فى خَرِبة القاهرة حَسْرَى حيارَى حيرةَ « الجبرتىّ » الصغير المؤرخ ، حين شرع فى تأليف تاريخه ، فافتقد كتب « التاريخ » التى « ذهبت بقايا بقاياها فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم » ، أو كما قال . حسرةٌ قاتلةٌ ، ولكنّ حياتنا

الأدبية ، أو نهضتَنا الحديثة ، كما يسمُّونها ، لا تلقى بالاً إلى حسرةِ مسكين بائسٍ حائر كالجبرتىّ الصغير !

• وُئِدت « اليقظةُ » أو كادتْ ، وخُرِّبت ديارُها أو كادتْ ، واستُؤْصِلت شَأْفَةُ أبْنائها أو كادت ، واقتُلِعت أسبابُها بالسَّطو أو كادت ، والحمدُ لله على نَعْماءِ « الحملة الفرنسية » التى كان سفَّاحُها المُبِيرُ « المتحضِّر ! » ينوى أن ينشىء لبقايا السَّيف والتدمير من أبناء القاهرة العتيقة المهدَّمة « قاهرةً جديدةً » ، يستمتعون فيها بجمالها وفنونها ، ومسارحها وملاهيها ، وقُصورِها ومتنزَّهاتها ، ويتبخترونَ فى شوارعها خَدَماً فارِهين للسَّادة الأَحرارِ أبناءِ « الحريَّة والإخاءِ والمساواة » !

لقد شغلتنى قصَّة وَأْد « اليقظة » وقصّة الخرابِ والتدمير ، وقصة السَّطوِ الدنىء = شغلتنى عن نذالة هذا السفّاح الصليبىّ المُبير ، وما كانَ من بشاعة سفحه الدّماءَ فى القاهرة ، وأوامِره إلى قُوَّاده فى الأقاليم أن يُوغلوا فى سَفْك دماءِ « التُرك » ، أى المُسلمين المصريين ، وأن يتشبَّهوا به ، إذ يقتل فى القاهرة وحدها كُلَّ يومٍ خمسة أو ستةً ، ويأْمُر أن يُطَاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، ويقول : « هذه هى الطريقة الوحيدةُ لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجِّهُوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ، [1] فى قصة طويلة فظيعةٍ ليس لها شبيهٌ ، هى أفظَعُ من بلايا « جنكيزخان » .

... وشغلتنى أيضاً عن « جهاز الاستشراق » ، وهو الجهازُ المستكنُّ فى أحشاء « جهاز الاستعمار » و « جهاز التبشير » ، يَرْبَأُ لهما ويهديهما الطريق ، (« يربأ » ، يَرْقُب من

---

(١) اقرأ أخبار ذلك كله فى كتاب الرافعى : « تاريخ الحركة القومية » ١ : ٢٨٣ وما بعدها . والذى قرأت هنا من نص بعض رسائل نابليون إلى قوّاده فى يوليه سنة ١٧٩٨ .

مكان عال ويتطَلّع) ، ولولاه لاستبهمت عليهما المسالك وهامَا فى أودية الضلالِ . كان هذا الجهازُ الخبيث المتخفّى فى عباءَةِ العلم والبحث ، قد اكتسب خبرةً واسعةً جدًّا بدار الإسلام وأهلِها وسكانها ، منذُ انساحَ فى قلب دار الإسلام فى تركية وهو يدبُّ مستخفياً فى أرجائها ، ثم فى الشام ومصر وجوف إفريقية وممالكها المسلمة ، (اقرأ ما سلف : ٥٣) = ومنذُ مُقَامه فى دار الإسلام فى الهند أكثرَ من مئة وخمسين سنة ، فى ظِلّ الشركتين الكبيرتين : « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، و « شركة الهند الشرقية الفرنسية » ، وغيرهما من « شركات » دول المسيحية الشمالية ، (اقرأ ما سلف : ٨٧ ، ٨٨) . كانت خبرةً متغلغِلَةً بجماهير الأمّةِ مجتمعةً ، ثم بطوائفها المختلفة ، ثم بأفرادِ رجالٍ بأعيانهم واحداً واحداً ، معروف الاسم والمكانِ والحركة . كانت خبرةً بمواطن الضعف والقوّة ، وبِمَكَامن الهوَى الميَّال الذى يستجيب ، والإرادة المصمّمة التى تمتنع عن الاستجابة ، أى كانت خبرةً مدروسةً منظّمةً واضحةَ المعالم فى ذهن « الاستشراق » . ومع تطاوُل السنين عليه ، اكتسب لنفسه أعواناً من اليهودِ وشُذَّاذِ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، يستأجرهُم لتوسيع رُقْعة خبرته تارةً ، ولبثِّ أفكارٍ مدروسة بين جماهير دار الإسلام خاصّتها وعامّتها ، وللتحكُّم فى تصريف أموره وبلوغ غاياته تارةً أُخرى = ثم للتمكُّن من إشعالِ نارِ الفتنة حين يقتضى الأمرُ إحداثَ فِتنٍ تفرِّق شَمْل الناس وتمزِّقهم وتشغَلُهم عن الكيد الخفىّ الذى يُرَاد بهم . كُلُّ هذا كان يتمُّ فى هدوءٍ وصبْر وتستُّرٍ ، ومن وراءِ الغَفْلةِ ، غفلةِ أهل دار الإسلام عن جذور قَضيَّتهم ، وعن حقيقة هذه الأشباح الغريبة التى تتجوَّل فى الطرقاتِ والشوارع فى كُلّ زىّ : زِىّ التاجر ، وزىّ السائح ، وزىّ الباحثِ المنَقّبِ ، وزىّ العالم الذى لا يشغلُه شىءٌ غيرُ العلم ، وزىّ المُسْلم الذى رضى بالله ربًّا وبالإسلام ديناً !! (اقرأ ما سلف ص : ٥٣) .

فالحملةُ الصليبيّة الفرنسية التى استجابتْ لنذير « الاستشراق » ، كان « الاستشراق » مستكنًّا فى أحشائها وأحشاء قائدها العظيم « نابليون » ، يُرشدُهُ « الاستشراقُ » ويهديه . وهى لم تُقْدِم على اختراق دار الإسلام فى مصر ، إلاّ وهى مُزَوّدة بأدقّ التفاصيل عن هذه الأرضِ وسُكَّانها ، ومداخلها ومخارجها ، ومشايخها وعلمائها ، وعامَّتها وسوقتها ، ونسائها ، ورجالها ، وجيشها وشعبِها . جاءتْ ومعها الدَّجّالون العُتَاةُ « علماءُ الحملة الفرنسية » ومستشرقوها وخبراؤها وأعوانُها من اليهود وشذَّاذ الآفاق ، وكُلُّهم يدٌ واحدةٌ على إحداثِ انبهارٍ مفاجىءٍ يصدِمُ وَعْىَ الشعب خاصّته وعامَّته صَدْمةً تذهِلُه عن المكر المَسْتور المُفْضِى إلى تدمير رُوح المقاومة أو إضعافها إضعافاً يُتِيح للغُزَاة تثبيتَ أقدامهم فى الأرض والسَّيْطرةَ عليها سيطرةً كاملةً ، حتى لا تَدَعَ للمقاومةِ طريقاً إلا طريق الاستسلامِ العاجز للمصير المُظلِم ، مَصِيرٍ مُعْتِمٍ لا يستفيقُ الشعبُ إلا وهو مُرْتَكِسٌ فى ظلمائِه عاجزاً غير قادرٍ على طلبِ المخرج من ظُلُماتها المدلهمّة ، فى « قاهرة جديدة » زاهرةٍ زاهية الألوان ، قامت على أنقاض « قاهرة قديمةٍ » مدَمّرةٍ غابت فى قَتامِ الذكريات !!

● كانَ أوَّلَ الطريق إلى هذا المصيرِ المُظْلم إنشاءُ « الديوان » ، [١] وليس يعنينى هنا من أمرِه شىءٌ إلاّ خَبْؤُهُ المدفُونُ فيه ، والخُدْعة التى ينطوى عليها ، فيما تصوَّره « الاستشراق » . وهذا « الديوان » ، أمر بإنشائه نابليون منذ أول يوم دخل فيه القاهرة ، (الثلاثاء ١٠ صفر ١٢١٣ / ٢٤ يوليه ١٧٩٨) ، وذكر فى أمر إنشائه أسماءَ مشايخ

(١) « الديوان » صورة هزلية « لحكومة دستورية ! » ، كما يتوهَّم الرافعى ! ، تحكمُ القاهرة ، وكان لكل مدينة أخرى ديوانُها الحاكم ، وتستطيع أن تقرأ هذه المهزلة فى « تاريخ الجبرتى » ، أو فى « تاريخ الحركة القومية » للرافعى ، ولكن اقرأها بعين عربيةٍ بصيرة ، لا بعين أوربية تخالطها وطنية قومية ، كما فعل الرافعى وغيرُه .

بأعيانهم يتكوّن منهم « الديوان » . وهذا الذكرُ المفاجىءُ وحدَهُ دليلٌ على أن الأمرَ كانَ مُعَدًّا إعدادًا كاملاً قبل أن تطأ قدمُه أرض مصر ، وأنّ الأسماء قد آختيرتْ بَعدَ تدبيرٍ مُحكَم ودراسةٍ قام بها « الاستشراق » وأعوانُه منذ فكر فى شَنِّ الحملة على مصر . وقاعدة اختيارهم : « أن يكونوا من أعيانِ البلادِ الذين امتازوا بمركزهم العلمىّ وكفايتهم ، وطريقة استقبالهم للفرنسيين » . [1] ومعنى ذلك أنّه يريدُ أن يُودِع سُلطة الحكومة الظاهرة المموّهَة ، فى يد فئة ذات هَيْبَةٍ عند الناسِ ، وأن يكونوا جميعاً ممّن يُمكن أن يستجيبُوا بشكلٍ مَّا استجابةً تدين بالوَلاءِ لجيشه الغازى ، ليروِّضَ بهم قُوَى المقاومة ويخدعَها ويفتَّ فى عَضُدها . وهذا شيءٌ لا يُقْدِم على مثله بهذه السرعة ، إلا بعد خِبرة سابقةٍ بأصحاب هذه الأسماءِ وبمواطن ضَعْفِهم التى تقعدُ بهم عن المقاومة ، وتُسوِّل لهم أن يُحْسِنوا «استقبال الفرنسيين » الذين انتهكوا حرمة ديارهم وأوطانهم . ولا سبيل إلى معرفة ذلك كُلِّه إلاّ عن طريق جهازٍ مدرّبٍ قد طال عَهْدُه باختبارِ النَّاس وتقصّى أحوالهم من قريبٍ . وهذا الجهاز هو « جهاز الاستشراق » الذى كان يعرف لغة أهلِ البلاد ، والذى كان يتجوّل فى الأرضِ المصريّة من قبلُ ويلبسُ لأهلها كُلَّ زيّ ، كما حدثتك آنفاً . وكُلُّ المنشورات التى كان أصدرَها هذا المكيافلّى ، لِتُلْقَى وتذاعَ على المصريين مُنذ أوّل دخوله أرض مصر ، تدلُّ صياغتُها على أنّ صاحبها وصاحبَ مَضْمونها له خِبرةٌ طَويلةٌ بألفاظ أهل الإسلام ، وبعقائدهم ومشاعرهم . فبيِّنٌ أنَّ صاحبَها هو « الاستشراقُ » لا غيرُ ، وهو يظنُّ أنه قادرٌ بتمويهه ومكره ومداهنته ، أنّه بهذه الصغائر السَّخيفة قادرٌ على أن يخدعَ أُمةً كاملةً عن قتال عَدُوِّها الغازِى ، فكان ردُّ الأمة على هذا الخداع السخيف والتمويه الساذج بألفاظ أهل الإسلام = ثم على خديعة « الديوان » الفاضحة ،

(١) « تاريخ الحركة القومية » ١ : ١٠٤ .

هو اندلاع الثورات فى أقاليم الوجه البحرىّ والصعيد ، وأكبرها ثورةُ القاهرة وأحيائها فى يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) ، أى بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض دار الإسلام بجحافله وعُدَدِه ، فارتكب فى قَمْعها من القسوة والتدمير وذبْح الرجال والنساء أيضاً ، وسَفْح الدماء الغزيرة ما ارتكب ، ولكنّه نَذَر وأَوْفَى بنَذْرِهِ أن يَزِيدَ ، فيُضَحِّىَ عند مَشْرِق كُل شمس بخمسة أو ستة ، تُقْطَع رؤوسهم ويُطاف بها فى أنحاءِ القاهرة ، كما أسلفت (ص : ١٠٠ تعليق : ١) . ولا شكَّ عندى أنّ هؤلاء الخمسة أو الستة هُمْ من طُلاّب العلم فى الأزهر ، ومن المحرِّضين على مقاومة هذا الغازى المنتهك لحرمة دار الإسلام = وأنّ « الاستشراق » هو الذى كان يقدِّمهم لهذا الجزّار المُشْمَعِلّ ، (أى السريع النشيط) ، وأنه كان يتخيَّرهم له ، لأنه كان على معرفة سابقة بهم ، وأنهم كانوا من الطلبة النابهين من ورثة « الجبرتىّ الكبير » و « الزَّبيدى » ، أى أنهم كانوا من طلائع « اليقظة » التى جاءت الحملة الفرنسية قبل كُلِّ شىء لوَأْدِها فى مهدها . وإلا فحدِّثنى ما كان معنى اختصاص خَمْسةٍ أو ستة بالذَّبح عند مَشْرِق كُلِّ شمس ، وهذا هو وجنودُه يعيثُون فى الأرض ويذبحون المئات من صَنَاديد المقاومة ومَغَاوير ثورة القاهرة ؟ ورحم الله « الجبرتىّ المؤرخ » ، فإنه سقط عَنْه فى كتابه أن يقيِّد لنا أسماء القتلى ، وصِفَاتهم ، وأسماءَ هذه الذبائح الذى كان يُضَحِّى بها جزّار القاهرة . « لعلَّ لَهُ عُذْراً وأنتَ تلُومُ » !

• كان « الاستشراقُ » كامناً فى أحشاء نابليون . هو الذى يُوَجِّهه ويلقّنه ويدرِّبُه على أساليب المداهنة التى يظنُّ أنها تروجُ على أهل دار الإسلام ، وكان رأس الاستشراق فى الحملة الفرنسية هو « فانتور » المستشرق الداهيةُ المحنَّك المتستِّر الخفِىُّ

الوطءِ ، [1] (انظر ما سلف ص : ٩٣) ، كان خليلَ نابليون ونَجِيَّهُ الذى لا يفارقُه فى الحَلِّ والتَّرْحَال ، فهو الذى أوحَى إليه ما أوحَى ، وأوهَمهُ أن « تدجين » المشايخ الكبارِ من رجال الأزْهر فى « الديوان » = (« التدجين » ، الاستئناس ، من قولهم « داجنٌ » لكل ما يألف البيوتَ من طائر أو بهيمة مستأنسة) = ضمانٌ كافٍ لكسب ثقة جماهير دار الإسلام فى مصر حتىّ تستكين لَه وتخضَعَ ، وظَلَّ هذا الوَحْى الجاهل الساذجُ كامناً فى أحشاء الجزّار ، ولم تعظْهُ ثورةُ القاهرة والأقاليم بعد ثلاثة أشهُر من مَجيئه ، ولا وَعَظته هزيمَتهُ فى « عكّا » ، فإنّه بعد فراره بنفسِه من مصيرٍ محتومٍ ، كما أسلفت (انظر ص : ٩٤) كتب رسالته إلى « كليبر » كَبْشِ الفداء (!!) يقول له فيها :

« يجبُ أن تحذرَ رُوحَ التعصُّب وتُنَوِّمها إلى أن تتمكّنَ من استئصالها . إذا حُزْت ثقة كبار مشايخ القاهرة ، فإنَّكَ تجمع حولكَ أفكارَ مصر بأجمعها ، وأفكار كُلِّ زعيمٍ من زعماء الشعبِ . لا شيءَ أقلُّ خَطَراً من المشايخ الذين يرهبونَ القتالَ ولا يعرفون طُرُقه ، ولكنهم مثل القسيسين ، يُوحون بالتعصُّب ، دون أن يكونُوا هم أنْفُسُهم متعصِّبين » . [2]

ومسكينٌ هذا الجزّار ، فإنَّ تدجِينَ المشايخ الكِبارِ فى « الديوان » ، لم يمنع الثَّورة أن تقوم ، وذلك لأن « المشايخ الكبار » لهم عند عَامَّة المسلمينِ ، هَيْبَةُ العلم ، وطاعتُهم

---

(١) قضى « فانتور » أربعين سنة يتجوّل فى دار الإسلام قبل أن يلتحق بالحملة الفرنسية ، قال عنه الجبرتىّ : « كان لبيباً متبحرّاً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطليانى والفرنساوى » ، تاريخ الجبرتى ٣ : ٦٨ ، وسماه « فنتوره » .

(٢) هذا من نص ترجمة الرسالة كاملةً فى كتاب أحمد حافظ عوض ، (فتح مصر الحديث : ٤٠٩ ، ٤١٠) ، أمّا الرافعى فى « تاريخ الحركة القومية » ، (٢ : ٩٧ - ١٠١) فإنه بعثر الرسالة بعثرةً مفسدةً ، لينزع منها سُمَّها ، غفر الله ذنوبه ، وسيأتى بعد قليل ما هو أشنع من هذا من فعل الرافعىّ .

واجبةٌ علينَا فيما هو طاعةٌ لله ولرسوله ، ولكن هيبةُ العلم ليست بمانعةٍ جماهيرَ الأمَّة من عِصْيانهم وتَرْكِ طاعتهم إذا هُمْ خالفوا صريحَ أوامِرِ الله وأوامر رسوله ﷺ بقتال الغُزَاة لدار الإسلام ، فإن قتَالَ الغزاةِ عند المسلمين واجبٌ وفرضُ عينٍ على كُلِّ قادرٍ على القتالِ ، إلاّ فى حالةٍ واحدة : إلاّ أن يخافُوا أن يَصْطَلِمَهم العدوُّ لقلَّة عددهم وكثرةِ عَدَدِ العدوِّ ، (« اصطلمهم العدوّ » ، استأصل شأْفتَهم وأبادهم) ، فجائزٌ عندئذٍ أن يُلْقُوا إليهم السَّلَمَ ، (« ألقى إليه السَّلَم » ، استسلم له وصالحه) ، بَيْدَ أنّ فى قتالهم الشهادة ، وهى إحدى الحُسْنَيين ، (« الحُسْنيان » ، النصر أو الشهادة) . وفى حالةِ هذا الجزَّار ، أنَّ جيشَهُ قِلَّة فاجرةٌ تغزو كثْرةً مسالمةً تَفَرَّق عنها حُمَاتها من جَيش المماليك المصرية ، فصارَ واجباً على الكثرة أن تقاتل هذه القلَّة بكُلِّ سلاحٍ ما استطاعت إليه سبيلاً . ولذلك لم تستمع الأمَّةُ عامَّتُها وخاصَّتُها للمشايخ المُدَجَّنين فى « الديوان » لمهادنة الغازى ، واستمعت لصِغَار طلبة العلم فى الأزهر الذين رفضُوا نصيحةَ المشايخ الكبار بمهادنة الفرنسيين . رفضوها طاعةً لله ولرسوله ﷺ ، وقامت ثورةُ القاهرة والأقاليم . وموقف « المشايخ الكبار » له تفسيرٌ ليس هذا مكانه الآن ، ولكنهم ضَعُفُوا وجَبُنوا وأخطأوا على كُلِّ حالٍ (اقرأ الفقرة الآتية رقم : ٢٢) .

وأرجِّح أن هذا الجزَّار وشيطانَهُ المستشرقَ « فانتور » ، لم تنفعهما عِظَةُ ثورة القاهرة وهزيمة « عكَّا » ، لأن غباءَ « الاستشراق » وغَطْرسته وتعاليه لم تمكِّنْهما من فهم هذه الحقيقة التى دلَّت عليها الثورة الجائحة التى هدّدت مَصير الحملة الفرنسية وحدَّدته تحديداً ظاهراً أدّى إلى أن يلوذَ جَزَّارها بالفرار ، تاركًا مَصِير حملته وخليفتِه « كليبر » للمقادير تَقْضى فيهما قضاءَها . لم يفهم هذان العِلْجانِ ، (« العِلْجُ » الرجل الشديد من العجم) ، هذه الحقيقة على صورتها الصحيحة ، فسمَّياها « تعصُّباً » ، مع أنها إحدى

البدائه المسلَّمة ، لأن دفع عُدوان الغازى وكراهيته حقٌّ طبيعىٌّ لكُلِّ جماعةٍ من البشر يغزوها غازٍ فى عُقْرِ ديارها ، بديهةٌ مُسَلَّمة بلا رَيْبٍ = وأخطآ أيضاً فى تشبيه مشايخ دار الإسلام بالقِسّيسين فى ديار المسيحية الشمالية ، لأن المشايخ لا حُرِّيَّةَ لهم وَراءَ الكتاب والسُّنَّة ، والأمّة كُلُّها مطالبَةٌ أنْ تحاكِمهم بما يوجبُه الكتاب والسّنة . أما القسّيسون فإليهم وحدهُم الحكْم المطلقُ بآرائهم ، ليس لأحدٍ من رعاياهم أن يسائلهم ، وليس فى أيدى رعاياهم شىءٌ يحاكمونهم إليه ، وإنما هى الطاعةُ المُصْمَتَةُ لحُكمِ الرهبان والقسيسين . وهذا فرقٌ ظاهرٌ بين رعايا الإسلام ورعايا المسيحية ، لا يَعْمَى عنه إلا « مستشرقٌ » ، وجزَّارٌ .

● أيقنَ الجزّارُ وشيطانُه « فانتور » أن تدجينَ المشايخ الكبار فى « الديوان » قليلةٌ جَدْواه فيما كانَا يُؤمِّلان من طاعة الجماهير وخضوعها ومُهَادنتها للغُزَاةِ . أرّقتهما خَيْبَةُ الأمل فى تدجين المشايخ ، فلمّا خرجا إلى سورية لتَدْويخها وطال حصارُ « عكّا » ، وأَيْقنا بأخَرَةٍ أنّ الدائرة ستدور عليهما وعلى جيشهما = أَيْقنا أيضاً أنّ محاولة اختراقِ دار الإسلامِ بالسلاح كانت زلَّةً لا تُقالُ عَثْرتُها ، ولكن لا سبيل إلى التراجُع . وكُلُّ الدلائل كانت تدُلُّ على أن دار الإسلام فى مصر = بعد تمزُّق جيش المماليك المصرية ، وهم حُماةُ مصر = قد بدأت تُخْرِجُ من غِمَار الجماهير المصرية جيشاً جديداً قادراً على الفَتْك بالحملة القليلة العَدَد ، وإن كانت مُزوّدةً بأحسَنِ العُدَد . ومع ذلك لم ييأس الجزَّارُ المغرورُ أنْ تجرى المقادير على وَفْقِ آماله ، وعَسَى ولعلَّ ، فربَّما كانت الغلبةُ لهذه القِلَّة المزوَّدة بما ليس فى أيدى الجماهير الكثيفة مِثْلُه من سلاحٍ متفوّق . عسَى ولعلَّ ، وبَيَّتا النِيَّة على هذا الأمل ، وبحثا عن وسيلةٍ أخرى يُقدِّرانِ أن تكون أبلغَ أثراً ، وأجدَى فى السيطرة على الجماهير الكثيفة . وانتهى حصارُ « عكّا » بالهزيمة الفادحة ، (انظر ما سلف

ص : ٩٣ ، ٩٤) ، وتخلَّى عن الجزار شيطانُه ، وهلك « فانتور » فيمن هلك من قُوَّاده وعلمائه ومستشرقيه والآلاف من جُنده الغزاة ، وعاد إلى مصر كاسفَ البال ، ثم رحل عنها بعد قليلٍ إلى فرنسا ناجياً بحُشَاشَةِ نَفسِه من مَصيرٍ كان كأنّه يراهُ ماثلاً عياناً . ولم يكد يستقرُّ حتى أرسل إلى « كليبر » ، خليفته على مصر ، رِسالةً طويلةً مُتفاوتةً مضطربةً عجيبة الاضطراب ، ليسكِّن رَوْعَ « كليبر » ويسدِّدَ خُطاهُ فى سياسته فى مصر !! والذى يهمُّنى هنا من هذه الرسالة [1] = وقد اقتبستُ منها آنفاً ، (ص : ١٠٥ / تعليق : ٢) = ما جاء فى خواتيمها ، وهو قوله لكليبر ، (هذا النص من ترجمة حافظ عوض) :

« ستظهر السُّفُنُ الحربيّة الفرنسية بلا ريبٍ فى هذا الشتاء أمام الإسكندرية « أو البُرُلُّس أو دمياط . يجب أن تبنى برجاً فى البُرُلُّس .

« اجتهدْ فى جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصٍ من المماليك ، حتّى متى لاحت السفنُ « الفرنسية تقبضُ عليهم فى القاهرة أو الأريافِ وتسفِّرهم إلى فرنسا . وإذا لم تجد عدداً « كافياً من المماليك ، فاستَعِضْ عنهم برهائن من العرب ومشايخ البُلْدَان ، فإذا ما وصلَ « هؤلاء إلى فرنسَا يُحْجزُون مدةَ سنة أو سنتين ، يشاهدون فى أثنائها عظمة الأمّة « (الفرنسية) ، ويعتادونَ على تقاليدنا ولُغَتنا ، ولمَّا يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم « حزبٌ يُضَمُّ إليه غيرهم .

« كُنْتَ قد طلبتَ مراراً جوقة تمثيلية ، وسأهتمُّ اهتماماً خاصًّا بإرسالِها لك ، « لأنها ضرورية للجيش ، وللبَدْءِ فى تغييرِ تقاليد البلاد » .

***

(١) ينبغى دراسة هذه الرسالة بعناية ، وبنظر صحيح غير النظر الذى ذهب إليه الرافعىّ فى كتابه .

• وقبلَ كُلِّ شيءٍ ، ينبغى أن أقطع سِياق الكلام ، لأقف بك على ضرب شَنيع من ضروب فساد حياتنا الأدبية وتلوُّثها بالأهواءِ الغالبة التى تستخفى ، ثُمَّ تستهين بعقلى وعقلك . فأوّل من وقف على هذه الرسالة أحمد حافظ عوض فى كتابه « فتح مصر الحديث » (ص : ٤٠٧ - ٤١١) فقال :

« وهذا الكتاب (يعنى الرسالة) محفوظٌ بالنصّ الأصلىّ فى وزارة الحربية الفرنسية (وثيقة نمرة ٤٣٧٤) ، ولأهمية هذا الخطاب ، وعدم وجود أثرٍ له فى اللغة العربية ، رأينا أن نأتى على تعريبِه بدقّةٍ وإتقان » ، ثم ساق نص الرسالة . وكتاب أحمد حافظ عوض منشور فى سنة ١٩٢٥ ، فجاء الرافعى ، غفر الله له ذنوبه فى ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، فذكرها فى كتابه « تاريخ الحركة القومية » (٢ : ٩٧ - ١٠١) ، أى بعد أربع سنوات ، فقال :

« أما رسالته (نابليون) إلى الجنرال كليبر ، فهى وثيقة على جانبٍ عظيم من الأهمية ، كتبها بإمعانٍ وتفكير ... وهى رسالةٌ مطوّلة أشبهُ بتقرير وافٍ ، لذلك رأينا أن نعرِّبها مع شىءٍ من الشرح والبيان » .

وألغَى ذكر أحمد حافظ عوض وكتابِه وترجمته ، مع أنه يعرف الكتابَ وصاحبه بلا شكٍّ عندى أنا خاصّةً ، [1] واستأنف للرسالة ترجمةً جديدةً ولم يَسُقْها متكاملةً ، بل بعثرها وقطّعها وجزّأهَا فى نحو خمس صفحاتٍ من كتابه ، استناداً إلى ما سماه شرحاً وبياناً . فلما جاء عند النص الذى نقلته لك آنفاً ، قال ما يأتى :

---

(١) بل أقول لك : إن كتاب الرافعى إنْ هو إلا تطبيق للبرنامج الذى وضعه أحمد حافظ عوض لتأليف كتابٍ فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر . اقرأ مقدمة كتاب « فتح مصر الحديث » تعلم أنه هو الذى سنَّ للرافعى الطريق بلا شكٍّ ولا ريبة ، ومع ذلك فلم يذكره الرافعى بكلمة واحدةٍ فى مقدمته أو فى كتابه !

« وتعرَّضَ فى رسالته إلى مشروعات استعمارية ومسائل ثانوية لم يفُتْه التفكير فيها
« فى تلك الأوقات العصيبة ، فأوصاهُ باعتقال خمسمئة أو ستمئة من المماليك أو من
« رهائن العرب ومشايخ البلاد (العمد) ، وإرسالهم إلى فرنسا ، فى حالة استئناف
« المواصلات البحرية ، ليبقوا بها سنة أو سنتين ، وغايةُ نابليون من ذلك : [أن يروْا عظمةَ
« الأمة الفرنسية ، ويقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ولُغَتنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا
« هذه المقتبسات بين مواطنيهم] .

« ثم وعدَ الجنرال كليبر بأن يرسل له فرقةً من الممثّلين كان قد أوصى عليها من قبل
[لتسدّ حاجة الجيش ، ولتألف البلادُ شيئاً جديداً من العادات الغربية] » .

والاختلاف بين النصَّين بيِّنٌ جدًّا ، ودِلالة أحدهما غير دِلالة الآخر ، ومعناهُ غير معناه . فرقٌ بين : « يعتادون على تقاليدنا ولغتنا ، ولمّا يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليهم غيرهم » = وبين : « يقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم » ، لأنّ الأوّل دالٌّ على أنه يريدُ أن يَسْتفسدهم ويَبْهرهم ويَعِدهم ويمنّيهم ، ويكوّن منهم فى مصرَ حزباً تحت سيطرته يكونُ نواةً لحزبٍ أكبر منه . فهذه سياسة متبعة مؤسسة على مكيافليّة نابليون = أمّا الثانى فإنه ينزعُ سَمَّ هذه العبارة ، ويجعل الأمر كُلَّه أمر « اقتباس » من عادات فرنسا وأفكارها وأخلاقها ولُغتها ، ونشر ما يقتبسونه بين المواطنين المصريين ، وهذه مجرّد أمنيَّة ساذجة تكون أو لا تكون .

وكذلك القول فى قوله فى شأن فرقة الممثلين . فَرْقٌ بين : « إنها ضرورية للجيش ، وللبدء فى تغيير تقاليد البلاد » ، وبين : « لتسدّ حاجة الجيش ، ولتألف البلادُ شيئاً جديداً من العادات الغربية » ، فالأوّل دالٌّ على غَرَضٍ مقصودٍ لذاته هو « تغيير تقاليد البلاد » ،

فهذه أيضاً سياسة مكيافلية = أمّا الثانى فإنه ينزعُ أيضاً سمَّ العبارة ، ويجعلُ الأمر كُلّه مجردّ عرض شيءٍ جديد على الناس حتى إذا استحسنوه أَلِفوه ، وهذه مجرّد أمنيَّة ساذجة تكون أو لا تكون . هذا كُلُّه فضْلاً عن مقدِّمة الرافعى التى تجعل هذه السياسة المكيافلية الخبيثة ، مجرد مسألة ثانوية لا خَطَر لهَا ، يا سبحان الله !!

فنصُّ ترجمة أحمد حافظ عوض أولى بالثقة من نصّ ترجمة الرافعى ، وأدَلُّ على سياسة جزّار القاهرة ومدَمِّرها ومُفْسدِ أخلاقِ الشذّاذِ من أبنائها مدةَ إقامة جيشه فيها . وليس النصُّ الفرنسيُّ بين يدىَّ الآن ، ولكنّى أرى فى أوّلهما الأمانةَ وسلامةَ الطويّة ، وفى ثانيهما تركَ الأمانة وتبييتَ النيَّة على نزع سمِّ العبارة إكراماً لنابليون العظيم !! مع أن كلا الرجلين فى كتابيهما كان كاتباً مُدَجَّناً ، وكان صَغْوُه ، (أى مَيْله) إلى نابليون العظيم !! وإلى فرنْسا مصدرِ النُّور والتنوير !! وكما يقول المثل العامىُّ : « ما أسخم من ستّى إلا سِيدى » !

هذه بين يديك تقاليدُ حياتنا الأدبية الفاسدة فَساداً يستعصى على الإصلاح الشّامل السَّريع الأمين . وقبيحٌ جدًّا أن تتغاضى حياةٌ أدبيّةٌ عن مثل هذا القُبْح ، فضْلاً عن أن ترضاهُ ، فَضْلاً عن أن تتواصَى به حتى يكونَ سُنَّةً مَألوفة ، لا يكادُ ينكرها قارىء أو أديبٌ أو أستاذٌ ، وإلْفُ القبيح مَتْلَفَةٌ للإحساس والعقل جميعاً ، ولكن لهذا كُلِّه سببٌ واضِحٌ ، سوف أحدِّثك عنه فى الفقرة التالية :

* * *

٢٢ – لمّا مضى مئتا عامٍ على فتح القسطنطينية ، حصن المسيحية الشمالية الشامخ فى يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، غرقت دار الإسلام فى غفلة هائلة شاملة أحدثتها الغرور بالنصر القديم على المسيحية الشمالية ، وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية وتدفُّق جيوش دار الإسلام فى قلب أوربة ، وعَمِيَتْ دار الإسلام يومئذ عن اليقظة الهائلة الشاملة التى أحدثتها الهزائم القديمة

والحديثة فى ديار المسيحية ، والتى قامت على الإصرارِ والمجاهدة والمثابرة وإصلاح خَلَل الحياة المسيحية الشمالية ، حتى آنفكّت عنها أغلالُ « القرون الوسطى » بَغْتَةً ، وانبعثت نهضة « العصور الحديثة » ، فارتفعت كِفَّةُ المسيحية الشمالية ، وانخفضت كِفّة دار الإسلام ، وبدأت « المرحلة الرابعة » للصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٤٣ — ٤٥) .

ويومئذ تحدَّدت أهداف المسيحية الشمالية ، وتحدَّدت وسائلها ، ولم يغِب عن أحدٍ منهم قطُّ أنهم فى سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية رابعة ، لا بقعقة السلاح ، وما هو إلا سلاحُ العمل والعلم والتفوُّق واليقظة والفهم والتدبير ، ثم الصبرُ والمكرُ والدهاء واللينُ والمداهنةُ وتركُ الاستثارة ، استثارةِ عالم ضَخْمٍ مجهولٍ ما فى جوفه ، ولا قِبَل لهم بتدفُّق أمواجه الزاخرة ، والتى كان « الترك » الظافرون طلائِعَها الظاهرةَ لهم عِياناً فى قلب أوربة ، (اقرأ ما سلف : ٤٦ — ٥١) . وبدأ الزحف البطىء المتتابع الخفىّ الوَطْءِ يَخْترق دار الإسلام فى تركية والشام ومصر والجزائر لابساً كل زِيّ : زِيَّ التاجر ، وزِيَّ السائح ، وزيَّ العالم الباحث ، وزيَّ المسلم طالب العلمِ ، وعلى الوجوه البشر والطلاقة والبراءة ، وفى الألسنة الحلاوة والخِلاَبة والمماذَقَة . وعلى مرّ الأَيَّام والشهور والسنوات ، توغَّلوا زَرَافاتٍ ووُحْداناً فى قلبِ دارِ الإسلام يأخذون أهلَها من وراء الغَفْلة ، ويستخرجون كُلَّ مخبوءٍ كان عنهم من أحوال الخاصة والعامَّة ، والعلماء والجهلاء ، والحلماء والسفهاءِ ، والملوك والسوقة ، والجيوش والرعية ، ويرُوزون (أى يختبرون) القوّةَ والضعف ، والذكاء والغفلة ، وتدسَّسوا حتى إلى أخبار النساءِ فى خدورهن ، ولم يتركوا شيئاً إلا خبروه وعجمُوه ، وفتَّشوه وسَبَرُوه ، وذاقوه واستشفُّوه ، متعاونين متآزرين ، تحت رعاية « المستشرقين » حملةِ هموم المسيحية الشمالية ، وإرشادهم وتوجيههم ، (اقرأ ما سلف : ٥٣ — ٥٦ / ٨١ — ٨٦) .

• • •

مضت السُّنون و « الاستشراق » فى عَمَل دائب وتدبيرٍ متمادٍ ، وسياحةٍ فى دار الإسلام ، ولا يكفُّون عن إمداد ملوك المسيحية الشمالية بكُلّ ما علموا من أحوال دار الإسلام ، وما رأوهُ عِياناً فيها ، وما خبروهُ من الغفلة المطبقة على دار الإسلام ، فنشأت بفضلهم طبقة « الساسة » الذين صاروا يُعِدُّون ما استطاعوا من عُدَّةٍ لردّ غائلة الإسلام ثم قَهْره فى عُقْر داره ، وتحقيقِ الأحلام والأشواق التى كانت تُخامِرُ قلب كُلّ أوربىّ ، أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة فى دار الإسلام وما وراء دار الإسلام . وهذه الطبقة من الساسة هم الذين عُرفوا فيما بعد باسم رجال « الاستعمار » ، (اقرأ ما سلف : ص ٤٨ ، ٤٩) . فلما كاد القرن السابع عشر الميلادىُّ ينصرم ، كانت تركية لم تفقد بعدُ هيبتها فى قلوب ساسة المسيحية الشمالية ، ولم تنس ساسة فرنسا خاصةً الحربَ الصليبية السابعة المعروفة باسم « واقعة المنصورة » والتى انتهت بهزيمة الفرنسيين ، والتى هلك فيها ثلاثون ألفاً منهم ، وأُسِر فيها لويس التاسعُ ملكُ فرنسَا وطائفةٌ من ضباطه ، وجُعلوا فى « دارِ ابن لقمان » ، وتولّى أمر حراستهم الطواشِى « صَبِيح » ، وذلك كان فى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .

وفى أواخر القرن السابع عشر الميلادىّ ، أى بعد أربعة قرون ، كان أَوَّل من حرَّض فرنسا على اختراق دار الإسلام فى مصر ، هو الفيلسوف الرياضى الألمانى « ليبنتز » (جوتفريت فلهلم) (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) ، وكان قد التحق بالسلك الدبلوماسى ، وقضى أربعة أعوام فى باريس (١٦٧٢ - ١٦٧٦ م) ، فى بلاط لويس الرابع عشر ، فقدم إليه فى سنة ١٦٧٢ م تقريراً يحرّضه فيه على اختراق دار الإسلام فى مصر ، ويقولُ له فيه : « إنَّكم تضمنون بذلك بسط سلطان فرنسا وسيادتها فى بلاد المشرق (أى فى دار الإسلام) ، إلى ما شاءَ الله ، وتكسبون عَطْف المسيحية وتستحقُّون ثناءَها ، وهنالك لا تخسرون عطفَ أوربة ، بل تجدونها مجمعةً على الإعجاب بكم » ، فأَعْجَبْ

لفيلسوفٍ رياضّي ألمانيٍ لم تشغله رياضته ولا فلسفته عن تحريض فرنسا على غزو مصر ، لتكسبَ عطف المسيحية الشمالية وتستحقَّ ثناءها ، وتضمنَ بسط سلطانها على دار الإسلام إلى ما شاءَ الله !! ، وذلك قبل حملة نابليون بأكثر من مئة سنة .

كان تقرير « ليبنتز » الفيلسوف الرياضّى !! مَنْبَهةً لساسة فرنْسا على غَزْوِ دار الإسلام فى مصر ، وذلك بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، ولم يكن ذلك من « ليبنتز » عَفْو الخاطر ، بل كانَ عن مُتَابعةٍ واعيةٍ لملاحظات « المستشرقين » الذين كانوا يجوبون دار الإسلام ، ويُمِدُّون مثقَّفِى المسيحية الشمالية بما خبروه وسَبَروه من دخائل دار الإسلام فى مصر وغيرِ مصر ، لأن « المستشرقين » كانوا هم حملةَ هموم المسيحية الشمالية ، والمجاهدين المتبتِّلين فى سبيلها ، كما حدَّثتُك آنفاً فى مواضع متفرِّقة .

وظَلَّ هذا التحريض كامناً فى قلب ساسة فَرَنْسا منذ منتصف القرن السابعَ عشر ، وهو ينمو على الأيّام ، وينمو معه الإعدادُ لغزو دار الإسلام فى مصر . ومضت مئة عام حتى كان عهد لويس الخامس عشر ، وكبير وزرائه « الدوق دى شوازل » ، الذى طمع أن تحتلّ فرنسا مصر ، عن طريق المفاوضة مع تركية ، التى بدأت تضمحلّ قوّتها وهيبتُها ، والتى شَحِبَ سلطانُها على مصر وكادَ ينحلُّ ، ولكنه لم يفعل شيئاً حتى سقطت وزارته فى سنة ١٧٧٠ م . وجاء عهد لويس السادس عشر (سنة ١٧٧٤ م) ، وكان الكونت « سان بريست » سفير فرنسا فى الآستانة منذ سنة ١٧٦٨ م ، وأقام فيها ست عشرة سنةً يرقب اضمحلالَ تركية ، وكان شديد الاهتمام بدار الإسلام فى مصر ، فكتب غير مرةٍ إلى حكومته يحضُّها على احتلالِ مصر ، تحقيقاً لمطامع « دى شوازل » . فأوفدت الحكومة الفرنسية « البارون دى تُوت » ، المجرىّ الأصل الذى استوطن فرنسا ، أوفدته إلى تركية ، فلما عاد سنة ١٧٧٦ م ، قدّم تقريراً إلى الحكومة الفرنسية ، بأن تركية فى سبيل الانحلال لا مَحَالة ، ونصح الحكومة بالإقدام على احتلال مصر ، فأوفدته

الحكومة مرة أخرى إلى ثغور الدولة العثمانية ، وبدأ رحلته سنة ١٧٧٧ م ، فدرس سواحل مصر ومواقعها ، وقدّم تقريراً إلى الحكومة بيّن فيه مزايا احتلال مصر وسهولةَ تحقيقِ هذا الاحتلال . ثُم انتهت أيضاً سفارة « الكونت سان بريست » وعاد من الآستانة سنة ١٧٨٣ م ، فقدم إلى حكومته تقريراً ثانياً فى شأن احتلال مصر ، ونصح حكومته بأنّ ذلك يَكْسِبُ فرنسا مركزاً ممتازاً فى العالم . وفى هذا الوقت نفسه ، كان قنصل فرنسَا فى الإسكندرية المسيو « مُور » ، فقدم إلى حكومته تقريراً يتضمّن رأيه فى قرب تفكُّك السلطنة العثمانية ، وينصحها بضرورة احتلال مصر ، فجاء تقريرُهُ مؤيّداً لتقارير « دى سان بريست » و « البارون دى تُوت » ، ولكن الحكومة الفرنسية تردّدت ، ولم تأخذ بنصائحهم . احتفاظاً بسياستها حيال تركية ، القائمِ ظاهرُها على الودّ والصداقة ، وتَحَسُّباً ، للبوادر التى ظهرت مقدِّمةً للثورة الفرنسية .

وبدأت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، وانتهت بإعدام لويس السادس عشر فى يناير ١٧٩٣ م ، وتتابعت شكاوى التُّجار الفرنسيين المقيمين بمصر إلى حكومة الثورة ، يشكون ما أصابهم من سوء معاملة المماليك المصرية وما يَلْقَوْنه من العَنَتِ ، فعيَّنت الحكومة المسيو « شارل مَجَالُّون » قنصلاً عامًّا لفرنسا فى مصر سنة ١٧٩٣ م ، وكان « مجالون » هذا تاجراً فرنسيًّا أقام بمصر أكثر من ثلاثين سنة مشتغلاً بالتجارة ، [(١)] فأخذ يرسل إلى حكومته التقارير والمذكرات ، مبيِّناً فيها عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار الفرنسيين فى مصر ، ومصرِّحاً بأنَّ هذا العبثَ لا يمكن أن يزول إلاّ إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوةَ فى رَدْعهم ، وحرَّض حكومةَ الجمهورية على أن تتأهّب لاحتلال

---

(١) انظر أى خبرة يستفيدها هذا التاجر المثقف من مُقَامه فى دار الإسلام بمصر أكثر من ثلاثين سنة !! وهو بلا شك قد أجاد العربية ، بل لعله لم يدخل مصر إلا وهو عارف بالعربية ، وهو الأرجح ، أى هو فى حَيِّز « الاستشراق » بلا شك ، كما سترى .

مصر . وفى سنة ١٧٩٧ م ، ارتحلَ « مَجَالون » إلى فرنسا ، وأخذ يحضُّ رجال الدولة على احتلالِ مصر ، ويبيّن لهم المزايا التى تنالها حكومة الجمهورية بهذا الاحتلال . واقتنع المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسية بآراء « مجالون » ، هو ونابليون بونابرت ، فقدم تقريراً إلى حكومة الديركتوار ، ونصح الحكومة بإنفاذِ الحملة . فكان ما كان من حملة نابليون على مصر فى سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أى بعد تحضيض « مجالون » بسنة واحدة .

لم يكن « الاستشراق » غائباً طرفةَ عينٍ عن مقدِّمى هذه التقارير والمذكّرات التى رُفعت إلى الحكومة الفرنسيّة ، بل كان حاضراً حضوراً كاملاً ببديهة العقل ، لأنَّه صاحبُ الفضل الأوّل فى نشأة طبقة الساسَة الذين هم رجالُ « الاستعمار » ، والذين توجَّهوا كُلّ التوجُّه لإعداد العُدّة لاختراقِ دار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٤٩) ، و « الاستشراق » هو الذى كان يُمدُّهم بخبرته الواسعة المتمادية بأحوال دار الإسلام ، ولولاهُ ما عرفوا قَبيلاً من دَبيرٍ = ولأنَّه أيضاً كان دائم الحضور فى دار الإسلام أبداً ، يلاقى الخاصة من العلماء ، ويخالط العامّة من المثقَّفين والدهماء ، ويستخرجُ خَبْءَ ما فى هذه الدار من أحوال خاصته وعامته ، وعلمائه وجهاله ، وملوكه وسوقته ، وجيوشه ورعيته ، وكُلَّ دقيق وجليلٍ يوماً بعد يوم ، فى ملاحظةٍ واعية لا تغفُل ولا تنام ، (اقرأ ما سلف : ٤٨ ، ٥٣) .

ولو تأملَّتَ قليلاً تواريخ تقديم هذه التقارير والمذكرات ، منذ عهد « ليبنتز » سنة ١٦٧٢ م ، ثمَّ ما جاءَ بعد مئة عامٍ ، من طَمَع الدوق « دى شوازل » فى مفاوضة تركية فى أمر التنازل عن مصر لفرنسا فى سنة ١٧٦٩ م ، وبعده الكونت « سان بريست » والكونت « دى تُوت » وتقاريرهم منذ سنة ١٧٣٦ م إلى سنة ١٧٨٣ ، وبعدهما المسيو « مجالون » من سنة ١٧٩٣ – ١٧٩٧ ، قبل حملة نابليون بعامٍ واحد ، بل قبل ذلك أيضاً حضورُ طُلاّب الإفرنج ، (وهم المستشرقون) ، إلى مصر وقراءَتهم علم

الهندسة على الشيخ الجَبَرْتىّ الكبير فى سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م ، (ما سلف : ٨٣) = لو تأملتَ هذه التواريخ لرأيتها جميعاً واقعةً وقوعاً تامًّا فى عَصر يقظة دار الإسلام ونهضتها الصحيحة التى تولَّى أمرها الخمسةُ الكبارُ من رجالنا ، وهم : « البغدادىّ » فى مصر ، (١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٨٣ م) ، ثم « الجبرتىّ » الكبير فى مصر ، (١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) ، و « ابن عبد الوهاب » ، فى جزيرة العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، و « المرتضى الزَّبيدىّ » فى مصر ، (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م) ، و « الشوكانى » فى اليمن (١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م) ، (اقرأ ما سلف : ٨٢) . فهذه « النهضة » وهذه « اليقظة » ، لا يعرفُها على حقيقتها ، ولا يعرف مَغَبَّتها غير « الاستشراق » ، فيومئذ هَبَّ « المستشرقون » ، حَملةُ هموم المسيحية الشمالية ، هَبُّوا هبَّةَ الفزع ، وتسارعوا ينقلونَ كُلَّ صغيرة وكبيرة ، ووضعوه بيِّناً جليًّا تحت أبصار ملوك المسيحية الشمالية وأمرائها ورؤسائها وقادتها وساستها وعلمائها ورُهْبانها ، وبصَّروهم بالعواقب الوخيمة المخوفة من هذه « اليقظة » الوليدة ، وبيَّنوا لهم الخطر الداهمَ الذى جاءَ يتهدّدهم إذا ما تمّ تمام هذه « اليقظة » واشتدَّ عُودها ، واستقامت خُطُواتها على الطريق اللاحب = وأنَّهُ ليس للمسيحية الشمالية خِيارٌ سِوَى العمل السريع المُحْكَم ، واهتبالِ الغفلة المحيطة بهذه « اليقظة » الوليدة ، ومُعَاجَلَتها فى مَهْدها قبل أن يتمّ تمامُها ويستفحلَ أمرُها ، وتُصبحَ قُوّة قادرةً على الصراع والحركة والانتشار ، فإنه إن تَمَّ ذلك ، فما هو إلاّ أن تعودَ الحربُ بين الشمال والجنوب جَذَعةً ، وعندئذٍ لا يضمنُ أحدٌ مَغَبَّةَ الصراع المشتعل بين سلاحَين مُتكافئين ، وثقافتين مُتكاملتين . لا يضمنُ أحدٌ لأىٍّ الفئتين تكون الدُّولةُ والغلبة والسيادة . فَزِع « الاستشراق » لعلمه أنّ الفَرْق بيننا وبينهم كان يومئذ خُطْوةً واحدةً تُستَدْرَكُ باليقظة وبالهِمَّة والصبر والدَّأْبِ لا أكثر ، (اقرأ ما سلف : ٨٦ ، ٨٧) . وكما ترَى عياناً ، فإن « الاستشراق » هو عينُ « الاستعمار » التى بها يُبْصِر

ويحدِّق ، ويدهُ التى بها يُحِسُّ ويبطش ، ورجْلُهُ التى بها يمشِى ويتوغَّل ، وعقلُه الذى به يفكِّرُ ويستبينُ ، ولولاهُ لظلَّ فى عَمْيائه يتخبَّط ، (ما سلف : ٨٧) .

وقد حدثتُّك من قبلُ ، (اقرأ ما سلف : ٨٨ ، ٨٩) أنَّ نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدلَهِمّ الذى تهدّدهم به يقظة دار الإسلام كان نذيراً مروِّعاً حاسماً . أما إنجلترا فأسرع مستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، حيث قامَ « محمد بن عبد الوهاب » ، وبالدهاءِ والمكر والدسائس جاءت فى زِىِّ الناصر والمعين ، لتتدسَّسَ إلى يقظة « ابن عبد الوهاب » ، لتتَّخذ عندها يداً ، وبها تسيطر عليها وتحتويها ، ومن وراء ستار كانت تؤلِّب تركية وتؤلِّبُ جاراتها وتخوِّفهم ، لتطوِّق اليقظة تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . أما فرنسا التى طردتها إنجلترا من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فآبت إلى ديارها تلعقُ جراحَها ، وجعلت تُعِدُّ العُدّة وتفكِّر فى اختراق دار الإسلام فى مصر ، لوأْد « اليقظة » المخوفة العواقب التى بعثها « البغدادىُّ » . و « الزَّبيدىُّ » و « الجبرتىُّ الكبير » فى مصر ، فهى « يقظة » يُخْشَى أن تؤدِّىَ إلى يقظة دار الإسلام كُلِّها ، بما فيها اليقظة المتفجِّرة المتحركة الجديدة فى جزيرة العرب ، فإذا تمّ اندماج اليقظتين فلا يعلم إلاَّ الله كيف يكون المصير ؟

أظنُّه بات الآن منكشفاً لك كلَّ الانكشاف ، خَبْءُ العلاقةِ بين تواريخ « اليقظة » و « النهضة » يومئذٍ فى دار الإسلام ، وتواريخ التقارير والمذكّرات التى كتبها رجال « الاستعمار » من ساسةِ المسيحية الشمالية = وبات منكشفاً لك أيضاً كلَّ الانكشاف ، أنّه لولاَ خبرةُ « المستشرقين » حملةِ هموم المسيحية ورهبانِها المتبتِّلين الذى كانوا يجوبون دار الإسلام ويُقيمون فيها فيُطِيلون الإقامة ، ثم يُمدُّون هؤلاء الساسة بالملاحظات والمخاوِف ، لَمَا اتفقت هذه التواريخ هذا الاتِّفاق البيِّن الذى عَمِيْت عنه اليوم حياتُنا الأدبية الفاسدة كلَّ الفساد ، وألسنتُها الثرثارةُ المتشدّقة بأوهام « الأصالة

والمعاصرة » و « القديم والجديد » ، و « الثقافة العالمية » ، وبالقضية الهزليّة « قضيّة موقفنا من الغرب » ، على الصورة التى لا يزال يردّدها الدكتور زكى نجيب محمود فيما يكتب ، مستدلاً بحادثة لم تحدُث قطُّ بين مشايخ الأزهر وعلماء الحملة الفرنسية ، ليس لها سندٌ تاريخىّ صحيح ولا باطل ، وإنما هى كَذِبٌ مُصْمَتٌ ، لا أدرى مَنْ تَكذَّبه ، ففُتِن به الدكتور زكى وحُبِّب إليه تَرْدادُه مرّاتٍ فيما يكتب ، (انظر ما سلف : ٩١ ، ٩٢) .

والذى لا شكّ فيه أن « جذورَ قضيَّتنا » كامنةٌ فى نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية ، والذى أدّى إلى انقضاض الفتى الصليبىِّ المُحْترِق المُبيرِ « نابليون » بغتةً على دار الإسلام فى مصر ، لوأدِ « اليقظة » و « النهضة » ومعاجَلتها فى مَهْدها قبل أن يشتدَّ عودها وتستفحلَ ، فيسفح الدِّماءَ سفحاً لم يفعل مثله « جنكيزخان » ، فيضحِّى عند مشرق كلِّ شمسٍ بخمسةٍ أو ستَّة ، ويُطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ويأمر قوّاده أن يتشبَّهوا به ، (ما سلف : ١٠٠ ، ١٠٤) ، ويهديه « الاستشراق » أن يختارهم من الطلبة النابهين من ورثة « الزبيدىّ » و « الجبرتىّ الكبير » ، (ما سلف : ١٠٤) ، ليستأصل بذلك « اليقظة » من جذورها ، ويشتِّت بالإرهاب مَنْ أفلت من براثنه الملوَّثة الدامية . ولكى يضمن هذا الجزّار بعد ذلك أن لا يشِبَّ الصراعُ المشتعلُ بين سلاحين متكافئين ، وثقافتين مكتملتين . وضع هذا الفتى الأهوجُ المحترِق مشروعه الذى بيَّنه لخليفته « كليبر » : « أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد عدداً كافياً من المماليك ، فليستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسفِّرَهم إلى فرنسا ، فيحجزوا فيها مدةَ سنة أو سنتين ، ليشاهدوا فى أثنائها عظمة الأمّة الفرنسية ، ويعتادوا على لُغَتنا وتقاليدنا . فإذا عادوا إلى مصر كان لنا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليه غيرهم » ، ووعده كليبر أن يرسل إليه جوقة تمثيلية «لأنها ضرورية للبدءِ فى تغيير تقاليد البلاد » ، (ما سلف : ١٠٨) = وأرادَ بذلك أن يضمنَ تمزيقَ « الثقافة المتكاملة » التى هى ثقافتنا ، وأن

يقتلعها من جذورها ، ويحفرَ لها قبراً تتألَّقُ أنوارُه الفرنسية الساطعةُ ، ويدفِن فيه « اليقظَة » و « النهضَة » إلى غير رجعةٍ .

ثم يكتب إلى الجنرال « زايو نشك » قومندان المنوفية ، فى ٣٠ يوليه ١٧٩٨ م : « يجب أن تعاملوا التُّرْك ، (أى المسلمين) ، بمنتهى القسوة ، وإنى هنا أقتُل كُلَّ يوم ثلاثة ، آمُرُ أن يُطافَ برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، فهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكُم أن توجِّهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ، (ما سلف : ١٠٠) ، وكذلك فعل نابليون نفسه فى القاهرة بالإرهاب ، فسارع الناس إلى إخفاء الأسلحة ، وكانت أسلحة الأهالى والجند الفرنسيين متكافئة ، أما تفوّق الفرنسيين فكان فيما عندهم من المدافع التى استعملوها فى هَدم الدُّور والمساجد ودكِّ القاهرةِ دكًّا متواصلاً . فأراد نابليون « بتجريد البلاد قاطبة من السلاح » ، أن يضمن بهذا « التجريد » أن يُبْطِل قدرة « السلاح المتكافىء » على مقاومة جُنْده وإبادَتِهم جَهْرةً واغتيالاً ، وأن يصل بسفحه الدماءَ إلى إخضاع الناس ، كما قال .

هذه هى « جذور القضيّة » التى غَفَل عنها الناس يومئذٍ ، ولا تزال حياتنا الأدبية الفاسدة اليومَ غافلةً عنها كُلَّ الغفلة ، فكتَّابنا ومؤرِّخونا اليومَ هم كما قال المتنبِّى فى ملوكِ زمانه :

أَرَانبُ ، غيرَ أَنَّهم مُلوكٌ ، مُفَتَّحةٌ عُيُونُهُمْ نِيامُ

والأرنبُ تنامُ مفتوحةَ العين ، فربما جاءها القنَّاصُ فوجدها كذلك ، فيظنُّها مستيقظة ، فإن كان على علم بحالها أخذها من قريبٍ أخذًا هيِّناً بلا مَؤُونة ولا تعبٍ !!

* * *

ولكن ، لا أستطيع أن أتركك حتى تكون على بيِّنة واضحةٍ من عمل

« الاستشراق » فى دار الإسلام ، فإنه كان عملاً دائباً طويلَ الأمدِ ، متعدِّدَ وجوه النَّشاط ، منذ أخذ يَدِبُّ دبيباً مستخفياً فى نَأْنَأةِ زحفه الخفِىّ الوطء على دار الخلافة فى تركية ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوف إفريقية وممالكها المسلمة ، (ما سلف : ٥٣ ، ١٠١) . فعلى تطاوُل السنين ، ومع ازديادِ خبرته يوماً بعدَ يوم بكلِّ صغيرة وكبيرة فى دار الإسلام ، ومع شُعوره بالأمنِ وهو يجوبُ دار الإسلام غيرَ مُروَّع ، ولسماحةِ أهل الإسلام عامَّتهم وخاصَّتهم مَع مَنْ دينُه يُخالف دينَهم من اليهود والنصارى ، لأنهم أهلُ كتابٍ وأهلُ ذِمّةٍ من أتباع الرسولين الكريمين موسى وعيسى ابن مريم عليهما السلام ، فيسَّر ذلك لهم خاصةً أن يُداهِنوا العلماء والعامّة وينافِقُوهم ويو هِموهم بالمكر والمِحَال أنّ صدورَهم بريئةٌ ، وقلوبَهم خالصةٌ لحُبِّ العلم والمعرِفة = وأيضاً لِمَا كانت دار الإسلام غارقةً فيه من الغَفْلة المُطْبِقة التى أورثتهم إيَّاهَا الاستِنَامة إلى النصر القديم على المسيحية الشمالية ، واغترارهم بالنصر الحادث القَريب بفتح القسطنطينية وتدفُّق جيوش الترك المظفَّرين فى قلب ديار المسيحية الشمالية ، (انظر ما سلف : ٤٨) = كلُّ ذلكَ زاد « الاستشراق » أماناً واطمئناناً ، وأغراه إغراءً شديداً بإعدادِ العُدَّة لتحقيق « الأهدافِ » و « الوسائل » التى طوَى عليها قَلْبَه ، بفهم وبَصِيرة وإخلاصٍ وعقْلٍ وصبرٍ ودهاءٍ ورفِقٍ وتستُّرٍ ، (اقرأ ما سلف من : ٤٧ - ٥١) .

ومن يومئذٍ بدأ « الاستشراق » تحقيقَ الزَّحف الشاملِ الذى يُعَدُّ لاختراق قلب دار الإسلام بلا قعقعة سلاح ، زحفٌ صامتٌ مصمِّمٌ خفىُّ الوَطءِ ، سوف يضمُّ ألوفاً مؤلَّفة من أشتاتِ الناس على اختلاف أجناسهم ، ما بين تاجر وصانع ومُغامرٍ وسائح ومبشِّر وسياسىٍّ وراهب وطالبِ معرفةٍ وأفّاقٍ وصَفَّاقٍ ومتكسِّب ، والنيَّة أن تتكون على الزمن من هؤلاءِ الأشتاتِ جالياتٌ كبيرة تقيم فى دار الإسلام ، تعاشر المسلمين فتطول عِشْرتُهم أو تقصر ، (اقرأ ما سلف : ٥٦ ، ٥٧) . كان « الاستشراق » هو الذى يُعبِّئُ هذه الجيوشَ ويُحمِّل أفرادَها ما يحملُه هو من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذِّيهم بكلِّ ما فى

قلبه من الأحقاد المكتَّمة ، ولهيب البغضاء الغائرة فى العِظَام ، ويدرِّبهم على الدهاءِ والمكر ، وعَلى اتخاذ أقنِعة البراءة والبِشْر والمداهنة والنِّفاق فى معاشرة أهلِ دار الإسلام ، ويُعينُهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبُّه ، ومراقبة كُلِّ صغيرة وكبيرة من أحوالِ مَنْ يخالطونهم من العامّة والخاصة ، والملوك والسُّوقة ، والرجال والنساءِ .

وتطاولت السِّنُون حتى استطاعَ « الاستشراق » أن يكوِّن فى قلب دار الإسلام جالياتٍ صغيرة متخيَّرةً بفهمٍ ودقَّةٍ من شعوب المسيحية الشمالية ، عمادُها الرجالُ الذين يحترفونَ التجارة ، ويعرفون العربية وغيرها من لغات دار الإسلام ، ويقيمون فى دار الإسلام مُدَداً طويلةً ، حتى يألَفُوا الناسَ ويألَفهم الناسُ ، ويتقوَّضَ جدارُ التوجُّس والتخوُّف والشَّك فى هذه الأشباح الغريبة التى تتجوَّل فى الطُّرُقات والشوارع آمنةً غيرَ مفزَّعةٍ ولا مروَّعةٍ . فلما كان زمان « اليقظة » و « النهضة » فى دار الإسلام فى مصر خاصة ، فى القرن الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (القرن السابعَ عشر والثامنَ عشر الميلادىّ) ، (انظر ما سلف : ١١٦) ، هبّ « الاستشراق » هَبَّة الفزع الأكبر ، وكان نذيرُه الحاسمُ المروِّعُ للمسيحية الشمالية بالخطر المدلهمّ الذى تهدِّدها به « اليقظة » و « النهضة » التى انبعثت من مصر خاصة = يومئذ كانت الجاليات الصغيرة قد صارت جالياتٍ كبيرة من تُجَّار شعوب المسيحية الشمالية ، وتفاقم أمرها حتى أفزع المماليك المصرية ، وارتابوا فى هذه الكثرة التى أخذت تتوافد زَرافاتٍ ووُحداناً باسم التجارة ، وخامرهم الشك فى مقاصدهم وفى تحرُّكاتهم ، فأخذوا يفرضون الإتاوات الثقيلة المختلفة على متاجرهم ، ويسومونهم العَنَتَ والمشقّة حتَّى تَبُور تجارتهُم ، وحتى يضطروهم إلى الرحيل عن مصر . فأوعز « الاستشراق » الفرنسيُّ خاصة إلى التجار أن يَجأروا إلى حكومتهم بالشكوى من سوء ما يصيبهم من معاملة المماليك المصرية ، وعلى رأس هؤلاء التجار « مجالون » الذى كان تاجراً مقيماً فى مصر أكثر من ثلاثين سنة ، (انظر ما سلف : ١١٥) ، والذى ظل يقدِّم إلى حكومة فرنسا التقارير والمذكرات عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار

الفرنسيين ، وأنه لا سبيل إلى إزالة هذا العبث إلاّ إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوّة فى رَدْعهم ، وذلك (سنة ١٧٩٣ م) وما بعدها ، ثم رحل « مجالون » إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ م ليحضَّ رجال الدولة على احتلال مصر . فاستجابَ له « تاليران » وزير الخارجية ، و « نابليون بونابرت » ، فكانت « الحملة الفرنسية » على مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أى بعد تحضيضه بسنة واحدة ، (ما سلف : ١١٦) .

وفى خلال هذه الفترة ، ما بين ما كان من تحريض الفيلسوف الألمانى « ليبنتز » لويسَ الرابعَ عشر الفرنسى على غزو مصر فى سنة ١٦٧٢ م ، (انظر ما سلف : ١١٣ ، ١١٤) ، وبين صَرْخة « مجالون » فى سنة ١٧٩٣ م وسنة ١٧٩٧ م = كان « الاستشراق » يتولى فى مصر عملاً خبيثاً آخر ، ويجنِّد فيها جُنْداً من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم ، ويحمِّلهم ما فى قلبه من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذِّيهم بالأحقاد المكتَّمة ، وبلهيب بغضائه الغائرة فى العظام ، ويدرِّبهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداهنة والنفاق فى معاشرة أهل دار الإسلام ، ويعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبُّه والمراقبة = ويحشُدُ معهم أيضاً طوائف من يَهود الشمال ومن اليهود المقيمين فى دار الإسلام فى مصر ، ويستزلُّ طوائف من شُذَّاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، كنصارى الشام وسِفْلة المغاربة ، يستأجرهم لتوسيع خبرته تارة ، وتارة أخرى لبثِّ أفكارٍ دَرَسها « المستشرقون » ، أو ظنوا أنهم درسوها وأتقنوها ، ويحاول « الاستشراق » أن يُشِيعها بين جماهير دار الإسلام فى مصر خاصَّتِها وعامَّتها ، وللتحكُّم فى تصريف أموره وغاياته ، ثم للتمكُّن من إشعالِ نار الفتنة حين يقتضى الأمر إحداثَ فِتَنٍ تُفرِّق شَمْل الناس وتمزِّقُهم وتَشْغَلُهم عن الكيد الخفىّ الذى يُرَاد بهم . وكلُّ هذا كان يتمُّ فى هدوءٍ وصبرٍ وتستُّرٍ ، ومن وراءِ الغفلةِ ، غَفْلَةِ أهل دار الإسلام عن جذور قَضيّتِهم ، (اقرأ ما سلف : ١٠١) . وقد ظهر أثر هذه الحشود جليًّا واضحاً فى زمان الحملة الفرنسية ، وفى البلايا التى حدثت منهم خلالَ ثورات القاهرة التى اشتعلت على جيش الغزاة الفرنسيين ، مما

كاد يفتُّ فى عَضُد الثوَّار ويبعثر خطاهم ويشتّت شَمْلهم . وتستطيع أن تقف على جليَّة أمر هذا البلاء فيما أثبته الجبرتىُّ الصغير فى تأريخ الحملة الفرنسية من كتابه ، وفى الجزء الأول والثانى من تاريخ الحركة القومية للرافعىّ ، [1] لولا ما فى هذا الكتاب من الغفلة وسوء التأويل للأحداث والألفاظ ، فآحذره أشدّ الحذر .

* * *

وفى خلال هذه الفترة أيضاً ، تكاثر عدد « المستشرقين » حملةِ هموم المسيحية الشمالية ، وتوافدوا على مصر فى كلِّ زِيّ : زِىٍّ طلبة العِلْم والمعرفة ، وزِىٍّ السائح المتجوِّل فى ربوعها شمالاً وجنوباً ، وأخطرُهم شأناً مَنْ لبس منهم زىَّ أهلِ الإسلام ، وجاوَر فى الأزهر ، ولازَمَ حضورَ دروسِ المشايخ الكبار ، وصلَّى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم ، وخالط جماهير طلبة الأزهر مسلماً لا يرتابُ فيه أحدٌ ، ولا يعرف أحدٌ حقيقتَه أو أصل بلاده التى جاءَ منها ، وإنّما هو مسلم كسائر المسلمين الذى يجاورون فى الأزهر من كل جنس ولونٍ . وكثيرٌ من هؤلاءِ من أقامَ فى دار الإسلام إقامةً طويلةً متمادية ، كالمستشرق الداهية المحنَّك المتستّر الخفىّ الوَطْءِ « فانتور » ، الذى قضى أربعين سنة يتجوّل فى دار الإسلام ، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية ، فكانَ شيطانَ نابليون ومستشاره وخليلَه ونجيَّه الذى لا يفارقُه فى الحلّ والتَّرْحَال ، (انظر ما سلف : ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) ، وكان ، كما قال الجبرتى : « لبيباً متبحرّاً يعرفُ اللغات التركية والعربية والرومية والطلياني والفرنسى » ، (تاريخ الجبرتى ٣ : ٦٨) . ومع أن الجبرتىّ الصغير لم يحدِّثنا عنهم قَطُّ فى تاريخه قبل الحملة الفرنسية ، لأنه كانَ غافلاً كُلّ الغفلة ، إلاّ أنه حدثنا عنهم زمن الحملة الفرنسية فقال :

---

(١) انظر ما كتبته عن الرافعى فيما سلف : ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ – ١١١ .

« وكثيرٌ من الكتب الإسلامية مترجَمٌ بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشِّفاء للقاضى عياض ، ويُعَبِّرون عنه بقولهم : « شِفاءٌ شريفٌ » ، والبُرْدَةَ للبُوصِيرى ، ويحفظون جملةً من أبياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظُ سُوَراً من القرآن ، ولهم تطلُّع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهادٌ كبيرٌ فى معرفة اللغة والمنطق ، ويَدْأَبون فى ذلك الليلَ والنهارَ . وعندهم كتبٌ مُفْرَدَة لأنواع اللغاتِ وتصاريفها واشتقاقاتها ، بحيث يسهُلُ عليهم نَقْلُ ما يريدون من أىِّ لغةٍ كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت » ، (تاريخ الجبرتى ٣ : ٣٤ ، ٣٥) .

وهذا الذى حدثنا عنه الجبرتى بعد الحملة لا يتمُّ لأحدٍ إلاّ بعد أن يكون قد أطال الإقامة فى دارِ الإسلام ، وبعد التلقّى الطويل عن المشايخ الكبار والصغار ، وبعد الاندماجِ الكاملِ بأهلِ الإسلام . وإغفالُ الجبرتىّ الحديثَ عن أحد منهم قبل الحملة ، دليلٌ بَيِّنٌ على أنّ ذلك كُلَّه قد تَمَّ فى خفاء وتستُّرٍ ، لم يُتِح لمثل الجبرتىّ أن يتنبّه لهم ، أو أن يعرفَ من أمرِ وجودهم فى مصر شيئاً يحمله على التنبُّه . و « فانتور » الذى أقام فى دار الإسلام فى مصر وغيرها أربعين سنة ، لم يعرف الجبرتى عنه شيئاً إلاّ بعد مجيئه مرافقاً للحملة الفرنسية ، فلقيَه عندئذ مكشوفَ القناع ، فوصَفه لنا بما وصفه ، كما مرَّ آنفاً .

ولم تكن إقامة « المستشرقين » فى دار الإسلام فى مصر ، لمجرَّد طَلَب العلم والمعرفة ، بل كانوا يتجوَّلون ويراقبون عمل الجاليات التى حشدُوها وتولَّوا تغذيتَها وتربيتَها على ما فى قلوبهم من حمل هموم المسيحية الشمالية ، وإعانتها بخبرتهم الواسعة على اليقظة والتنبُّه والمراقبة = وأيضاً كانت إقامتهم لمراقبة « يقظة » دار الإسلام التى أفزعتهم حتى أرسلوا نذيرهم الحاسم المروِّع للمسيحية الشمالية = وأيضاً لتكون خبرتُهم بجماهير الأمة مجتمعةً وبطوائفها المختلفة ، خبرةً متغلغلةً تفضِى إلى خبرةٍ بأفراد رجالٍ بأعيانهم واحدًا واحدًا ، معروفاً عندهم باسمه ومكانه وحركته ، وبمواطن ضعفه وقُوّته ، وبمكامِن

الهوى المَيَّالِ الذى يستجيب ، والإرادة المصَمِّمة التى تمتنع عن الاستجابة . فهى خبرةٌ مدروسة منظَّمة واضحة المعالم فى ذهنِ « الاستشراق » ، (ما سلف : ١٠١) .

● وفى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م) ، لا يُدْرى كيف اختلَّت هيبة المشايخ الكبار فى قلوب بعض المماليك ، فأخذوا بالعَسْفِ القبيح أحد المشايخ ، (هو الشيخ عبد الباقى بن الشيخ عبد الوهاب العفيفى) ، أهانوه وقبضوا عليه ، ووضعوا الحديد فى رقبته ورجليه ، وأحضروه فى صورة منكَرةٍ ، وحبسه الأمير المملوك فى حاصل أرباب الجرائم من الفلاحين . فركب الشيخ على الصعيدىّ العدوىّ والشيخ الجدَّاوىّ وجماعةٌ كثيرة من المتعمِّمين . وقال الشيخ الصعيدىّ العدوىّ للأمير : ما هذه الأفعال وهذا التجارى (أى الجرأة) ؟ فقام الأمير على أقدامه وصَرَخ : والله أكسِرُ رأسك . فصرخ عليه الصعيدىّ وسبّه وقال له : « لعنك الله ولعن اليَسَرْجىّ (تاجر الرقيق) الذى جاء بك ، ومَنْ اشتراك ومن جعلك أميراً » . وتوسّط بينهما الحاضرون من الأمراء يسكنِّون حِدّته وحِدَّتهم ، وأحضروا الشيخ عبد الباقى من السجن ، فأخذوه (أى المشايخ) وخرجوا به وهم يسبُّونه وهو يسمعهم . (الجبرتى ٢ : ١٨) .

● واتّفق فى ذلك الوقت أيضاً أن امرأة ذهبت تشكو الشيخ عبد الرحمن العريشى (مفتى الحنفية) إلى المملوك يوسف بك ، فأحضره وحبسه عند الخازندار ، فركب إليه شيخ السادات ، وكلمه فى أمره وطلبه من مَحْبِسه . فلما رأى العريشىُّ شيخ الساداتِ رمَى عمامته وصرخ وخرج يعدو مسرعاً مكشوفَ الرأس وهو يقول : « بيتُك خرابٌ يا يوسف بك » ، وكان يوسف جالساً مع شيخ السادات فقام على أقدامه ، وصار يصرخُ على خدمِه : « أمسكوه ، اقتلوهُ » ، وشيخ السادات يقول له : « أى شىءٍ هذا الفعل ؟ اجلس يا مبارك » . ونزل الشيخ وأخذ العريشىّ فى صحبته إلى داره ، وتلافوا القضية وسكتوها . يقول الجبرتى : « ثم حصل ما حصل فى الدعوى المتقدمة وما ترتب عليها من الفتنة ، وقَفْل الجامع (الأزهر) ، وقتل الأنفس » (الجبرتى ٢ : ١٨) .

• وقد نقلتُ هاتين الحادثتين لأنهما بدءُ الانشقاق الذى حدث بين المماليك والمشايخ ، ولأنهما نبَّها المشايخ إلى عسف المماليك وجَوْرهم ، ثم تتابعت الحوادث بعد ذلك ، وكانت ثورة الجماهير على مظالم المماليك ، وذهابهم إلى الجامع الأزهر ، وشكواهم إلى المشايخ ، فيترك المشايخ دروسهم ، ويغلقون الجامع الأزهر ، ويخرجون على رأس الجماهير ، ويطالبون المماليك برفع الظُّلمِ عن الناس ، حتى كانت آخر حادثة وقعت بينهم فى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٤ م ، (أى قبل الحملة الفرنسية بأربع سنوات) ، حين جاء أهل قرية بشرقية بلبيس يشكون الأمير محمد بك الألفى وأتباعه الذى ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ الشرقاوى ، فاغتاظ حين سمع شكواهم ، فحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ ، وقفلوا أبواب الجامع ، وأمروا الناس بإغلاق الأسواق والحوانيت . ثم ركبوا فى ثانى يوم ومعهم خلقٌ كثير من العامّة وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات . فأرسل لهم المماليك أميرًا يسألهم عن مطالبهم ، فقال المشايخ : « نريد العدل ، ورَفْع الظلم والجور ، وإبطالَ الحوادثِ والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » . فقال لهم : « حتى أبلِّغ » ، وانصرف ولم يَعُدْ لهم بجواب ، وانفضّ المجلس . وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، واجتمع أهل الأطراف من العامّة والرعية ، وباتوا بالمسجد . وفى اليوم الثالث اجتمع الأمراء وأرسلوا إلى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات ، والسيد النقيب (نقيب الأشراف عمر مكرم) ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ محمد الأمير ، ومنعوا العامة من السير خلفهم ، ودار الكلام بينهم وطال الحديث ، وانحطَّ الأمر على أنهم تابوا ورجعوا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح بينهم على أن يرفعوا عن الناس المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس ، وأن يكفُّوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، ويسيروا فى الناس سيرة حَسَنَةً . وكان

القاضي حاضراً بالمجلس ، فكتب حُجَّةً عليهم بذلك . فوقع الأمراء عليها ، [(١)] ورجع المشايخ وحول كل واحدٍ منهم وأمامه وخَلفه جملةٌ عظيمة من العامة وهم ينادون : « حَسْبَ ما رسم ساداتُنا العلماء ، بأنّ جميع المظالم والحوادث والمكوس بَطَّالة من مملكة الديار المصرية » = ويعقّب الجبرتي على ذلك بقوله : « وفرح الناس وظنُّوا صحَّته ، وفتحت الأسواق ، وسكن الحال على ذلك نحو شهرٍ ، ثم عاد كُلّ ما كان مما ذُكِر وزيادة » (الجبرتي ٢ : ٢٥٨ ، ٢٥٩) .

• وأخفى الجبرتي عنّا كُلَّ ما كانَ في سنة ١٢١٠ / ١٧٩٥ م ، وبدأها بقوله : « لم يقع فيها من الحوادث التي يُعْتَنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم » ، وبدأها بسطر واحدٍ في غُرة ذي الحجة ، ثم شرع يذكر الوفيات ، (٢ : ٢٦٢ إلى ٢٦٧) . ثم جمع السنتين ١٢١١ ، ١٢١٢ هـ / ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ م ، معاً وقال أيضاً : « لم يقع فيهما من الحوادث التي تقيَّد في بطون الطروس سوى ما تقدمت الإشارة إليه ... وحضر طائفة الفرنسيس إثر ذلك في أوائل السنة التالية ، كما سيأتي خبر ذلك مفصلاً » ، ثم شرع في ذكر الوفيات (٢ : ٢٦٧ – ٢٧٥) ، ختامَ الجزء الثاني من تاريخه . وهذا أمر غريبٌ جدًّا ، كأنّ مظالم المماليك التي عادت جَذَعة ، ونَقْضَهم الحُجَّة التي وقَّعوها بعد شهرٍ واحدٍ من تحريرها ، لم يكنْ لها وقْعٌ عند جماهير الناس ولا عند المشايخ . هذا أمرٌ مستبعدٌ بلا شك ، وإنما شُغِل الجبرتي عن سَرْد حوادثها بما نزل بالبلاد من البلاء الماحق بحضور الفرنسيس ، فاختصر السنوات الثلاث اختصارًا ليس له شبيه في كتابه .

---

(١) أخطأ الجبرتي خطأ كبيراً حين لم يثبت في كتابه نصَّ هذه الوثيقة كاملةً وعليها توقيع الأمراء ، ولكن مضمونها على كل حالٍ أفضل مئات المرات من وثيقة « الماجنا كارتا » (سنة ١٢١٥ م) ، التي حاول الإنجليز ، فيما بعد ذلك بقرون ، تفسيرها على أنها ضمانة للحريات . وقد ضاعت هذه الوثيقة فيما ضاع وأتلف في زمان الحملة الفرنسية .

● كُلَّ هذا كان يَقعَ بمرأًى ومَسْمعٍ من « المستشرقين » وأعوانهم ، وأدرك « المستشرقون » أن هذه الحوادث المتتابعة التى انتهت بإعلانِ المماليك تَوْبتَهم ورجوعهم عن مظالمهم ، حتى اضطرُّوا إلى توقيع وثيقةٍ يشهدون فيها على أنفسهم بالتوبة ، وتعهّدوا فيها برفع المظالم عن الناس ، إنما كان نتيجةً متوقّعَةً نابعةً من « اليقظة » و « النهضة » التى أخذت تَعُمُّ دار الإسلام فى مصر = وتبيَّنوا أيضاً أنّ مشايخ الأزهر قد صاروا طليعةَ هذه « اليقظةِ » وقادتَها ، وأن سُلْطانهم على العامّة والجماهير ، قد أرهب المماليكَ وأفزعهم . ولولا أن الجبرتىّ قد أخفَى عنا موقف المشايخ والجماهير فى ثلاث سنواتٍ بعد توبتهم ، ثم نقضهم العهدَ وعودتِهم إلى الجور والظُّلم ، لرأينا الصِرَاع واضحاً جليًّا بين المشايخ قادةِ الجماهير ، وبين المماليك الذين غرَّهم ما كانوا يتمتَّعون به من السلطان على الجماهير ، وما استمرأُوه من إيقاع الجور والمظالم ، وسكوت الجماهير واستكانتهم لهم زمناً طويلاً قبل ذلك = ولعرفنا أيضاً أسماء كثير من المشايخ الذين كانوا طليعةَ « اليقظة » وقادتَها فى هذه المُدَّة من تاريخ دار الإسلام فى مصر = ولربَّما عرفنا أيضاً أسماء مَنْ انحاز من أمراء المماليك يومئذ إلى المشايخ والجماهير ، وانشَقَّ عن جَمْهرة الأمراء المماليك الذين أصرُّوا على جورهم ومظالمهم وعِنادهم ، ورجعوا عن تَوْبتهم التى شهدوا بها على أنفسهم فى الوثيقة أنهم تابوا ورجعوا عن المظالم .

● ومع ذلك ، فقد أوقفنا الجبرتىُّ على أسماء ستة من المشايخ الكبار الذين شاركوا فى الثورة على المماليك وهم : « الشيخ العَرِيشى » مفتى الحنفية ، و « الشيخ السادات » ، والسيد نقيب الأشراف « عمر مكرم » ، و « الشيخ عبد الله الشرقاوى » شيخ الأزهر ، و « الشيخ البكرى » ، و « الشيخ محمد الأمير » . وهؤلاء الستة كانوا ضمن التسعة الذين سجَّل أسماءهم « نابليون » فى أمره الذى أصدره بتكوين « الديوان » فى أوّل ساعةٍ وَطِئت قدمُه فيها القاهرة ، (يوم الثلاثاء ١٠ صفر سنة ١٢١٣ هـ / ٤ يوليه سنة ١٧٩٨ م) ، وكان تمام التسعة : « الشيخ مصطفى الصاوى » ، و « الشيخ سليمان

الفيومى » و « الشيخ موسى السرسىّ » ، فرفض ثلاثة من الستة الأُوَل أن ينضمُّوا إلى الديوان ، وهم : « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » ، فأحلّ محلَّهم نابليون ثلاثةً آخرين هم : « الشيخ مصطفى الدمنهورى » و « الشيخ يوسف الشبراخيتى » و « الشيخ محمد الدواخلى » .

كيف استجابَ هؤلاء التسعة من المشايخ العُلماء الكبارِ لغازٍ مسيحىّ بهذه السُّرعة العجيبة ؟ كيف استجابوا وهم يعلمون صريحَ أوامر الله وأوامر رسوله بقِتال الغُزَاة لدار الإسلام ؟ كيف استجابوا وهم كانوا بالأمس القريب قد ثاروا على الأمراء المماليك يطالبونهم بإقامةِ الشَّرْعِ ؟ كيف خافوا وضَعُفوا وأخطأوا الطريق ، وكان لهم مندوحة فى رفض الاستجابة ، كما فعل ثلاثة من إخوانهم العلماء الكبار ؟ ينبغى أن يكون لهذه السرعة فى الاستجابة بلا تردُّد تفسيرٌ يقبله العقل ، ويمهِّد لهم عُذْرًا يقبله العقل أيضاً على مَضضٍ .

• لمّا أظلَّ زمانُ مجىء الحملة الفرنسية ، وكان معلوماً بلا شَكٍّ للمستشرقين المقيمين فى دار الإسلام فى مصر ، نَشِط « الاستشراق » وأعوانه وجالياته من شذَّاذ الآفاق الذين عبَّأهم وجنَّدهم ، كما أشرت إليه فيما سلف (ص : ١٢٣) = نَشِط « الاستشراق » نَشاطاً سريعاً خفِيَّ الوَطْء فى ميادين مختلفة ، لبثّ أفكار درسوها وأحكموها ، وأرادوا أن يشيعوها بين جماهير دار الإسلام فى مصر ، للتحكُّم فى تصريف أموره وغاياته ، وللتمكُّن من إشعال نيران الفِتَن حين تنزل الحملة الفرنسيَّة أرض مصر ، ليفرِّقوا بهذه الفِتن شَمْل الناس ويمزِّقوهم ويَشْغَلوهم عن الكَيْد الخفىّ المكيافيلّى الذى يُرَادُ بهم ، (ما سلف : ١٠١ ، ١٢٣) .

كان أكبرُ نشاط « الاستشراق » موَجَّهاً إلى المشايخ الكبار الذين ثاروا بالأمس القريب على طائفة الأمراء من المماليك المصرية مرَّات ، حتَّى خضعوا ووَقَّعُوا على وثيقةٍ

يشهدون فيها على أنفسهم بالتوبة ، ويتعهَّدون فيها برفع المظالم التى أوقعوها على جماهير الأمة ، وبالتزام أوامر الشَّرع ، ولكنهم لم يَفُوا بذلك ، فنقضوا الوثيقة ، وعادوا بعد شهر واحد إلى جَوْرهم ومظالمهم وزيادة ، كما قال الجبرتى فيما سلف قريباً . ولا شكَّ أن نقضَ هذه الوثيقة ، قد أورث قلوب المشايخ الكبار غضباً وكراهيةً لطائفة الأمراء المماليك الذين لا يَرْعَون لله إلاًّ ولا عهداً ولا ذِمَّةً ، ولا يُقيمون للشرع حُرْمةً ، ولا للمشايخ هيبَةً ولا كرامة . كان هذا كُلُّه معلوماً واضحاً عند « الاستشراق » وأعوانه وحواشيه .

فلما دنا نزولُ جُنْد الفرنسيس ثغر الإسكندرية ، كانت الأخبار قد وصلت إلى القاهرة غامضةً ، فلم يهتم أمراء المماليك بشىءٍ من ذلك ولم يكترثوا به اعتماداً على قُوَّتهم ، فقالوا وزعموا : أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفُون فى مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم ، (الجبرتى ٣ : ٣) . وعندئذ خرج « الاستشراق » من مكامنه ، وخرج « المستشرقون » الذين كانوا يتزَيَّون بزىِّ أهل الإسلام ، ويجاوِرُون فى الأزهر لطلب علم الدين والدُّنيا مسلمين ، ويخالطون المشايخ الكبار فى دروسهم وبيوتهم ، لا يميِّزهم شىء عن سائر المسلمين المجاورين فى الأزهر من كلِّ جنسٍ ولونٍ = وطافُوا على المشايخ الكبارِ ، وبرفْق ودَهاءٍ ومكْرٍ فاتحوهم فى شأن الفرنسيس الذين شاع أنهم قد دَنا نزولهم أرضَ مصر ، فنصيحةً لله ولرسوله وللمسلمين بيَّنُوا لهم أنهم على علم بشأن هؤلاء الفرنسيس ، وأن الذى يحملهم على القدوم إلى الديار المصرية هو ما كان المماليك يعاملون به الجالية الفرنسية بإذلال واحتقار ، ويظلمون تجارهُم بأنواع الإيذاء والتعدِّى ، كما يظلمون جماهير أمة الإسلام فى مصر بألوانٍ من الجور والظلم والمهانة ، وإقدامهم على مخالفة الشرع ، وعلى نقض العهود والمواثيق ، وجُرأتهم على هيبة المشايخ الكبار بلا رعاية لكرامتهم = وأنَّ كُلَّ هدف الفرنسيس هو رفع الظلم الواقع على تُجَّارهم ، وتخليص حقِّ الأمة الإسلامية من يد الظالمين ، والقضاء على دولة المماليك الفاسدة الظالمة ، ووضع أمور البلاد فى يد العلماء والفضلاءِ من أهالى مصر .

وظلُّوا يَفْتِلُون لهم فى الذِّرْوةِ والغاربِ برفقٍ ودهاء ، حتى انتهوا إلى أن الفرنسيس لم يُقْدِموا على نِيَّة القضاء على دولة المماليك ، إلاَّ باتفاقٍ مع السلطان العثمانى ، لأنهم أحبَّاؤه المخلصون ، والمماليك كثيراً ما امتنعوا عن طاعة السلطان ولم يمتثلوا لأمره = وأنهم يحترِمون النبىّ ﷺ والقرآن العظيم ، وأنهم هم الذين نزلوا فى رومية وخرّبوا كرسىّ البابا الذى كان دائماً يَحُث النصارى على محاربة المسلمين . واستمع المشايخُ لهذا وأمثاله ، ولِقِلّة علمهم بما هو خارجٌ عن حدود القاهرة ، ألانَ مثل هذا الحديث قلوب أكثرهم وغرَّتهمُ الأمانىّ ، وعدُّوه نصيحةً لله ولرسوله وللمؤمنين .

وكان آخرون من « المستشرقين » لهم مودَّة بالمماليك ، يُفَاوضونهم ويهوِّنون عليهم شأن الفرنسيس ، ويُمَنُّونهم بالظفر عليهم إذا هم أقدمُوا على دخول القاهرة ، ويزيدونهم إصراراً على الغرور بقوّتهم ، وأنهم إذا جاءت الإفرنج ، فهم قادرون على أن يدوسوهم بخيولهم . أمّا الذين كانوا منهم يطوفون بالمشايخ ، فكانوا يخوِّفونهم من تهوُّر المماليك ، وأنهم لا علمَ لهم بقوَّة الفرنسيس ، وما فى حوزتهم من المدافع والأسلحة ، مما لا يمِلك مثله المماليك ، وأنّه إذا وقعت الواقعة ، لم تُغن عن المماليك مدافعهم وأسلحتهم ، وأنهم سُرْعان ما يفرُّون من وجه الفرنسيس ، ثم يتفرَّقون شَذَرَ مَذَر ، ويتركون القاهرة مكشوفةً بلا حامٍ يحميها أو يدافع عنها .

وكان آخرون من « المستشرقين » يتأهَّبون لإحداثِ فتنةٍ كبيرة ، إذا ما دخلت جيوش الفرنسيس القاهرة ، فطافوا بالكنيسة القبطية المصرية ، وحاولوا أنْ يستثيروا حَمِيَّتها ، وأن يُغْروها بأنّ استجابتَهم للفرنسيس إنما هو نُصرةٌ لدين المسيح على دين الإسلام ، وأن واجبهم ديانةً أن يناصروا الفرنسيس ، ويناصبوا المسلمين العداءَ ، حتى تعلُوَ راية المسيحية ، ويصبح المسلمون أتباعاً لهم ورعيَّة لا سلطان لها ، لا يملكون إلا الطاعةَ المستكينةَ لدين المسيح . بيد أنّ الكنيسة القبطية أعرضتْ عنهم وعن إغرائهم ، لسبب بيَّنه لنا المستشرق الإنجليزى « إدوارد وليم لين » فى كتابه « المصريون

المحدثون ، شمائلهم وعاداتهم » ، بعد جلاء الفرنسيين عن مصر بأربع وثلاثين سنة (سنة ١٨٣٤) فقال :

« ومن أكثر الخاصيات اعتباراً فى خُلُق الأقباط تعصُّبهم الشديد ، وهم يكرهون المسيحيين الآخرين جميعاً كراهية شديدة ، (يعنى المسيحيين الشماليين) ، تَفُوق أيضاً كراهية المسلمين للكفار فى الإسلام . ويعتبرهم المسلمون مع ذلك أكثر المسيحيين مَيْلاً للإسلام » . (١)

لذلك لم يَستجب للمستشرقين أحدٌ من رجال الكنيسة القبطية ، وأخفقوا إخفاقاً كاملاً ؛ فولَّوا وجوهم شَطْر طائفة الأقباط الأغنياء الذى كان عملهم جباية الأموال ، وضبط ماليّة المماليك ، فاستعصى عليهم أكثرهم ، واستجاب لهم جابى المملوك « محمد بك الألفى » ، وهو المعروف باسم « المعلِّم يعقوب » ، وجمع لهم من سِفْلة القبط وعامتهم وغوغائهم عدداً كبيراً ، وانضمَّ جهرةً إلى الفرنسيس ، فكوَّن منهم « نابليون » فيما بعد جيشاً سماه « جيش الأقباط » ، على كراهية الكنيسة القبطية وعلى غير رضاها . وهذا الخسيس « المعلم يعقوب » ، كان هو وجيشهُ فتنةً كبيرةً ، وبَلاءً وبيلاً . (٢)

---

(١) ترجمة كتاب لين « المصريون المحدثون » ص : ٤٦٣ ؛ الطبعة الثانية : فى باب « الأقباط » ، على ما فى هذه الترجمة من ضعف العبارة . ولأن الكنيسة القبطية ، لم تكن مطمئنة إلى هؤلاء المسيحيين الشماليين وترتاب فيهم ، هجاهم لين هجاءً شديداً (ص : ٤٦٣) ، وهجا بطرك الأقباط ، وزعم أنه كان مستبدًا يُغْرى على شهادة الزور ، وأنّ القسس والرهبان جهلاء خادعون خائنون ، يسعون وراء المنفعة الدنيوية واللذات الجنسية ، وأنهم يتسوَّلون ويستدينون نقوداً لا يردُّونها . وهذه شيمة المسيحية الشمالية فى الافتراء والطعن على من لا يستجيب لهم . وانظر إلى حقد « الاستشراق » الذى ظلَّ كامناً أربعةً وثلاثين سنة ، ثم استعلنَ .

(٢) تستطيع أن تقف على أخبار هذه الفتنة فى تاريخ الجبرتى ، وفى كتاب الرافعى ، وفى كتاب الأستاذ محمد جلال كشك ، الذى سمَّاه : « ودخلت الخيل الأزهر » .

• • •

• لما وقعت الواقعة ، ونزل جند الفرنسيس أرضَ الإسكندرية ، واجتاحوا بلاد الوجه البحرىّ يحرقون القُرَى ويسفكون الدماءَ ، سبقهم إلى القاهرة منشور نابليون المؤرخ آخر المحرم سنة ١٢١٣ هـ ، وكتبه المستشرقان « فانتور » و « مارسل » = رأى المشايخ فيه جُلَّ ما طرق أسماعهم من حديث المستشرقين الذين كانوا يتزيّون بزىِّ الإسلام ، وجاءتهم أنباء حرائق القُرَى وسفك الدماءِ ، حين قاوم المصريون الجيش الغازى ، كما توعَّد نابليون فى منشوره كلَّ من يقاومه . ثم بعد أيام قلائل وصلَ نابليون مشارف القاهرة ، ولقى جيشه جيش المماليك المصرية ، ودارت الدائرة على المماليك ، وأخذهم الرُّعْب ، وتفرَّقوا شَذَر مَذَر ، وتركوا القاهرة عاريةً مكشوفةً ليس لها حامٍ يَحْميها ، فكان ذلك كُلُّه مِصْداقاً لما سمعه المشايخ من « المستشرقين » ، فوجَفَت قلوبُهم ، وخافُوا أن يَحِلّ بالقاهرة ما حلَّ بقُرى الوجه البحرىّ من الفظائع . فلمّا دخل نابليون القاهرة ، وأصدر أمره بتكوين « الديوان » من تسعةٍ من المشايخ الكبار ، استجاب ستة منهم لدعوة نابليون ، ثم استجاب أيضاً ثلاثة آخرون لتمام التسعة ، بعد رفض « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » أن يستجيبوا لدعوته . والذى دعا هؤلاء للاستجابة خوفُهم على مصير القاهرة التى تُرِكت بلا حامٍ يحميها ، بعد أن خَذَلها حُمَاتها من صناديد الحرب والقتال ، وهم المماليك المصرية . فلم ير المشايخ سبيلاً إلى حَقْن دماء العامّة رجالاً ونساءً إلاّ المهادنة ، وإلا الصبرَ والسكينة حتى يكشف الله هذه الغُمَّة بما شاءَ سبحانه .

فكانت استجابة هؤلاء المشايخ التسعة لتكوين « الديوان » منهم أوّلَ زَلَّة ، وكانت هذه الاستجابة أيضاً أوّل نجاحٍ حازه « الاستشراق » فى « تدجين » بعض المشايخ الكبار ، ولكن لم تلبث الأمَّة خاصتها وعامتها أن رفضت الاستماعَ إلى هؤلاء المشايخ « المدجّنين » ، واستمعت إلى آخرين من المشايخ ، وإلى صِغار طلبة العلم بالأزهر الذين

رفضوا نصيحة المشايخ التسعة الكبار ، وقامت ثورة القاهرة وثورات الأقاليم ، بعد ثلاثة أشهر من « تدجين » التسعة الكبار ، ومن دخول جزَّار القاهرة أرضاً لم تطأها من قبلُ قدم غازٍ صليبىّ محترقٍ كالميكافلىّ « نابليون » ، الذى غرَّ هؤلاء التسعة ، وخدعهم حُسْن استقباله لهم وتوقيرهم خِداعاً لهم بمداهنته ومكره ودهائه ، (اقرأ ما سلف : ١٠٢ - ١٠٨) .

وكان بعد ذلك ما كان من سفح الدماءِ ليلاً ونهاراً ، جَهْرةً وخُفيةً ، لم يستثن الجزَّار ولا خلفاؤه شيخاً فانياً ، ولا طفلاً رضيعاً ، ولا امرأةً عاجزةً ، حتى انكشح هو وجُنوده من أرضِ مصر بعد ثلاث سنوات خَزَايَا مقهورين ، (ما سلف : ٩٢ - ٩٦) .

* * *

٢٣ - لم تذهبْ معاناةُ دار الإسلام فى مصر من بلايا السنوات الثلاث هَدَراً ، فإن ثوراتها على جُنْد الفرنسيس قد أخرجت من غِمارِ الناس ومن مشايخ الأزهر قادةً جُدُداً قد نجَّذهم الصِّراعُ والقتالُ وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وأصبحوا هم حُماةَ القاهرة والسَّاهرين على الذِّيادِ عنها ، على قُرْب عهدهم بمزاولةِ الحماية والدِّفاع . ومضت أربعُ سنوات بعد رحيل الفرنسيس ، واضطربت أمور إدارةِ البلاد ، ولكن ظلَّ المشايخ الكبار والقادةُ الجُدُد من جماهير الشعب فى مصر ، رُقَباءَ على كُلّ مَنْ يحاول أن يتصدّر لإدارة أمور البلاد ، وخاصةً المماليك الذين عادوا بعد غيابهم ثلاث سنوات كانوا فيها معزولين عن مباشرة ما كانوا يباشرون من قبل الحملة الفرنسية من الإدارة وحماية البلاد . وأخيراً استقرَّ رأىُ المشايخِ والقادةِ على إسناد الأمر إلى رجل كانت تركية بعثته مع ثلاثمئة من الجُنْد فى أواخر أيام الحملة الفرنسية ، وكان اسمه « محمد على سِرْشِشْمَة » ، و « سرششمة » دَرَجةٌ بسيطةٌ يلقَّبُ بها قائد عددٍ من الجنود فى الدولة العثمانية ، كان ذلك فى سنة ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) .

كان « محمد على سرششمة » هذا ، الذى أسند إليه أمرُ ولاية مصر فى سنة

١٨٠٥ ، (١٢٢٠ هـ) ، فى الخامسة والثلاثين من عمره . وكان جاهلاً لم يتعلم قطُّ شيئاً من العلوم ، وكان لا يقرأ ولا يكتب ، وقضى أكثر عمره تاجراً يتاجر فى « الدخان » ، ثم انضمَّ إلى الجند ، ولكنّه كان ذكيًّا داهيَةً عريقَ المكر ، يلبسُ لكل حالةٍ لَبُوسها ، وكان مُغامراً لا يتورّع عن كذِبٍ ولا نفاقٍ ولا غَدْرٍ . وفى أثناء مُقامه فى مصر من سنة ١٨٠١ م إلى سنة ١٨٠٥ م ، يراقبُ اضطراب أمورها واختلال إدارتها ، وبنظره الثاقب وذكائه ، خالط المشايخ والقادة والمماليك الذين حاولوا العودةَ إلى ولاية الأمور فى مصر ، فنافقهم جميعاً ، وأظهر لجميعهم المودَّة والنُّصح وسلامَة الصدرِ ، حتّى انخدع به المشايخُ والقادةُ ، وآثروا ولايته على ولاية المماليك ، فنصَّبوهُ والياً على مصر ، وعلى رأس من انخدع به « السيد عمر مكرم » ، أكبر قائد للمشايخ والجماهير ، فبذل كُلَّ جهده فى إسنادِ ولاية مصر إليه . وكان ما أرادَ اللهُ أن يكون .

● لم يكن « الاستشراق » ، وخاصة « الاستشراق » الفرنسيُّ ، غافلاً عن هذا المغامر الجديد وعن خلائقه ، بل كان مراقباً له كُلَّ المراقبة من أوّل يوم جاءَ فيه إلى القاهرة ، ومراقباً أيضاً لكلّ ما كان يجرى فى مصر منذ رَحِيل الحملة الفرنسية . فلما تمت ولاية « محمد على سرششمة » على الديار المصرية ، أحاطت به قناصل المسيحية الشمالية إحاطة كاملة = و « القناصلُ » هم « الاستشراقُ » نفسُه فى صورته السياسية = فبدأوا يَفْتِلون له فى الذِّرْوة والغارب ، ويُوغِرون صدره على المشايخ والقادةِ الذين نَصَّبوه والياً على مصر ، ويخوِّفونه عاقبة سُلطانهم على جماهير الأمَّة . وصادفَ ذلك استجابةً طبيعيةً ، لما فى قلب هذا المغامر الجرىء من الدْهاءِ والخُبْث وتَرْك التورُّع عن الغَدْر وإنكار الجميل وحُبِّ التفرُّد بالسلطان الذى نَاله بغتةً ، ولم يكُنْ قطُّ فى حياتِه يتوهَّمُ أن ينالَهُ أو ينالَ ما هو دُونه بكثير .

فكانت أوَّل غدرةٍ غَدَرها « محمد على سرششمة » هذا بالذى نصبَّه والياً على مصر ، وبذل له فى ذلك كُلّ جُهْدٍ ، وهو قائد الأمَّة مشايخِها وجماهيرِها ، نقيبُ

الأشراف « السيد عمر مكرم » ، فإنه بمكره ودهائه أوقع بينه وبين بعض المشايخ ، ثم انتهى الأمر بأنْ نزعَ عنه نقابة الأشراف ، ثم نفاه إلى دمياط فى أول رجب ١٢٢٤ هـ (١٢ أغسطس ١٨٠٩ م) ، أى بعد ولاية هذا المغامر الغدَّار بأربع سنوات فقط ، وبقى السيد عمر فى منفاهُ الأوّل هذا عشر سنوات ، حتى استدعاه إلى القاهرة فجاءها فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ هـ (٩ يناير سنة ١٨١٩ م) ، ثم عاد ونفاه مرة أخرى إلى طنطا ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧ هـ (١٥ إبريل سنة ١٨٢٢ م) ، فتوفِّى رحمه الله فى تلك السنة نفسها . ثُم استدار بعد ذلك على المشايخ يوقع بينهم ، ليُوهِى سلطانهم على جماهير الأمّة ، ويُفتِّت قُوَّة الجماهير بعَسْفه وظلمه وإرهابه وجبروته ، بعد القضاء على قادتهم وتشتيتِ شَمْلهم ، وكذلك كان ، والأمر لله من قبلُ ومن بعدُ . وكذلك ظَفِر « الاستشراق » بالمشايخ الكبار ، ومَهَّدَ لعزل الأزهر ومشايخه عن قيادة الأمة ، وأوغَر صدر هذا الجبَّار ، ومكَّن فى قَرارة قلبه بُغضَ الأزهر وشيوخِه وطلبةِ العلم المجاورين فيه ، وانفردَ هو بأُذُنِ هذا الجاهلِ الجرىء المستبدِّ ، يُوحُون إليه بما يريدون وما يُبيِّتون ، ويُتِمُّون ما بدأوا به من وَأْدِ « آليقظة » التى تهدِّدهم بها دارُ الإسلام فى مصر ، على يد مسلمٍ جاهلٍ غِرٍّ أهوج ، لا يعرفُ كثيراً ولا قليلاً من « الثقافة المتكاملة » التى حَفِظتْ دار الإسلام قروناً طوَالاً ، وكانت لُبَّ « اليقظة » و « النهضة » الوليدة التى كان قريباً جدًّا أن تُؤْتِىَ ثمارَها .

• • •

• وثبّت هذا الطاغية « محمد على سرششمة » قواعد مُلْكه ، وازداد إطباقُ « القناصل » و « المستشرقين » على عقله وقلبه ، وخاصةً الفرنسيون منهم ، وكانت إنجلترا ومستشرقوها ما فَتِئت تخوّف الدولة التركية وتؤلّبها على مَهْد « اليقظة » فى جزيرة العرب ، والتى قامَ بها وأسّسها « محمد بن عبد الوهاب » (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ -

١٧٩٢ م) ، (انظر ما سلف : ٨٢ ، ٨٨ ، ١١٨) . واستجابت دار الخلافة بغفلتها إلى هذا التأليب ، حتى جرّدت حملات متتابعة لقمع « اليقظة » الوهابية ، وآبت فى جميعها بالإخفاق . ثم منذ ولى « محمد على سرششمة » جعلت تركية تدعوه إلى تجريد جيوشه لقتال الوهابيين ، وتتابع هذا الطلب من سنة ١٨٠٧ م إلى سنة ١٨١٠ م (١٢٢٢ - ١٢٢٥ هـ) ، فلم يستجب لنداء تركية ، ولكن « الاستشراق » بقناصله زيَّن أخيراً لمحمد على سرششمة أن يستجيبَ ، ليحقق مآربهُ فى وَأْد « اليقظة » التى كادت تعمُّ جزيرة العرب ، وأمدُّوه بالسلاح الذى يعينه على خوض الحرب ، وذلك فى سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، (أى بعد ولايته مصر بست سنوات) ، وسارت الجيوش قاصدة جزيرة العرب ، ودارت الحربُ التى لم تنته إلا بعد ثمان سنوات ، فى سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م ، وفقدت الجيوش المصرية آلافاً من أبنائها ، ولقيت هزائم كادت تودى بها . وأخيراً تم النصر لمحمد على سرششمة ، بعد أن ارتكب من الفظائع ما لا يستحلُّه مسلم ، واستباح الديارَ والأموالَ والنساءَ ، وهدم المُدُن ، فكان هو وابنُه إبرهيم وسائر أولاده طُغَاةً من شرِّ الطُّغاة . وكانت حرباً طاحنة لا معنَى لها ، ولا ينتفع بها إلاّ مؤرِّثوها من دُهاة المسيحية الشمالية .

وكذلك أدرك « الاستشراق » ، وأدركت المسيحية الشمالية ، مأرباً من أكبر مآربِها فى وأْد « اليقظة » التى كانت تهدِّدهم بها دار الإسلام فى جزيرة العرب ، والتى كانت تخشى المسيحية الشمالية أن تنضم هذه « اليقظة » إلى « اليقظة » الكائنة فى دار الإسلام فى مصر ، فيومئذ لا يعلم غير الله ما تكون العواقب ، كما أسلفتُ (انظر : ١١٨) ، وتمَّ كُلّ ذلك على يَدِ مسلمين جَهَلة يُوجِّههم « الاستشراقُ » والمسيحيةُ الشمالية من حيث لا يُبْصرون ولا يعلمون ماذَا يُراد بهم ، ولا إلى أىِّ هُوَّةٍ من الهَلَكة يُساقون . والأمرُ لله من قبلُ ومن بعدُ .

* * *

• يقول الكاتب المؤرخ المُدَجَّن « عبد الرحمن الرافعى » فى كتابه : « تاريخ الحركة القومية ، الجزء الثالث ، عصر محمد على » ص : ٤٥٢ فى باب « البعثات العلمية » :

« لو تأمّلت مليًّا فى العصر الذى نشأت فيه هذه الفكرة ، واختلجت فى نفس محمد على ، لعجبتَ لعبقريته كيف أنبتت هذا المشروع . ففى ذلك العصر لم يفكّر حاكم « شرقىّ » ولا حكومة شرقية فى إيفاد مثل هذه البعثات . وهذه تركية = وسلطانُها كان يملك من الحَوْل والسلطة أكثر مما يملك محمد على = لم تفكّر حينذاك أصلاً فى إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الأوربية ، فصدور هذه الفكرةَ ، فى ذلك العصر ، وفى الوقت الذى كان محمد على مشغولاً فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس ، يدلُّ حقيقةً على عبقرية نادرةٍ وهمَّة عالية » ... تأمّلْ ثم تأمّل ، ويَا للعجب لهؤلاء المؤرخين المُدَجَّنِين !

والحقيقة أن فكرة « البعثات العلمية » لم تكن نابعة من عقل هذا الجندىّ الجاهل « محمد على » ، بل كانت نابعةً من عقولٍ تخطّط وتدبرّ لأهدافٍ بعيدة المدَى ، استغلَّت ما فى نفسه من المطَامع ، وحُبِّه للسيطرة ، أحاطت به « القناصل » وهى تراقب أهواءَه ومَطامعه ، فجعلت تغذِّيها وتزيدها توهُّجاً ، لتجعله قُوَّةً فى قلب دار الإسلامِ ، تُنازِع دارَ الخلافة فى تركية سلطانَها ، وتنشقُّ عنها انشقاقاً يزيدُ فى تفكُّك دار الإسلام ، ويُسْرِع فى انهيار دار الخلافة ، وفى تمزيقها وضَعْفها وارتخاء قَبْضَتها على أطراف دار الإسلام ، ويمهِّد للمسيحية الشمالية السبيلَ إلى تخطُّف أقاليم دار الإسلام بعد أن تصير أشلاءً ممزقةً عاجزةً عن الدفاع عن نفسها = على أن تكون هذه القوَّة الجديدة ، قُوَّة محمد على ، فى قبضة المسيحية الشمالية ، تصرِّفها كيف تشاء ، وتقضِى عليها قضاءً مُدمِّراً يومَ تحتاجُ إلى هذا التدمير . ولذلك كانت هذه البعثات الصغيرة كلها ، منذ سنة ١٨١٣ م ، تتعلق بالصنائع التى تتعلَّق ببناء الجيش المصرىّ لا أكثر ، وكانت هذه البعثات أيضاً قليلة العدد ، ينتفع بها محمد على فى حروبه فى جزيرة العرب (من سنة ١٨١١ –

١٨١٩ م) ، وفى تخطُّف أجزاءٍ أخرى كانت تحت سلطان الدولة العثمانية ودار الخلافة ، ليزيد هذا التخطُّف فى ضعفها وتفكُّكها . هذه كانت غاية « القناصل » الذين أحاطوا بمحمد على إحاطةً كاملةً ، وصارُوا عقله الذى يفكرُ به ، وصارَ هو دُمْيَةً فى أيديهم يحرِّكونها إلى غاياتهم ومقاصدهم .

ولما فرغ « محمد على » من تحطيم « اليقظة » التى كانت فى جزيرة العرب ، سنة ١٨١٩ م ، وعلا بذلك شأنُه ، وأرسى قواعد ملكه فى الديار المصرية = كان فى فرنسَا رجُل كبيرٌ ممَّن شاركوا فى الحملة الفرنسية ، كان مهندساً بارعاً ، وكانت له منزلة كبيرة عند « نابليون » والمستشرق « فانتور » خليلِ نابليون ونَجِيِّه ، وانتُخِب بعد عودته إلى فرنسا عضواً بالمجمع العلمى الفرنسىّ ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يخصُّ مصر ، هو المسيو جُومار (أدم فرنسوا جومار - ١٧٧٧ - ١٨٦٢ م) . فلما رأى نجاح « القناصل » فى إغراء « محمد على » بإرسال البعثات إلى أوربة ، ما بين سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٩ م = أسرع جومار يحثُّ « الاستشراق » الفرنسىّ وقناصله فى مصر ، على إغراء محمد على بإرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا ، ليجعلها تحت إشرافه ، ولينفِّذ مشروع « نابليون » الذى بيَّنه لخليفته « كليبر » فى رِسالته إليه ، (انظر ما سلف : ١٠٨ وما بعدها) .

وإذا كان « نابليون » = بتخطيط المستشرق « فانتور » = قد بنى مشروعه على أن يجتهد « كليبر » فى أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد العدد كافياً ، فليستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسفِّرهم إلى فرنسَا ، فإذا ما وصلوا حُجِزوا مدَّة سنة أو سنتين ، يشاهدون فى أثنائها عظمة الأمّة الفرنسية ، ويعتادون على لغتها وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر ، كان لفرنسا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليهم غيرهم = إذا كان مشروع نابليون ، الذى يرادُ به تكوين حزبِ للفرنسيين فى مصر ، معتمداً على الوُلاة من المماليك ومشايخ البلدان الذين يتولَّون حُكْم البلادِ فى زمانه ، فإن

« جومار » قد طَوَّر هذا المشروع تطويراً كبيراً ، بعد خمسٍ وعشرين سنة من رحيل الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ م = ويكوِّن حزباً لفرنسا فى مصر أخطر من حزب نابليون .

لقد سنحت لجومار أعظمُ فرصةٍ باستجابة محمد على لإرسال بعثات إلى أوربة ، فبنى مشروعه ، لا على كبار السنّ من المماليك ومشايخ البلدان ، بل على شبابٍ غَضّ يَبْقَون فى فرنسا سنواتٍ تطول أو تقصُر ، يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسَا وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزباً لفرنسا ، وعلى مرّ الأيام يكبرون ويتولَّوْن المناصبَ صغيرَها وكبيرَهَا ، ويكون أثَرُهم أشدّ تأثيراً فى بناء جماهيرَ كثيرة تبثُّ الأفكار التى يتلقَّونها فى صميم شعب دار الإسلام فى مِصْر . هكذا طوّر جومار مشروع نابليون الذى لم يستطع « كليبر » أن يحققه وهلك دونه .

...

نجح جُومار ، ونجح « الاستشراق » وقناصله فى إغراء محمد على بإرسال بعثةٍ كبيرة من شباب مصر إلى فرنسا فى يوليه سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤٢ هـ) ، وتتابعت هذه البعثات إلى سنة ١٨٤٧ م (سنة ١٢٦٤ هـ) ، وكانت كلُّها تحت إشراف « جومار » يصنعُها على عينه . كانوا شبَّاناً صغاراً ، ليس فى عقولهم ولا قُلُوبهم إلا القليلُ الذى لا يُغنى من « الثقافة المتكاملة » التى عاشت فيها أمَّتهم قروناً متطاولةً ، ووضعهم جومار تحت أيدى « المستشرقين » يوجِّهونهم من حيث لا يشعرون إلى الجهة التى يريدونها ، ويُعْطونهم القدرَ اليسيرَ المتَّفَق عليه بينهم من العلوم التى يدرسونها ، ثم يردُّونهم بعد سنوات قلائل إلى مصر ، وإلى دولة محمد على التى أسَّسها ، وهو ودولته فى قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ومَشُورتهم ، لا يستطيع فكاكاً منها ، لأنه كان جاهلاً لم يتعلَّم علماً قطُّ ، حتى الخط والكتابة لم يتعلمهما إلاّ وهو فى الخامسة والأربعين من عمره (سنة ١٨١٥ م / ١٢٢٩ هـ) .

كانت أوّل بعثة فى سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤١ هـ) ، فيها ٤٤ تلميذاً ، أدخلهم مسيو جومار المدارس الفرنسية ، ليتلقّوا اللُّغة والعلومَ والفنون ، ثم أعيدوا بعد سنوات قلائل إلى بلادهم يتولّون المناصب والأعمالَ . وهذا شىءٌ غريبٌ جدًّا أن يكون هؤلاء الشبان قد حازوا فى سنواتٍ قلائل من العلوم والفنون التى شابت نواصى العلماء فى سبيلها ، ما يؤهلهم للتدريس والصناعات والأعمالِ وجلائل الأمورِ . شىءٌ غريبٌ جدًّا !! وهم قبل سَفَرهم لم يحصّلوا من هذه العلوم والفنون الجديدة شيئاً يذكر ، أليسَ هذه الدعوى غريبة كل الغرابة ؟

• وكانَ فى هذه البعثة الأولى ، رجُلٌ قد خرج مع البعثة إمَاماً لها ، ليراقب أفرادَ البعثة ، ويصلّى بهم الصلوات الخمسَ ، هو « رفاعة رافع الطهطاوىّ » ، وُلِدَ بمدينة طهطا بمديرية جرجا سنة ١٢١٦ هـ ، (١٨٠١ م) فى أسرة رقيقة الحالِ ، فأتمَّ حفظ القرآن ، وقرأ شيئاً من مُتون العلم المتداولة على بعض العلماء فى بلده ، ثم تُوفِّى والده رحمه الله ، فرحل إلى القاهرة وهو فى السادسةَ عشرةَ من عمره ، (١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م) ، وانتظم فى سلك طَلبة الأزهر ، يتلقَّى العلم عن شيوخه ثمانى سنوات ، وكان محبًّا للأدب . وفى سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م عُيِّن واعظاً وإماماً فى أحد ألايات جيش محمد على . فهذا إذن شابٌّ فى الثالثة والعشرين من عمره ، لا يمكن أن يكون قد بلغ مبلغاً له شأنٌ يذكر فى « الثقافة المتكاملة » التى عاشت فيها أمَّتُه ثلاثةَ عَشَر قرناً فى حضارة متكاملةٍ متراحبةٍ مترامية الأطرافِ ، متباينةِ الدَّرجات ، متنوِّعة العلوم ، قد بلغت فى العَظَمةِ والجلالةِ مبلغاً لم تدركه قبلها أمةٌ من الأمم .

ثم يُخْتارُ هذا الشابّ فى سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٦ م ليصحبَ بعثة إلى فرنسا ، يكون إماماً لأعضائها . كان ذكيًّا ، نعم . كان محبًّا للعلم والأدب (أدب عصره وشعر عصره) ، نعم . كان قوىَّ العزيمةِ ، نعم . كان نابهاً بين أقْرانه ، نعم ، ولكنَّه على ذلك كُلّه فى

الخامسة والعشرين من عمره ، غَرِيرٌ بَيِّنُ الغَرارة ، طَرِيُّ العُود ، قد جاء من أقصى الصَّعيد ، ومن ظُلُماته وبؤسه وفقره وخَصاصته ، وهو فى السادسة عشرةَ من عمره ، ثم أقام تسعَ سنواتٍ فى القاهرةِ ، فى حَوَارى الأزهر المهدَّمة المخرَّبةِ بيوتُها بفعل الفرنسيس ، الضيِّقة طُرُقاتها ، المظلمة أزِقَّتُها = ثم يركبُ سفينة فرنسية تتلألأ أنوارُها تَرْمِى به إلى قلب باريسَ (فى القرن التاسع عشر) ، بحدائقها وميادينها وأنوارِها ومَبَاهجها ، وما لا رأته من قبل عينٌ كعينه ، وما لاَ خَطَر على قلبٍ كقلبه . أىُّ فِتْنةٍ تذهبُ بعقل هذا الفتى ، وترجُّه رجًّا لا قِبَل لمثله باحتماله ؟ وكذلك كان !

أىُّ صَيدٍ سمينٍ تلقَّفه « المسيو جومار » بخبرته وحُنْكتِه وتجربته وبَصَره النافذ ؟ فتًى ناشئٌ فى قلب الأزهر ، ذكىٌّ ، محبٌّ للعلم والتحصيل ، قوىُّ العزيمة ، رآه مفتوناً بالأرض التى وطئتها قدمُه ، لم يَرَ مثلها من قبلُ ، ورآه مُقْبِلاً بأقصى عزيمته على تعلُّم لُغَته الفرنسيَّة ، معجباً بها وبأهلها كُلَّ الإعجابِ ، فأخذه « جومارُ » من قريب ، فكان له صيداً أىَّ صيدٍ ! يقول الرافعى المؤرخ المدجَّن فى كتابه (٣ : ٤٧٦) : « ولقد كان معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة ، فلم تتحرك نفس أحدٍ منهم إلى الاغتراف من مناهل العلم فى فرنسا (!!) ، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة ، أما الشيخ رفاعة ، فكان ذَا نفس طامحةٍ إلى العُلا ، فأخذ يدرسُ اللغة الفرنسية ، وعَكفَ عليها من تِلقَاء نفسه ، رغبةً منه فى تحصيل علومها وآدابها » . ويقول رفاعة الطهطاوى نفسه أنه قضى فى تعلُّمها ثلاث سنوات .

ولم يكدْ حتى أخذ « المسيو جومار » بناصيته ، وأسلمه لطائفة من « المستشرقين » ، يصاحبونه ويوجِّهونه ، وعلى رأسهم أحد دهاقين « الاستشراق » الكبار ودُهاته ، وهو المستشرق المشهور البارون « سلفستر دى ساسى » . لم يكن لهذا الفتى الأزهرى الصعيدى المفتون مَخْلَصٌ من أحابيلهم ودَهائهم ومَكْرهم ورقّة حاشيتهم ومداهنتهم ، فاستغلُّوه أبرعَ استغلالٍ ، وصبُّوا فى أُذُنيه ، وطَرَحوا فى قَرارةِ قلبه معانىَ

وأفكاراً قد بيّتوها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمراتِها حين تَنْمو فى دَخِيلة نَفْسه ، [1] وهم يزيدونه فتنةً بإشهاده روائع المحافِل التى تتألّقُ أنوارها ، وتتألق تحت أنوارها أيضاً مفاتن النساء الكاسيات العاريات ، والرجال ذَوِى الأُبَّهة يختالون فى شمائل الرقَّة الفرنسية ، فزادوه فِتْنةً ، وزادوا غفلته غَفْلةً ، وانتزعوه انتزاعاً مما كان يعيش فيه من ظُلمات الصعيد وبُؤسه وفَقْره ، ومن حوارى الأزهر المخرَّبة وطرقاتها الضيقة وأزقّتها المظلمة ، حتى نَسِى نَفَسهُ التى صاحبَها خمساً وعشرين سنة ، وتنكَّر لماضِيه القريبِ وأعرضَ عنه ، وسارع ينجُو بحياته الجديدة من خطاطيفِه التى تلاحقه .

وقضى رفاعة رحمه الله ست سنوات فى باريس من سنة ١٢٤١ – ١٢٤٦ هـ ، (١٨٢٦ – ١٨٣١ م) ، قضى ثلاث سنوات منها فى تعلُّم اللغة الفرنسية كما قال هو بلسانه ، وفى الثلاث الأُخَر درس التاريخ ، والجغرافيا والفلسفة ، والآداب الفرنسية ، وقرأ مؤلّفات فولتير وجان جاك روسُّو ، ومنتسكيو ، وقرأ بعض الكتب فى المعادن ، وفنّ العسكرية ، والرياضيات ، (انظر كتاب الرافعى ٣ : ٤٧٦ وما بعدها) = فحدِّثنى بربِّك كيف تكون دراسة هذه المتنوعات فى ثلاث سنواتٍ ، إلاّ أن يكون ذلك كُلُّه خطفاً كحَسْوِ الطائر ، وأن يكون ما أَلَّفه رفاعة وكتبه سطواً مجرَّدا على كُتُبٍ كُتِبَتْ فى هذه العلوم المختلفة المتباينة ، والله أعلم بما فيها من الزلل والخطأ وسوء الفهم . ولكن رفاعة الطهطاوى على ذلك كُلِّه إمَامٌ جاء يُخرج مصر وأهلَها من الظُّلُمات إلى النُّور !! يا للعجب !

ولكنّ هذا الرجل الطيِّب يُحَمَّل من العبقرية فى إنشاءِ « مدرسة الألسن » ، ما حُمِّل محمد على ، الجاهل الذى لم يتعلم قطُّ ، من العبقرية فى الاهتداء إلى إرسال

---

(١) انظر مثال ذلك ، ما ضمنه كتابه . « أنوار الجليل ، فى أخبار مصر وتوفيق بن إسمعيل » من الدعوة إلى استعمال العامية « التى يقع بها التفاهم فى المعاملات السائرة ، ولا مانع أن تكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصولٌ على حسب الإمكان تربطها ، ليتعارفها أهل الإقليم ، حيث نفعها بالنسبة لهم عميم ، وتصنَّفُ فيها كتب المنافع العمومية ، والمصالح البلدية » ، أو كما قال رحمه الله !! انظر كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٥٩ ، ١٦٠ .

« البعثات العلمية » إلى أوربة ، وفرنسا خاصةً ! (انظر ما سلف : ١٣٩) ، وقصة إنشاء « مدرسة الألسن » ، فى سنة ١٨٣٦ م (أى بعد عودته بخمس سنوات) ليست من فكر رفاعة الطهطاوىّ ولا من بنات عبقريته ، ولكنها ثمرةٌ من ثمار « الاستشراق » ودُهاته الذي احتضنوهُ وربَّوْه وغذَّوْه ونشّأوه مدةَ إقامته فى باريز ، وكما يقول الرافعى : « كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلّية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشريعة الإسلامية ، والشرائع الأجنبية ، فهى أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق ، فلا غَرْوَ أن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر » ، ما أعجب أحكام هذا المؤرخ المدجَّن !

وبأقلّ التأمُّل فى مناهج « مدرسة الألسن » تعلم يقيناً لا شكَّ فيه أنّ رفاعة الطهطاوى نفسَه لم يكنْ مؤهَّلاً لتدريس أكثر هذه العلوم ، ولا كان فى مصر يومئذ من المصريين مَنْ هو مؤهَّل لتدريسها ، فلا مَنَاصَ من استقدام منْ يُظَنُّ فيه أنه مؤهَّل لتدريسها من الأجانب ومن « المستشرقين » خاصةً ، وكذلك كان ، فكان هؤلاء الدُّهاة من صنائع « الاستشراق » هم الذين تولّوا تثقيف ١٥٠ تلميذاً كان رفاعة الطهطاوى يختارهم صغاراً من مدارس الأرياف والأقاليم ، ومن طلبة الأزهر . وبذلك وضَع رفاعة الطهطاوى أساساً لمدرسةٍ مُلَفّقة ، (لا كلية ، كما يقول الرافعى) مبتورة الصِّلة كُلَّ البَتْر ، من مركز « الثقافة المتكاملة » التى كان الأزهر مَهْدها على قرون متطاولةٍ ، وكان هو وحده على طول هذه القرون ، مركز ثقافة دار الإسلام فى مِصر . وكذلك أحدث رفاعة الطهطاوى صَدْعاً مُبيناً فى ثقافة الأمّة ، وقَسَمها إلى شطرين متباينين : « الأزهر » فى ناحية ، و « مدرسة الألسن » فى ناحية ، وكذلك حقّق رفاعة لدهاة « الاستشراق » أهمّ ما يتوقون إليه ، من وَأْدِ « اليقظة » الواحدة المتماسكة التى كان الأزهر مركزها منذُ عهد « البغدادى » ، و « الزَّبيدى » و « الجبرتىّ الكبير » = وفى وقت كان فيه محمد على

الجاهل يحطِّم أجنحة الأزهر ، ويضعُه فى قفصٍ لا يستطيع الإفلاتَ مِنه ، ويدبِّر كل مكيدة لإسقاط هيبته وهيبة مشايخه ، ويعزلهم عن جمهور الأمَّة عَزلاً بين قُضْبان من الحديد وجُذْرانٍ من الصُّخور = ومرَّت الأيام والسنون ، وهذا الصَّدع يتفاقم ، حتى انتهينا إلى ما نحنُ عليه اليوم من الانقسام والتفريق ، وذهبت « الثقافة المتكاملة » فى دار الإسلام فى مصر أدراجَ الرياح .

• • •

٢٤ - وُئِدت « اليقظة » التى كان الخمسةُ الكبارُ أبطالَها وصناديدَها ، (ما سلف : ٨٢) ، وكانَ ذلكَ نصراً مؤزّرًا ناله « الاستشراق » بدهائه ومكْره وثاقبِ نظَرِه ، نالَهُ من وراءِ غَفْلةِ دارِ الإسلام فى مصر ، ومن وراء الجَهْل الذى أُسْنِدتْ إليه أمورُ البلاد ومصائرُها ، وأقام « الاستشراقُ » على قبر « اليقظة » بناءً جديداً راسخَ الأَساس ، ظَل يرعاهُ ويحوطُه ويزيدُه رُسوخاً ومتانةً واتِّساعاً وسُمُوقاً ، يضمن للمسيحية الشمالية الغلبةَ والسيطرةَ وتمامَ التمكُّن من إخضاعِ دار الإسلام لأهدافه وغاياته ، بلا قعقعة سلاحٍ ، وبلا مُواجهةٍ بين « ثقافتين متكاملتين » تتصارعان كِفاحاً ، فإمّا تتعايشان على هذا الصراع ، وإمّا يحكِّمان السلاحَ حتى يُقْضَى لإحداهما على الأخرى بالغلبة ، ثم يصطلحان على حُسن المعايشة وإيثار السِّلم . أمّا الآن فقد انقلبت الموازين ، ومُزِّقت « الثقافة المتكاملةُ » فى دار الإسلام ، وانفردت « الثقافة المتكاملة » فى ديار المسيحية الشمالية ، بلا قِرْن يكافئُها وينازلُها ، وإنمّا هو الخضوعُ والاستكانةُ لا غيرُ . وقُضى الأمر الذى فيه تستفتيان !

وذهبَ محمد على سرششمّة، وذهَبَ ملكُه وهلك ، وجاء من بعده أولاده وهم فى قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ، والتصدُّع فى ثقافة دار الإسلام يتفاقم ، والبعثاتُ الخاضعةُ المستكينة تتوالى ويقعُ أعضاؤها فى قبضة « الاستشراق » يصنعُ أعضاءَها على

عينه ، والبليّة التى أحدثها رفاعة الطهطاوى تتعاظم ، وصارَ الأزهر الذى كان فى يديه تعليم الأمَّة أسيراً يرسُفُ فى أصفادِهِ وأغلاله منتبذاً ناحيةً ولا يدخُلهُ إلاَّ أبناءُ الفقراء والمساكين = ونازعتْه تعليمَ الأمّة المدارسُ الجديدة التى وضع أساسها رفاعة الطهطاوى فى مدرسة الألسن ، وانشطر تعليم الأمة شَطْرين ، ونمت هذه المدارس وتكاثرت ، يدخلها أبناء الموسرين والمستورين ، وجعلت الهوَّة بين الأزهر والمدارس تتَّسع ، وأصبحت المناهج تتباينُ تبايُناً شديداً . أمّا مناهج الأزهر فى عُزْلته فجعلت تضعُف وتَذْوِى وهى على بنائها القديم ، وأما مناهج المدارس فجعلت تنمُو ولكنّ نموَّها قائم على القشور التى تغُرُّ ولا تُغْنِى فتيلاً ، على نفس الأساس الذى وضعه رفاعة الطهطاوى ، وجعلت تزدادُ تباعُدًا مقطوعَ الأواصِرِ من « الثقافة المتكاملة » التى عاشت بها الأمَّة قروناً متطاولة . لم تكن هذه المدارس نابعةً من « الثقافة المتكاملة » التى تجدّد نفسها تجديداً يزيدها قوةً ووضوحاً ، بل كانت غِراساً غريباً يزيدها بُعْداً وانقطاعاً عن أصول « الثقافة المتكاملة » لدار الإسلام فى مصر ، ولا تَكسِبُها قوَّةً ووضوحاً ، بل تكسِبُ أبنَاءَها تنكُّراً وإعراضاً واحتقاراً أيضاً لتلك « الثقافة المتكاملة » التى عاشت بها أمَّتهم = وكذلك صارَ أبناؤها حِزْباً جديداً ، مَيْلُه وحُبُّه وإكبارُه للمصدر الذى صَدَر عَنْه ما تعلّموه ولم يتعلموا غيره ، كما أرادَ نابليون بمشروعه الذى عَهِد به إلى خليفته « كليبر » ، (انظر ما سلف : ١٠٨ وما بعدها) ، وطوّرهُ تطويراً كبيراً المسيو جومار (انظر ما سلف : ١٤٠ ، ١٤١) . وتمَّ بذلك البلاءُ الماحق ، والأمْرُ لله من قبل ومن بعدُ .

ومضت الأيام والسنونُ ، حتى جاءَ الاحتلال الإنجليزى فى ثانى ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) ، ويظلّ يرسّخ قدميه فى البلاد ، وبعد قليل رأى « الحزبَ » الذى أنشأه « الاستشراقُ » الفرنسيُّ غالباً على جمهور طلبة المدارس ، فبدأ « الاستشراق » الإنجليزى يدمّر كل ما أنشأه الفرنسيس من مدارس ويشتتها ، فلما استقرت أقدام الاحتلال الإنجليزى فى مصر ، رأى « الاستشراق » الإنجليزى أن يبدأ فى

تكوين « حزب » قوىّ يناصره عن طريق التحكُّم فى التعليم ، فأسند أمر التعليم إلى قِسّيس مُبَشِّرٍ عاتٍ خبيثٍ هو « دنلوب » ، فذُعر « الحزب الفرنسىّ » ، وَنشرت جريدة الأهرام التى كان صَغْوُها كلُّه إلى الفرنسيس ، خَبَرَ « دنلوب » بعبارة دالَّة كل الدلالة على هذا التحوُّل العظيم الذى أفزع حِزْب فرنسا ، فنشرت فى عددها المؤرخ ، يوم ١٧ مارس سنة ١٨٩٧ م ما يأتى :

« قُضِىَ الأمر ، وصدر الأمرُ العالى بتعيين المستر دنلوب سكرتيراً عامًّا لنظارة المعارف ، وقد شرعَ المستر دنلوب ، بعد الاتفاق مع اللورد كرومر ، فى هدم الدراسة الثانوية التى هى أعظمُ أركان المعارف » .

فانظر إلى قول الأهرام « قُضِىَ الأمْرُ » ، وما تحمله هذه الجملة القصيرة من الرُّعب الدَّالّ على فزع « الاستشراق الفرنسىّ » من هذا الحَدَث المؤدِّى إلى القضاءِ على « حزب فرنسا » الذى أنشأته المدارس القديمة ، وتخوُّفِه من هذا « الحزب الإنكليزى » الجديد الذى يتولَّى « الاستشراق الإنجليزى » إنشاءَه عن طريق المدارس التى سوف يشرف عليها « دنلوب » القِسّيس المبشِّر الداهية .

ونقول نحنُ أيضاً : « قُضِىَ الأمر » ، وجاء « الاستشراق الإنجليزى » ليُحدِث فى ثقافة الأمة المصريّة صدعاً متفاقماً أخبثَ وأعتَى من الصَّدْع الذى أحدثه « الاستشراق الفرنسى » ، ووضع دنلوب أُسُس « التفريغ » الكامل لطلبة المدارس المصرية ، أى تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفِّق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ومَهَّدَ إلى ملئِه بماضٍ آخر بائدٍ فى القِدَم والغموض ، لم يبق من ثَقافته شىءٌ البتّة ، ليزاحم هذا الماضى الفارغُ بقايَا الماضى المتدفِّقِ الحىِّ الذى يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصل ، ويجعل أجيال طلبة المدارس فى حيرةٍ مدمِّرةٍ بين انتماءين ، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة فى كتب أسلافهم ، وبين الانتماءِ إلى الفرعونية التى بادت وبادت ثقافتها ولم يبق

منها إلاّ أطلالٌ من الحجارة ، مهما بلغت فى العظَمة والجلال ، فهى فارغة من ثقافةٍ حيَّةٍ تتدفَّق فى القلوب والعقول والألسنة ، إنّما هى آثارٌ لا تُغْنِى شيئاً ولا تُؤْتِى ثَمرة .

وأيضاً فإن هذا « التفريغ » سوف ينشىءُ أجيالاً من « تلاميذ المدارس » تَتَهتَّك علائقُها التى تربطُها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعيًّا وثَقافيًّا ولُغَويًّا ، حتى يتمّ تفريغها تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُلِّه ، ثم يملأُ هذا الفراغَ علومٌ وآدابٌ وفنونٌ لا علاقة لها بماضيهم ، وإنّما هى علوم الغُزاةِ ، وفنونُ الغُزاةِ ، وآداب الغُزاةِ ، وتاريخ الغُزاة ، ولغاتُ الغُزاةِ . ومع كُلّ ذلك ، فإن هذا القدرَ من العلوم والفنون والآداب إنما هى قُشُورٌ ومقتطفاتٌ تُوهِمُ النفوسَ الظامئة المُفَرَّغة بأنها نالت شيئاً يُذْكر ، والحقيقة أنّها نالتْ غذاءً تعيشُ به مَوْتَى فى صورة أحياء لا غيرُ .

• وقد قصصتُ قصَّة هذا التفريغ فى مقدّمتى لكتابى « المتنبّى » وسميتها « لمحة من فساد حياتنا الأدبية » ، (اقرأ المقدمة : ٢٠ – ٢٩) ، وقد قصصتُ عليك هنا قصة هذا الفساد العريق من حيث بدأ إلى حيثُ انتهى . فهذا كُلّه جوابُ السؤال الذى بدأتُ به الفقرة العاشرة (ص : ٢٣) :

« وإذن ، فكيف نشأ الخلاف ، ولم نشأ الخلافُ ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدةِ ، كانت ولا تزالُ ، فى حياتنا الأدبية ، حتى رفضتُها رفضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير متلجج ، منذ بدأتُ قديماً أحسُّ إحساساً مبهماً أنّ حياتَنا الأدبية فاسدةٌ من كُلِّ وجه ، كما حدَّثتك آنفاً ؟ (اقرأ الفقرة : ١) .

ومع طول حديثى هنا ، فإنى اختصرتُه اختصاراً أرجو أن يكون غير مُخِلٍّ ، وعسى أن أكون قد أدّيتُ بعضَ أمانةِ القلم وبعضَ أمانَةِ العلم ، وأدَّيتُ أيضاً ، أيها القارىء ، بعضَ حقِّك علىّ = وعَسَى أن أكون قد بلغتُ مبلغاً يُرْضى الله ورسولَه فى اتّباع أمره إذ

قال ﷺ : « ألا لاَ يَمْنَعَنّ رجُلاً هَيْبةُ الناسِ ، أن يَقُولَ بحقٍّ إذا عَلِمه » ، وهو حديثه ﷺ الذى بدأتُ به هذه الرسالة ، (اقرأ ص : ٥) ، والحمدُ لله وحده ، وصلَّى الله على محمد عبده ورسوله ، وعلى أصحابه وخِيرتِه من خلقه ، وعلى التابعين وتابعيهم ، حَفَظةِ العلمِ ، والناطقين بالحق والداعين إليه ، ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله . اللهمَّ اغفرْ لى ما قدَّمتُ وما أَخَّرْتُ ، ومَا أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أسرفتُ ، وما أنت أعلم به منِّى ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر ، لا إله إلاّ أنت .

* * *

ذَيْل الرسالة

والآن ، لم يبقَ إلا أن أضَع بين يديك قصَّةَ « التَّفريغ الثقافى » الذى ختمتُ به كلماتى آنفاً فى « رسالةٌ فى الطريق إلى ثقافتنا » ، أنقلها من كتاب « المتنبّى » ، [ص : ١٩ - ٣٤] ، فى التصدير الذى سمَّيتُه : « لمحةٌ من فساد حياتنا الأدبية » ، وفيها شهادتان :

شهادتى أنا من موقعى بين أفراد جيلى الذى أنتمى إليه ، وهو جيلُ المدارس المفرَّغ من كُلّ أصول ثقافة أمته ، وهو الجيلُ الذى تَلقَّى صَدْمة التدهوُرِ الأولى ، حيث نشأ فى دُوَّامةٍ من التحوّل الاجتماعى والثقافى والسياسى .

وشهادةُ الدكتور طه حسين من مَوْقع « الأستاذيّة » لهذا الجيل .

فاقرأهما بتدبُّرٍ وأَناةٍ ، حتَّى تُلِمَّ بأطراف البلاءِ الذى حاق بى وبك وبأمتك العربية الإسلامية ، وحتى لا تدخُلَ تحتَ المعنى الذى قالَهُ أبو عُبَادة البحترىّ:

ومِنَ العجائبِ ، أعيُنٌ مفتوحَةٌ   وعقولُهُنَّ تجُولُ فى الأحْلامِ

= أحلامِ « النهضة » و« التجديد » و « الأصالة والمعاصرة » و « الثقافة العالمية » ، وأحلامٍ أخرى كثيرة لا تنقضِى !! أحلامٌ جعلتْ صَدْمة التَّدهوُر مستمرّةً مُتَماديةً متفاقِمةً إلى هذه الساعة التى تقرأُ فيها هذه الرسالة ، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ .

قلتُ : «ومرَّت الأيَّام والليالى والسنون ما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ وهى السنة التى كتبت فيها هذا الكتاب «المتنبى» وهمّى مصروفٌ أكثرهُ إلى «قضية الشعر الجاهلىّ» ، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لا معارضةً لأحدٍ من الناس . ومشت بى هذه القضية فى رِحْلة طويلة شاقَّة ، ودخلت بى فى دُرُوبٍ وَعْرةٍ شائكةٍ ، وُكلَّما أوغلتُ

انكشفت عنى غِشَاوةٌ من العَمَى ، وأحْسَسْتُ أنى أنا والجيلُ الذى أنا منه ، وهو جِيل المدارس المصرية ، قد تمَّ تفريغُنا تفريغاً يَكادُ يكون كاملاً من مَاضينا كُلِّه ، من علومه وآدابه وفُنُونه . وتَمَّ أيضاً هَتْك العلائق بيننا وبينه ، وصارَ ما كان فى الماضى متكاملاً متماسكاً ، مِزَقاً متفرِّقة مبعثرةً تكاد تكون خاليةً عندنا من المعنى ومن الدلالة . ولأنه غير ممكن أن يظلَّ الفارغُ فارغاً أبداً ، فقد تَمَّ مَلْءُ هذا الفراغِ بجديدٍ من العلوم والآداب والفنون ، لا تمتُّ إلى هذا الماضى بسببٍ ، وإنَّنا لَنستقبلُه استقبالَ الظَّامىءِ المحترق قطراتٍ من الماء النَّمير المثلَّج .

فى خلال هذه الأعوام ، تبيّن لى أمرٌ كان فى غاية الوضوح عندى . وهو قصَّة طويلةٌ قد تعرَّضت لأطرافٍ منها فى بعض ما كتبتُ ، (١) ولكنى أذكرها هنا على وجه الاختصار . صار بيِّناً عندى أننا نعيش فى عالم منقسمٍ انقساماً سافراً : عالمُ القوَّة والغنى ، وعالمُ الضعفِ والفقر = أو عالم الغُزاةِ الناهبين ، وعالم المستضعفين المنهوبين . كانَ عالم الغزاةِ الممثَّل فى الحضارة الأوربية ، يريد أن يحدث فى عالم المستضعفين تحوُّلاً اجتماعيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا ، فهو صَيْدٌ غزيرٌ يُمِدُّ حضارتهم بجميع أسباب القوة والعلوِّ والغنى والسلطان والغلبة . والطريق إلى هذا التحوُّل عملٌ سياسىٌّ محضٌ ، لا غايةَ لهُ إلاّ إخضاعُ هذا العالم « المتخلف » إخضاعاً تامًّا لحاجات العالم « المتحضر » التى لا تنفد ، ولسيطرته السياسية الكاملة أيضاً . ومع أنّ هذا العمل السياسى المحض المتشعِّب ، قد بدأ تنفيذه منذ زمن فى أجزاء متفرقة من عالمنا ، إلا أنه بدأ عندنا فى مصر ، قلب العالم الإسلامى والعربى ، مع الطلائع الأولى لعهد محمد على ، بسيطرة القناصل الأوربية عليه وعلى دولته ، وعلى بناء هذه الدولة كُلِّها بالمشورة والتوجيه . ثم ارتفع إلى ذروته فى عهد حفيده إسماعيل بن إبرهيم بن محمد على الخديوى ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرةً على كُلِّ شئ ، وعلى التعليم

(١) بعض ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » .

خاصة ، إلى آن جاء « دنلوب » فى (١٧ مارس ١٨٩٧) ، ليضع للأمة نظام التعليم المدمِّر الذى لا نزالُ نسيرُ عليه ، مع الأسف ، إلى يومنا هذا .

كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متعدِّد الجوانب ، وكان قوامُه إعدادَ أجيال من « المبعوثين » يعودون من أوربة ليكونوا قادةَ هذا التحوُّل الرفيق العميق ، ويرادُ منهم أن يؤسِّسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحوُّل إلى غايةٍ يُرَادُ لنا أن نبلُغَها على تمادى الأيام . وكان الغُزاةُ يقنعون يومئذ من هؤلاء المبعوثين ، بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكارٍ يردّدونها ترديد الببغاوات ، تتضمّن الإعجاب المزهُوَّ ببعض مَظَاهر الحياة الأوربية ، مقروناً بنقد بعض مظاهر الحياة فى بلادهم = وبأن يكاشفوا أمَّتهم بأنّ ما أعجبوا به هو سرُّ قوة الغزاة وغلبتهم ، وأن الذى عندنا هو سِرّ ضعفنا وانهيارنا . وقد وجدتُ ذلك ظاهراً ممثلاً أحسن تمثيل عند رفاعة الطهطاوى وأشباهه . ولكن لما جاء عهد « دنلوب » ، كان أمر المبعوثين وحده لا يكفى ، وأصبح الأمر محتاجاً إلى ما هو أكبر وأوسعُ انتشاراً . فكان الرأىُ أن تنشأ أجيالٌ متعاقبةٌ من « تلاميذ المدارس » فى البلاد ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحوّل ، عن طريق تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُلِّه ، مع هَتْك أكثر العلائق التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعيًّا وثقافيًّا ولغويًّا ، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنها فنونهم هم ، وآدابهم هم ، وتاريخهم هم ، ولغاتهم هم ، أعنى الغزاة .

وقد تولى نظام « دنلوب » تأسيس ذلك فى المدارس المصرية ، مع مئاتٍ من مدارس الجاليات التى يتكاثر على الأيام عددُ من تضمُّ من أبناء المصريين وبناتهم . وقد كان ما أراد الغزاةُ ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمرًّا على ما أرادوا ! بل زادَ بشاعةً وعمقاً فى سائر أنحاء العالم العربىّ والإسلامىّ بظهور دعوات مختلفة ، كالدعوة إلى الفرعونية والفينيقية وأشباه ذلك ، فى الصحافة والكتب المؤلفة . لأن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفِّق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ، يحتاجُ إلى ملء بماضٍ آخر يغطِّى عليه ، فجاءوا بماضٍ بائدٍ مُعْرِقٍ فى القِدَمِ والغموض ، ليزاحم بقايا ذلك الماضى المتدفِّق الحىّ الذى يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصِلِ .

فى ظلّ هذا التفريغ المتواصل ، وهذا التمزيق للعلائق ، وهذه الكثرة التى تخرجُ مفرَّغةً أو شِبْهَ مفرّغة إلى « البعثات » ، وهذا التحوُّل الاجتماعى والثقافى والسياسى المضطرب ، وهذا التغليب المتعمّد للثقافة الغازية واللغات الغازية ، بلا مقابل فى النفوس من ثقافة ماضية حيَّة حياة ما ، وباقيةٍ على تماسكها وتكاملها = فى ظل هذا كُلّه ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ولكنه يقومُ على أصلٍ واحدٍ فى جوهره ، هو ملءُ الفراغ بما يناسبُ آداباً وفنوناً غازية كانت قد ملأت بعضَ هذا الفراغ ، فهى تحدثُ فى النفوس تطلُّعاً إلى زادٍ جديد منها .

فالمسرحُ مثلاً ، وكان له شأنٌ أىُّ شأنٍ ، يعتمد اعتمادًا واضحاً على المسرح الأوربىّ فى تكوينه كُلِّه . وأيسر سبيلٍ كانَ إلى إمدادِه بمادّته ، هو « السطو » على مؤلفات المسرح الأوربىّ ، مسلوخةً يعادُ تكوينُها بألفاظ عربيّة ، أو عامية على الأصحّ ، ودون إشارة إلى هذا « السطو » ، وكانوا يسمُّون هذا حياءً ومكراً : « التمصير » !! بيد أنه عبثٌ مجرّدٌ ، وسطوٌ لا رقيبَ عليه . أمَّا الكتَّاب الجادُّون ، فكان أكثرُهم يعتمد على تلخيص نتاج الفكر الأوربىّ فى الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصاً مَّا ، وإن كان أكثره خطْفاً وسطواً ينسبُه الكاتب إلى نفسه بلا رقيبٍ ولا محاسب .

والقِصَّةُ أيضاً ، كانت ضرباً من « السطو » والتقليد ، تُحوَّر فيها الأسماء والأماكن والوقائع ، ثم تُرقَّع بأفكارٍ مسلوبة مختطفة ، ثم توزَّع توزيعاً ماهراً على فصولها المختلفة ، حتى تضمن لأصحابها إخفاء معالم السطو والانتهاب والتقليد . [وهذا أمرٌ لم يزل مستمرًّا بقوَّةٍ إلى يومنا هذا] .

وبالثرثرة واللجاجة فى الصحف والمجلات ، صارت هذه الظاهرة مألوفةً لا غُبار عليها . وزادها رسوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج ، محفوفة بألفاظ مبهمة مغريةٍ تقبلها النفوس بلا ممانعة ، وهى قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ! [1] والنظر فى حقيقة هذه القضية يفضى إلى شيئين ظاهرين : ميلٍ ظاهرٍ إلى

---

(١) فى السنوات الأخيرة ، وُجِدت ألفاظٌ جديدة محفوفة بالغموض ، مؤسسة على الثرثرة ، من مثل قولهم : « المعاصرة » و « الحداثة » و « التحديث » .

رفض « القديم » والاستهانة به ، دون أن يكون الرافض مُلِمًّا إلماماً ما بحقيقة هذا « القديم » = وميلٍ سافرٍ إلى الغلوّ فى شأن « الجديد » ، دون أن يكون صاحبُه متميِّزاً فى نفسه تميُّزاً صحيحاً بأنه « جدّد » تجديداً نابعاً من نفسه ، وصادراً عن ثقافةٍ متكاملة متماسكة ، بل كل ما يميِّزهُ أن الله قد يسَّرَ له الاطلاع على آداب وفنونٍ وأفكارٍ تعب أصحابها فى الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة !! وكفى الله المؤمنين القتال !

هذه خُطُوط من صُورةٍ ، لجانب من الحركة الأدبية والثقافية فى ذلك العهد ، وأكثرها باق إلى يومنا هذا ، ومقبول أيضاً بلا استبشاعٍ له .

ولكن هذه الصورة لا تتمُّ وحدها . فى خلال التحوُّل الاجتماعى الثقافىّ المتصاعد المتكاثر ، كان هناك جانبٌ راكدٌ مختنقٌ ، لم يفرَّغ هذا التفريغ ، ولكن ضُرِبَ عليه حصارٌ مفزعٌ وبيلٌ مُهينٌ . هذا الجانب كان هو الوارث للماضى المتكامل المتماسك ، ولكنه كان يزدادُ على مَرِّ الأيَّامِ تخَلخُلاً وتفكُّكاً وحيرةً وانطواءً . يمثّل هذا الجانب جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم وأشباههما . كان أكبر همّ هذا الجانب ، فى هذا اليمّ المتلاطم من حوله ، هو محاولة المحافظة على الماضى محافظةً مَّا ، ولكنّ قبضَته كانت تسترخى شيئاً فشيئاً تحت الحِصار ، وتحت القذائف المدمِّرة التى يُرْمَى بها ، والتى تزلزِلُ نفوس أبنائه من قواعدها . وكان مطلوباً طلباً حثيثاً أن تُفْتَح أبواب هذا الحصن العتيق المنيع ، لتدخُلَ عليه نفس العوامل التى أدَّت إلى تفريغ « تلاميذ المدارس » من ماضيها ، وإلى تهتُّك علائق ثقافته وعلومه ، وإلى ربطه بالحركة الأدبيّة الغازية المتصاعدة تحت ألوية « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ، وسائر الألفاظ المبهمة المغرية !!

وقد كانَ ، واحتاج شقُّ الطريق إلى هذه الغاية إلى وسائل كثيرة متنوّعة ، والذى يهُمُّنى منها هنا هو ما يتعلَّق بأمر « السطو » لا غيرَ . كانَ الذى يحولُ بينهم وبين بلوغ

هذا الغرضِ ، هو أن جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم ، لم يكن لهُم لسانٌ غير العربية ، قلّما كان يعرف أحدهم غير هذا اللسان ، فعمدوا ، فى مصر خاصةً ، إلى إجافة بابٍ يتيحُ لهم أن يطَّلِعُوا = أو يُصدمُوا على الأقلّ ، بما عند الحضارة الغازية من نظر ورأيٍ فى آداب العربية وعلومها وفُنونِهَا وتاريخها ودينها أيضاً !! كان هذا موفُورًا فى مؤلفات « المستشرقين » عامَّةً ، لأنّه هو كلّ عملهم فى « الاستشراق » المرتبط كلّ الارتباط بالاستعمار والتبشير ، أى بتدمير الأمم المستضعفة وتحطيم ثقافتها وآثارها وماضيها كلِّه . [1] فكان لابُدَّ ، إذن ، من نشر هذه الأفكار على نِطاق واسع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

انبرى لذلك رجالٌ كثيرون فى مصر والشام وغيرهما ، لا يربطُهم فى أنفسهم بهذا الماضى إلا اللسانُ العربىُّ وحده ، أما ضمائرهم فمرتبطة بشىء آخر. فكتبوا مقالات ونشروا كتباً فى آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها ، على قلّة معرفتهم بها معرفةً تتيح لهم الكتابة ، ولكنها كانت معبِّرة عن اتجاه « الاستشراق » لا غيرَ .

فكانت كُلُّها « سطوًا » مجرّداً على آراء المستشرقين ومناهجهم فى النظر ، مبثوثاً فى ثنايَا كُلِّ ما يكتبون . وكذلك تيسَّر لكل من لا يعرفُ غير العربية لساناً ، أن يجِدَ ، على مدّ يده ، شيئاً « جديداً » يقالُ عن ماضيه ، وبمناهج لم يألفها أيضاً . ولكنْ حال بين هذا الضرب من « السطو » ، وبين أن يكون شيئاً عامًّا مؤثِّراً تأثيراً نافذًا فى جمهور « المحافظين » الذين لا يعرفون غير العربية = أنهم رجال وفدوا إلى مصر مع استقرار الاحتلال الإنجليزى فيها (سنة ١٨٩٢) ، وكانت الشُّبْهةُ فيهم تُوجب الحذَر منهم ، فأضعف الحذَر أثر ما يكتبون فى أكثر القراء من هذا الجمهور ، وإن كان لهم فى جمهور « تلاميذ المدارس » المفرَّغين من ماضيهم أثر بليغٌ . ومع ذلك ، فإن الهدفَ لم يذهب هَدَراً ، فإنه على الأقل ، فتح الباب ويسَّر

---

(١) استوفيت بيان بعض هذا فى كتابى (أباطيل وأسمار) .

السبيلَ للساطين،وجعل « السطو » المباشرَ أمراً مألوفاً لا غبار عليه ، بل زاد فقرَّب إلى الأذهان سبيلَ الاقتناع بأنه ضربٌ من « التجديد » ، ومن متابعة « ثقافة العصر » ومناهج تفكيره فى الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم وعلومهم وفنونهم ودينهم أيضاً !!

ومعنى ذلك باختصار ، هو أنه صار الآن ممكناً أن يصبح من الممكن ومن السهل اليسير ، أن يكون معنى « الجديد » و « التجديد » فى دراسة آداب أمة ما وفى دراسة تاريخها : أن يعمد « المجدّد » إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولّى صياغتها مَنْ هو لَصِيقٌ دَخِيل عليها وعلى لسانها ، لم ينشأ فيه ، وإنما تعلَّمه على كِبَرٍ ، فهو لا يعلم منه إلا أقلّ القليل ، ومَنْ هو نابتٌ فى لسانٍ آخر بآدابه وعلومه وفنونه وعقائده ، ومَنْ هو محرومٌ بطبيعته من القدرة على تذوّقِ آدابها تذوّقاً شاملاً = والتذوّق وحدة عُقْدة العُقَد = ومَنْ هو مسلوبٌ كُلَّ إحساسٍ بتاريخها كُلّه ، فضْلاً عمّا يكنُّه فى سريرته من العداوة المتوارثة والبغضاء المتأججة ، ومن المصلحة المتجدّدة فى تشويه صورتها تشويهاً متعمَّداً لأغراضٍ « حضارية » !! = يا للعجب !

أهذا ؟ أمْ أن « الجديد » و « التجديد » ، لا يمكن أن يكون مفهوماً ذا معنىً ، إلاَّ أن ينشأ نشأةً طبيعيةً من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حيّة فى أنفس أهلها = ثم لا يأتى التجديد إلاّ من متمكِّن النشأةِ فى ثقافته ، متمكّن فى لسانه ولغته ، متذوِّقٍ لما هو ناشىء فيه من آداب وفنون وتاريخ ، مغروسٍ تاريخُه فى تاريخها وفى عقائدها ، فى زمانِ قُوَّتها وضعفها ، ومع المتحدّر إليه من خَيرها وشرِّها ، مُحِسًّا بذلك كُلّه إحساساً خالياً من الشوائب = ثم لا يكون « التجديدُ » تجديداً إلاّ من حِوَارٍ ذكّيٍ بين التفاصيل الكثيرة المتشابكة المعقَّدة التى تنطوى عليها هذه الثقافة ، وبين رؤية جَدِيدةٍ نافذة ، حين يلوحُ للمجدِّد طريقٌ آخرُ يمكنُ سلوكُه ، من خلاله يستطيع أن يقطعَ تشابكاً من ناحية ، ليصَله من ناحية أخرَى وصلاً يجعله أكثر استقامةً ووضوحاً ، وأن يحلّ عُقْدةً من طَرَفٍ ، ليربطها من طرفٍ آخر ربطاً يزيدُها قوةً ومتانةً وسلاسة .

فالتجديد إذن حركةٌ دائبةٌ فى داخل ثقافة متكاملة ، يتولاّها الذين يتحركون فى داخلها كاملةً حركةً دائبةً ، عِمَادُها الخِبرَة والتذوُّق والإحساسُ المرهفُ بالخطر ، عند الإقدام على القَطْع والوَصْل ، وعند التهجُّم على الحلّ والرَّبْط . فإذا فُقِد هذا كُلُّه ، كان القطع والحلُّ سِلاحاً قاتلاً مدمّراً للأمة ولثقافتها ، وينتهى الأمر بأجيالها إلى الحَيْرةِ والتفكُّك والضَّياع ، إذ يورِّث كُلُّ جيل منها جِيلاً بعده ، ما يكون به أشدَّ منه حَيْرَةً وتفكُّكاً وضياعاً .

هذه هى العاقبة التى تفرضُ نفسها فرضاً ، وما أبشَعَها من عاقبة .

فما ظنُّك إذن بالعاقبة ، إذا كان القطع والحلُّ مُرادًا لذاته ، وكان مُرَادًا أيضاً أن لا يكون معه أو بعده وصلٌ وربطٌ فى داخل التكامل والتماسُك الذى يجعل لهذه الثقافة معنىً وحياةً وحركة ؟ = وما ظنك بالعاقبة إذا كان هذا ، ولم تكن الأفكارُ « المجدِّدة » إلاّ ترديداً لصياغة غريبة ، صاغها غريبٌ عن الثقافة ، منتسبٌ إلى ثقافة غازيةٍ مُباينةٍ ، وهو مع ذلك ناقص الأداة ، لا خبرةَ له بتشابكها وعُقدها ، ثم هو فى نفسه لا يضمر لها إلاّ التدمير والاستهانة ، لغرضٍ راسخ فى قرارة النفس ؟ = ثم ما ظنُّك أيضاً بالعاقبة ، إذا صار « التجديد » عند أصحاب الثقافة أنفسهم ، لا يزيدُ على أن يكون « سَطْواً » مجرَّداً على هذه الصيغ الغريبة ، ثم إقحامُها إقحاماً على ثقافتهم ، لا لحاجة أدَّى إليها النظر والفكر والتدبُّر ، بل بالهوى وحبِّ الظهور من مُفَرَّغٍ ، أو من شبيهٍ بالمفرَّغ ، من ثقافته المتكاملة المتماسكة ؟ ما أبشع العواقبَ عندئذٍ ، وأبشعها التَّدهْوُرُ المستمرُّ !

وكذلك كان مقدَّراً لجيلنا نحنُ ، جيل المدارس المفرَّغ ، أن يتلَقَّى صدمة التدهوُر الأولى ، لأنه نشأ فى دُوّامة دائرةٍ من التحوّل الاجتماعى والثقافى والسياسىّ . جئنا فى أعقاب حرب الاستعمار الكبرى ، وهى التى يسميها أصحابها « الحرب العالمية الأولى » . خرج منها « الحلفاء » منصورين ، وبدأوا من فَوْرهم فى تقسيم عالمنا وتبديده ، وأخذ كلُّ مستعمر منهم يشدّد قبضته على ما وقع فى يده من الغنائم . وبالدهاء والمكر والسطوة ، جعل يدفَع هذا التحوّل دفعاً شديداً ، لكى يتمَّ له أن يُخْضِع عالمنا « المتخلّف »

لحاجات عالمه « المتحضّر » !! وجئنا أيضاً ، فى مصر ، مع الرجّة العظمى التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ ، والتى انتهت بعدَ قليل بفجيعة مزَّقت الأمة تمزيقاً مفزعاً ، بفضل الدستور والانتخابات وتعدّد الأحزاب ، وتكالب كلِّ حزبٍ على الظفر بالحكم تحت علم السيادة البريطانية المتحضِّرة !! وتبدّدت نفوسُنا وتفتَّتت ، تحت ضغط هذا التحوّل السريع المُتَمادِى المُرِيب المروِّع .

وفى ظلِّ هذا كُلِّه ، كما قلتُ ، انتعشت الحركة الأدبيّة والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، [1] وأقول « غير واضح المعالم » ، لأنَّ الأساتذة الكبار الذين انتعشت على أيديهم هذه الحركة ، كانت علائقهم بثقافة أمتهم غيرَ ممزَّقةٍ كُلَّ التمزيق = أما نحن ، جيل المدارس المفرَّغ ، فقد تمزقت علائقنا بها كُلَّ التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذةُ ، فيما له علاقة بهذه الثقافة ، باطِلاً أو كالباطل . فهو لا يقع منّا ومن أنفسنا بالموقع الذى ينبغى له من الفهم ، ومن الإثارة ، ومن الترغيب فى متابعته ، ومن إعادة النظر فى ارتباطنا بتلك الثقافة = بل كان عند كثير من أهل جيلنا غيرَ مفهومٍ البتة ، فهو يمرُّ عليه مروراً سريعاً لا أثر له . أمّا الذى أخذهُ جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذى تتضمَّنه كلمة « التجديد » = وإلى هذا الرفض الخفيِّ للثقافة التى كان ينبغى أن ننتمى إليها = وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التى أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكى نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجه فى التفكير ، كما صوّروا لنا ذلك فى خلال ما يكتبونه !! وغابَ عن الأساتذة الكبار أن الزَّمن الدوّار الذى يُشيبُ الصغير ويُفْنِى الكبير ، هو الذى سيتولىّ الفصلَ بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلَّمُون اليومَ على أيديهم .

* * *

والقصةُ تطولُ ، ومع ذلك فليس هذا مكانُ قَصِّها على وَجْهها ، إذا أنا أردتُ أن أقيِّدَ ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك

---

(١) انظر ما سلف ص : ١٥٣ ، ١٥٤

إلى يومنا هذا أيضاً . ويكفى أن أقول : إن جيلنا ، جيلَ المدارس المفرَّغ ، كان فى خلال ذلك قد كبِرَ ، وانفلقَ عن فريقين : فريقٍ قانعٍ بما تجود به عليه أقلامُ الأساتذة الكبار من « تلخيصٍ » و « تجديدٍ » ، فهو لا يزالُ إليهم متطلّعاً ، وبهم متعلّقاً ، ثم لا يزيدُ = وفريقٍ يسَّر الله له السبيلَ إلى معرفة المنبع ، فرأى نفسه قادراً على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته . لقد اطَّلع على أصول ما كانوا يلخّصُونه ، وما كانوا « يجدّدون » به مكتوباً بلغته أو بلغاته على الأصحّ . وأحسَّ أيضاً أن « الأصل » الذى يقرؤه بلغته ، مضيءٌ حيٌّ ، مكثفٌ ، عميقُ الدلالة = وأن تلخيص الأساتذة وتجدِيدهم كابٍ لونُه خامدةٌ حياتُه ، متخلخِلٌ ، قريبُ المتناوَل .

ومع هذا الذى أَحَسَّ به ، فإنه من حيث لا يدرى يشعر بتفوُّق هؤلاء الأساتذة الملخِّصين المجدّدين عليه ، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق ، مع أن تفسيره يسيرٌ هينٌ . وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمتهم كانتْ علائقَ لم تمزق كلَّ التمزيق ، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يُعْطوا تلخيصهم نفحةً من سرّ أنفسهم يمتازون بها ، وأن يكونوا أقدرَ منهم على « التجديد » ، لأن ما عندهم كان يمكِّنهم من الاختيار ، ثم من نَفْيِ ما هو غثٌّ أو ساقطٌ ، ومن إخفاءِ « السطو » إخفاءً فيه ذَرْوٌ من المعرفة . أمَّا هُمْ ، فقد فُرِّغُوا تفريغاً يكاد يكون تامًّا من أصول ثقافتهم التى ينتمون إليها (بالوراثة) ، ولذلك فهم يحسُّون فى أنفُسهم ما يشبه العجزَ ، إذا ما قارنوا بين أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة .

وهذا هو الموقف العصيبُ الذى كان فيه جيلُنا يومئذٍ ، ثم استمرَّت عليه الأجيال بعدَنا ، وهى تشعُرُ شعوراً واضحاً بتفوُّق هذا الجيل من الأساتذة الكبار « الملخّصين » و« المجدّدين » مع أنّ الأمرَ ، كما قلتُ ، قائم فى الحقيقة على « السطو » البيِّن أو الخفىِّ ، على أعمالِ ناسٍ آخرين يكتبون فى لُغَاتِهم بألسنتهم ، ويعبِّرون عن أنفُسِهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم = لا عن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحنُ ! ومع ذلكِ فإن جيلَنا والأجيالَ التى تتابعت بعده ، لم تُرِدْ

أن تكشف هذه الحقيقة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كشفوا أمر أنفُسهم ، لأنهم لا يستطيعون شيئًا آخر سوى منهج « التلخيص » و« التجديد » ، على السُّنَّة التى سَنَّها لهم هؤلاء الأساتذة الكبار . ولو فعلوا ، لما بقى لهُم شىء يقولونه ، حين يَرِثون موقعَ الصدارة للتعليم والتثقيف بعد هؤلاء الأساتذة الكبار .

ولذلك ، فقد قنعوا بالوقوف تحت مظلَّة « التجديد » و « عالمية الثقافة » و « الثقافية العالمية » ، و « الحضارة الإنسانية » ، وسائر هذه المبهمات التى أشرت إليها آنفاً ، وتكاتموا هذه الحقيقة بينهم ، ثم كان الأمرُ بعد ذلك كما قيل فى المثل : « خلا لكِ الجوُّ فبيضى واَصفِرِى » !!

...

ومع ذلك ، فأنا أحبُّ أن أقرِّر هنا حقيقة أخرى تعين على توضيح هذه الصورة التى صوَّرتها ، وكنت أنا أحد شهودها فصوّرتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين ، وهو أحد هؤلاء الأساتذة الكبار ، سوف يشهد فى سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أى من موقع الأستاذية ، ومن وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة .

ومعلومٌ أن الدكتور طه فى سنة ١٩٢٦ ، حين ألقى محاضراته ، « فى الشعر الجاهلىّ » ، زعمَ أن له منهجاً يدرسُ به تُراث العرب كُلَّه ، وسمّى هذا المذهب « مذهب الشكّ » ، فكان فيما قاله عن مذهبه ، إن هذا المذهب سوف : « يقلب العلم القديم رأساً على عقبٍ . وأخشى إن لم يمْحُ أكثره ، أن يمحوَ منه شيئاً كثيراً » [فى الشعر الجاهلى ص : ٣] . ثم انطلق فى كتابه هذا مستخِفًّا بكُلِّ شىءٍ ، بلا حذر ، حتى قال : « والنتائج الملازمة لهذا المذهب الذى يذهبُه المجدّدون عظيمة جليلةُ الخطر ... وحسبُك أنّهم يشكُّون فيما كان الناسُ يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناسُ على أنه حقٌّ لا شك فيه . وليس حظُّ هذا المذهب منتهياً إلى هذا الحدّ ، بل هو يجاوزهُ إلى حدود أخرى أبعدَ منه مدىً وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تغييرِ التاريخ ، أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك فى أشياء لم يكن يباح الشك فيها » : [فى الشعر الجاهلى : ٦] .

والاستخفافُ الذى بنى عليه الدكتور طه كتابه معروفٌ ، أمَّا الذى كان يقوله فى أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافُه عندئذ يتجاوز حدّه حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاءِ المحضِ بأقوال السلف . وأمَّا الذى كان يدورُ بين طلبته الصغار « المفرَّغين » من ثقافتهم ، كما قلت ، فكانَ شيئاً لا يكادُ يُوصف ، لأنه كان استخفافَ جاهلٍ واستهزاءَ خَاوٍ ، يردّدُ ما يقوله الدكتور ، لا يعصمهُ ما كان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى مرّ الأيامِ ، كانت العاقبة وخيمةً جدًّا . كَبِرَ الصِّغارُ الذين تأثَّرُوا بما قاله فى سنة ١٩٢٦ ، فقد فَطَمتهم السنُّ ، وفَطَمتْهم معرفةٌ جديدة حازوها ، وتنكَّروا ، أو كادوا ، للثَّدْى الذى كان يُرْضعهم . وخرجت « الطلائع » تدفعها الحمّية وطلبُ الصَّدارة فى ميدان « التثقيف » و « التجديد » ، وبدا كأنَّهم جاؤوا يزاحمون الأساتذة الكبارَ فى مواقع الأستاذية . وساروا على نفس النَّهج الذى مَهَّدوهُ لهم من « التلخيص » لفكر « الحضارة الحديثة » = أى الحضارة الأوربية = والذى هو فى حقيقته سطوٌ مجرَّدٌ ، ولكنَّهم لم يسيروا سيرة الأساتذةِ فى معالجة « القديم » حتَّى يُخَيَّل للناس أنه إحياءٌ للقديم وتجديدٌ له ، بل كانَ الغالبُ على أكثرهم هو « رفضَ القديم » والإعراضَ عنه والانتقاصَ له والاستخفافَ به . وعندئذ أحسَّ الدكتور طه نفسه بالخطر ، وهو هو الذى أضاء لهم الطريق بالضجَّة التى أحدثها كتابه « فى الشعر الجاهلى » !!

كان إحساس الدكتور بهذا الخطر الذى تولَّى هو كِبْرَ إحداثه ، ظاهراً جدًّا ، ففى يناير سنة ١٩٣٥ = بعد تسع سنوات من صدور كتابه : « فى الشعر الجاهلى » ، سنة ١٩٢٦ = بدأ ينشر فى جريدة الجهاد مقالات انتهى منها فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكانَ مُحَصَّلها رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأوَّل فى سنة ١٩٢٦ ، الذى أعلنه فى أوَّل كتابه ، وهو قوله : « إن الكثرة المطلقة مما نُسَمّيه شعراً جاهليًّا ، ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى مُنتَحَلة مُخْتَلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثِّل حياة المسلمين وميولَهم وأهواءَهم ، أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أُشكّ فى أنَّ ما بقى من الشعر

الجاهلىّ الصحيح قليل جدًّا ، لا يمثّل شيئاً ولا يدلُّ على شىء » ، [فى الشعر الجاهلى ص : ٧] . (١)

بدأ الدكتور هذه المقالات بمقالة عنوانها : « أثناء قراءة الشعر القديم » ، (٢) وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره : « إنكم لتشقُّون علينا حين تكلّفوننا قراءةَ شعركم القديم هذا ، وتلحُّون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير فى درسه وحفظه وتذوُّقه ، لأنكُم تنكرون الزمن إنكاراً وتُلْغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن فى القرن الأوّل قبل الهجرة أو بعدها .... » إلى آخر ما صوّر به الدكتور حقيقة إحساسه بآراء من يُحِيطون به من جيلنا الذى بلغ الفِطَام واستقلَّ .

ثم قال بعد ذلك (ص : ٩ من حديث الأربعاء ج : ١) : « وقد تحدَّث إلىّ المتحدثون بأن أمثال صاحبى هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدّمت الأيام » ، وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه !

وسأحاول هنا أن ألخص ما قاله الدكتور طه بألفاظه هو ، لا بألفاظى ، لأنها شهادة أستاذ كبير ، يقول :

« والذين يظنُّون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا
« خيراً خالصاً يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا
« شرًّا غير قليل ... فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمودٍ
« وجهلٍ ، كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً .

(١) قد بينت فى بعض مقالاتى أن الدكتور طه ، قد رجع عن أقواله التى قالها فى الشعر الجاهلى ، بهذا الذى كتبه ، وببعض ما صارحنى به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الأقوال . ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يتبرأ به مما قال أو كتب . وهكذا كانت عادة « الأساتذة الكبار » ! يخطئون فى العلن ، ويتبرأون من خطئهم فى السر !!

(٢) انظر « حديث الأربعاء » الجزء الأول (من ص ٩ – ١٧) .

« هذا الشابّ ، أو هذا الشيخ ، الذى أقبل من أوربة
« يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسنُ الرطانة بإحدى اللغات
« الأجنبية ... يجلسُ إليك وإلى غيرك منتفخاً متنفِّشًا ،
« مؤمناً بنفسه وبدرجاته وبعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ،
« ثم يتحدَّثُ إليك كأنه ينطق بوَحْى أَبُولُّون . فيعلن إليك
« فى حَزْم وجَزْم أن أمر « القديم » قد انقضى ، وأن الناس
« قد أَظَلَّهم عصر « التجديد » وأنَّ الأدب القديم يجبُ
« أن يُتْرَك للشيوخ الذين يتشدّقون بالألفاظ ، ويملأون
« أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ ،
« وأن الاستمساك بالقديم جمود ، والاندفاع فى الحياة إلى
« أمامٍ هو التطوُّر ، وهو الحياةُ وهو الرقىُّ . هذا الشاب
« وأمثاله ضحيّةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، لأنه لم يفهم
« هذه الحضارة على وجهها ، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر
« القديم ولا تنفِرُ منه ولا تنصرف عنه ، وإنّما تحبِّبُه وترغِّبُ
« فيه وتَحُثُّ عليه ، لأنها تقوم على أساسٍ منه متينٌ ....

« هذا الشابُّ ضحيّةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ،
« أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشرُّه ليس مقصوراً
« عليه ، وإنما يتجاوزه إلى غيره من الناس . فهو يتحدَّث ،
« وهو يعلِّمُ ، وهو يكتُبُ ، وهو فى هذا كُلِّه ينفُثُ السُّمَّ ،
« ويفسد العقول ، ويمسَخُ فى نفوس الناس المعنى الصحيح
« لكلمة « التجديد » . فليس التجديد فى إماتة القديم ،
« وإنما التجديد فى إحياء القديم ، وأخذ ما يصلُح منه للبقاء .

« وأكادُ أتّخذ الميلَ إلى إماتة القديم أو إحيائه فى

« الأدب ، مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم
« ينتفعوا بها ، فالذين تُلْهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم
« حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ،
« ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنّما اتخذوا
« منها صُوَراً وأشكالاً ، وقلّدوا أصحابها تقليد القِردَةِ ،
« لا أكثر ولا أقلّ !!

« والذين تَلْفِتُهم الحضارة الحديثة إلى أنفُسِهم ، وتدفَعُهم
« إلى إحياء قديمهم ، وتملأُ نفوسهم إيماناً بأن لا حياةَ لمصر
« إلاّ إذا عُنِيتْ بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامىّ ،
« وبالأدب العربىّ قديمه وحديثه ، عِنَايتَها بما يمسُّ حياتها
« اليومية من ألوان الحضارة الحديثة = هم الذين انتفعوا ، وهم
« الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن
« ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين » .

وهذه الشهادة ، من أحد الأساتذة الكبار ، الذين سنُّوا لمن بعدهم السُّنَن فى الحياة الأدبية وفى مناهج تفكيرها ، شهادة مهمّةٌ جدًّا لتاريخ الحياة الثقافية التى امتدَّت بعدهم إلى يومنا هذا ، بَلْ هى تكشف عن جُذُور التدمير المفزع الذى يشمل اليوم المُجْتَمع العربىَّ كُلّه حيث تُنْطَق العربيّة ، [1] لا بَلْ حيثُ يَدِينُ غيرُ العرب بالإسلام ، ويُوجب عليهم إسلامُهم أن يضعُوا العربية فى المقامِ الأوَّلِ ، لأن إسلامَهم لا يكون إسلاماً

---

(١) لم ينتصب أحد لوصف هذا التدمير المفزع الذى يشترك فى جريمته مثقفون كثيرون ، فى الأدب ، وفى العلم ، وفى التاريخ ، وفى الفلسفة ، وفى الاجتماع ، وفى السياسة ، وفى الفن كله من مسرح وسينما وموسيقى وغيرها ، وكل منهم ، كما يقول الدكتور طه : « ينفث السم ويفسد العقول ويمسخ فى نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد » . وقد زاد الأمر ، فلم يبق مقتصراً على التعليم والكتابة والتأليف والصحافة ، بل دخل كل بيت دخولاً مفزعاً عن طريق الإذاعة والتليفزيون ، بلا رقيب ولا حسيب !

إلاّ بالقرآن ، وهو الذى نزل عليهم بلسان عربىّ مبين ، وإلاّ بسنَّة الرسول الأمىّ العربىّ ، ﷺ ، وهى أيضاً بلسان عربىّ مبين .

وليس من همّى هنا أن أفسر هذه الشهادة ، ولا أن أوضِّح مَدَى صِدْقها حيث صدق توقُّع الدكتور فى تكاثر عَدَد مَنْ وَصَفَهُم من « المثقفين » فى شهادته ، وأخشى أن أقول إن هذه الصفة ، على نقصها ، تشمل عامة المثقفين فى زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧ = ولكنْ الذى يجب علىَّ أن أقوله : إن شهادة الدكتور على اختصارها ، إنما هى وجهٌ آخر لشهادتى التى كتبتُها هُنا ، قالها هو من موقع « الأستاذية » ، وقُلْتها أنا من موقعى بين أفراد جيلى الذى أنتمى إليه ، وهو جيل المدارس المفرّغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل الذى تلقَّى صدمة التدهورِ الأولى ، حيث نشأ فى دُوَّامةٍ من التحوُّل الاجتماعى والثقافىّ والسياسىّ ، كما أشرت إليه آنفاً [ص: ١٦١] .

...

ثم قلت فى ختام ما سميته « لمحة من فساد حياتنا الآدبية » [كتاب المتنبى : ١٢٢ ، ١٢٣] .

أمّا الآن ، فإنى أتلفَّت إلى الأيام الغابرة البعيدة ، حين كنت أُشْفِق من مَغَبَّة السُّنن التى سَنَّها لنا الأساتذة الكبار ، كسنّة « تلخيص » أفكارِ عالَم آخر ، ويقضى أحدَهُم عمره كله فى هذا التلخيص ، دُونَ أن يشعُرَ بأنّه أمرٌ محفوفٌ بالأخطارِ ، ودون أن يستنكف أن ينسبَهُ إلى نَفْسه نسبةً تجعله عند الناسِ كاتباً ومؤلّفاً وصاحبَ فكرٍ ، هذا ضربٌ من التدليس كريهٌ . ومع ذلك فهو أَهوَنُ من « السطو » المجرَّد ، حين يعمد الساطى إلى ما سطا عليه ، فيأخذهُ فيمزّقه ثم يفرِّقَه ويُغرقه فى ثرثرةٍ طاغيةٍ ، ليخفى معالِمَ ما سطا عليه ، ولِيُصبح عند الناس صاحب فكر ورأى ومذهبٍ يُعرفُ به ، ويُنْسَبُ كُلُّ فضله إليه . ومع ذلك ، فهذا أيضاً أَهونُ من « الاستخفاف » بتراثٍ متكامِلٍ بلا سببٍ ، وبلا بحثٍ ، وبلا نظر ، ثم دعوة من يَعْلمونَ عِلماً جازماً أنه غير

مطيقٍ لما أطاقوا ، إلى الاستخفافِ به كما استخفُّوا . ومع ذلك أيضاً ، فهذا أهون مما فعلوُه وسنُّوه من سُنّة « الإرهاب الثقافىّ » الذى جعل ألفاظ « القديم » و « الجديد » و « التقليد » و « التجديد » و « التخلُّف » و « التقدّم » و « الجمود » و « التحرُّر » ، و « ثقافة الماضى » و « ثقافة العصر » = سياطاً مُلْهِبَةً ، بعضُها سياطُ حثٍّ وتخويفٍ لمن أطاعَ وأتَى ، وبعضها سِياطُ عذابٍ لمن خالف وأبَى .

أتلَّفتُ اليوم إلى ما أشفقْتُ منه قديماً من فعل الأساتذة الكبار ! لقد ذهبُوا بعْدَ أن تركُوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدُوا ، حياةً أدبيَّة وثقافية قد فسدت فساداً وبيلاً على مَدَى نصفِ قرنٍ ، وتجدّدت الأساليب وتنوَّعَت ، وصار « السطو » على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى فى الناس طليقاً عليه طَيلسانُ « البحث العلمى » و « عالميّة الثقافة » و « الثقافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصولُه إلا ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غُرباء صياغةً مطابقةً لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كُلِّ قضيّة ، واختلط الحابل بالنابل ، قُلْ ذلك فى الأدب والفلسفَة والتاريخ والفنِّ أو ما شئت ، فإنّه صادقٌ صِدْقاً لا يتخلَّف . فالأديب منَّا مصوِّرٌ بقلم غيره ، والفيلسوف مِنَّا مفكِّر بعقل سواهُ ، والمؤرخِّ مِنَّا ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنّان منَّا نابضٌ قلبُه بنبضٍ أَجْنبىّ عن تراثِ فنِّه .

وأما الثرثرةُ والاستخفافُ ، فحدِّث ولا حرج ، فالصبىُّ الكبير يهزأ مزهوًّا بالخليل وسيبويه وفلانٍ وفلانٍ ، ولو بُعِث أحدُهم من مَرْقَدِه ، ثم نظر إليه نظرةً دون أن يتكلَّم ، لألجمه العرَقُ ، ولصارَ لسانُه مُضْغَةً لا تتلجلجُ بين فكَّيه ، من الهَيْبة وحدَها ، لا من علمه الذى يستخفُّ به ويهزأ .

واللهُ المستعانُ على كُلِّ بليَّة ، وهو المسئول أن يكشفَها ، وهو كاشفُها بمشيئته ، رَحمةً بأمَّةٍ مسكينة ، هؤلاء ذُنوبُها كانوا ، وأشباهٌ لهم سبقُوا ، وغفرانَك اللهمَّ .

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧
٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

أبوفهر
محمود محمد شاكر



الفهـارس

صنعهـا

الأسـتاذ/ أحمـد الشريف

رئيس المجلس المحلى بأسـوان

١ – الحديث النبوى الشريف

« ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس » ٥٠، ١٥٠

« من سئل عن علم فكتمه » ٨٤ ، ١٢٢

° ° °

٢ – الأمثال العربية

« اتخذ الليل جملًا » ٩٤

« التقت حلْقَتا البطان » ٣٨ ، ٥٣

« بلغ السيل الزُّبَى » ٨١

« لليدين وللفمِ » ٩٤

« مِثْلَ تَحِلَّة القَسَمِ » ٧٩

° ° °

٣ – الأمثال العاميّة

« مَا أسخم من سِتِّى إلا سيدى » ١١١

° ° °

٤ – الشـعر

(١) خرجتُ مع البازى علَىَّ سوادُ — بشار : ٩٤

(٢) متطلبٌ فى الماء جذوة نار — أبوالحسن التهامى : ٦٨

(٣) وفى الصدر حَزَّاز من الوجد حَامزِ — للشماخ : ١٩

(٤) أم كان شيئا كان ثم انقضى ؟ — للعَرْجىّ : ٢٥

(٥) أن تحسَبُ الشحمَ فيمن شحمُه وَرَمُ — المتنبى : ٢٨

(٦) لعلّ له عذرًا وأنتْ تلومُ — : ٩٨ ، ١٠٤

(٧) مفتَّحةً عُيونُنُهم نِيَامُ — المتنبى : ١٢٠

* * *

٥ - الكتب

* * *

٦ - الصحف والمجلات

* * *

٧ - الأعـلام

° ° °

٨ - المعالم والمؤسسات

• • •

٩ - المواضع والبلدان

فهرس

رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا

• • •

مقدّمة هذه الطبعة

وفيها ذكر نصٍّ جديدٍ مُهِمٍّ جدًّا



• كان من قصة كتابى « المتنبىّ » أنى كتبتُه سنة ١٩٣٦ م ، وافترضتُ فيه فرضاً يُعِيننى على تفسير بعض ما فى شعره ، وعلى تفسير ما فى أخبار حياته وصِلاته بأهل عصره ، وكان هذا الفرض الذى افترضتُه أنّه علوىُّ النسب ، كان مجرّدَ فرضٍ جرىء . وكان ما كان من رضىً واستنكار ، وبعد اثنتين وعشرين سنة (سنة ١٩٥٨ م) أطرفنى أحمد راتب النفاخ صديقى وتلميذى وأستاذى بترجمةٍ كتبها ابن عساكر ، منقولةً عن تاريخه ، وفيها أنّ المتنبىّ أرضعته امرأةٌ علويةٌ من آلِ عبيد الله . فهو إذنْ أخو العلويين من الرضاعة ، وبعد أربع سنوات أيضاً سنة ١٩٦٢ م ، تلقَّيتُ من أخى أحمد ترجمةً للمتنبى كتبها ابن العديم فى كتابه « بغية الطلب » ، فكان فيها أيضاً ما فى ترجمة ابن عساكر أنّه أرْضعته امرأة علوية ، وكان فيها فوائد كثيرة عن المتنبى لم نعرفها من قبل ، (انظر كتاب المتنبى : ٥٤ – ٥٦) ، كان هذا كُلُّه مفاجأةً .

• ثم كانت مفاجأةٌ أخرى جاءتنى فى سنة ١٩٨٤ م ، فإن صديقى وولدى الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العُثَيْمين أهدانى نسخة مصوّرة من ديوان المتنبى ، بشرح الواحدى (أبو الحسن على بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٨ هـ) ، وهى نسخةٌ عتيقة نفيسة كتبت فى سنة ٥٩٣ هـ فوجدت فى الورقات الأخيرة منها ترجمة للمتنبىّ كتبها على بن عيسى الرَّبَعى النحوى ، (انظر باب التراجم ص : ٥٨٥) ، فكانت أيضاً مفاجأة أخرى ، فإذا الذى كان خبراً يذكُرُه المترجمونَ ، صار حديثاً يحدِّث به المتنبىُّ عن نفسه بلسانه ، رجلاً هو الرَّبَعِىُّ الذى كان آخر من لقى المتنبى وودّعه وهو بشيراز ، ولقى المتنبى بعد ذلك بأيامٍ قليلةٍ مصرعَهُ مقتولاً ، كما تعرف ذلك فى ترجمته .

يقول على بن عيسى الربعىّ :

« وقال لى : مولدى بالكوفة ، ورَضَعتُ بِلِبَانِ عَلَوِيّةٍ من آل عبيد الله بن يحيى » ،

(انظر التراجم ص : ٥٨٩ ، وانظر التعليق عليه) .

وكانت فى هذه الترجمة غرائب ، منها خبرُ ابن عمّ للمتنبى بالكوفة ، رآه الربعىُّ ، وذكر له نسبه ، وأنه لا يعرف باق نسبه ، لأنه منقطع ، وليس فى شىء من الكتب ، وهو مهمٌّ جدًّا ، (ص : ٥٩٠) = وخبرٌ مهم جدًّا فى الدَّخلة الأولى التى دَخلها المتنبى بغداد مدينة السلام خارجاً إلى فارس ، وله علاقةٌ وثيقة جدًّا بحال المتنبىّ مع العلويين (ص : ٥٩٠ ، والتعليق عليه) = وذِكر راويةٍ للمتنبىّ ، لم نجد له ذكراً فى تراجمه (ص : ٥٩٢) = وذِكْرُ عامل رَامَهُرْمُزَ من قبل معزّ الدولة ، وخَدَم أبا الطيب وقت اجتيازه بها خارجاً إلى ابن العميد (ص : ٥٩٥) = وخبرُ رجلٍ رأى أبا الطيب ينشد شعرَه بعضَ أهل سُوق البزّ (ص : ٦٠١) = وخبرٌ عن المتنبىّ فى دخلته الثانية إلى بغداد ، فى دار أبى الحسن العروضىّ ، ودخل عليه هرون بن المنجمّ وأنشده بيتاً ، فأطرقَ أبو الطيب وألحق به بيتاً آخرَ قاله ، فأُعْجِب الناس بسرعة خاطره (ص : ٦٠٢) = وأخبارٌ عن المتنبىّ فى شأن كتمان نسبه ، ليست فى شىء من الكتب ، (ص : ٦٠٢ ، ٦٠٣) = وخبرٌ فى قراءة الربعىّ على المتنبى شعرَهُ ببغداد وشيراز ، وهو مُهِمٌّ ، (ص : ٦٠٣) = أمّا الزيادات على شعر المتنبىّ فى ديوانه ، وليست فى زيادات شعر المتنبىّ للراجكوتى ، فهى فى هذه الصفحات : ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، وعِدَّتها ثلاثة عشر بيتاً ، لم أرَ منها شيئاً فى الكتب التى بين يدىَّ .

والحمدُ لله أوّلاً وآخراً .

...

نص الكلمة التى ألقيت عند
تسلُّم جائزة الملك فيصل العالمية
عن « كتاب المتنبى »



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله فاطر السموات والأرض ، المُسْبِغ نِعَمه على خلقه ظاهرةً وباطنةً ، لا تحيطُ بشكرها ألسنة الشاكرين والذاكرين والمسبِّحين ، والحمد لله الذى اصطفى من عباده النبيَّ الأمِّيَّ رسولاً إلى العالمين ، وأوحَى إليه هذا القرآن بلسانٍ عربيّ مبينٍ يكون ذِكْرًا له ولقومِه دَهْر الداهرين . الحمد لله وحده لا شريك له ، وصلّى الله على رسوله وسلَّم تسليماً كثيراً طيِّباً مبارَكاً فيه ، وصلّى الله على أبويه الرسولين الكريمين إبرهيم وإسمعيل وعلى المبلّغين رسالاتِ رَبِّهم من الأنبياء والمرسلين .

* * *

لستُ أدرى كيف أستطيع أن أحمِّل هذا اللسان العاجزَ عبئًا لم يتحمَّل مثله قطُّ ، إذ أقف أوّل مرةٍ فى حياتى بين مثل هذا الحفل المحفوف بهيبة المُلْك ، وجلالِ العلم ، وأُبَّهة الفضل ، ثم أطالبُه أن يبينَ عمّا يجيشُ فى صدرى من معانٍ ، وأنا فى خِلال ذلك نَهْبٌ مقسَّم لخوالجَ متناقضة ، تكبَحُنى رهبةٌ تُورثُ الخوفَ والتوجُّسَ والإشفاقَ ، وتستحثُّنى نشوةٌ تُثِير الشجاعة والجرأةَ والإقدامَ . وأىُّ إقدامٍ أغربُ من إقدامى على المثولِ بينكُم ! وأىُّ جرأةٍ أعجبُ من جَسَارتى على مخاطبتكم ! وأىُّ شجاعةٍ أعظمُ من اقتحامى إليكم سُدُود الرهبة والتوجُّس والخوف والإشفاق ، حتى وقفتُ مثل هذا الموقف باسطاً لسانى بالشكر ، مجاهراً بما يوجبه علىَّ عرفانُ الجميلِ وحسنِ الصنيع .

ومع ما يُخَامر نفسى من الرهبة ، وقلبى من الخوف ، ولسانى من العجز ، تجتاحُنى سَعادة غامِرَة ونشوةٌ بهيجة ، بأن أتاح الله لى فرصةَ عزيزةً نادرةً ، اهتبلتُها خَلْسَةً من دهرٍ شحيح ضنينٍ ، لكى أعبِّر بلسانٍ طليقٍ عن فرحة قديمة لم تزل مكتومةً فى سرِّ

قلبى ، منذ سمعتُ بخبر إنشاء « جائزة الملك فيصَل العالمية » ، فى سنة تسع وتسعين وثلاثمئة بعد الألف ، وقد أوشك القرنُ الرابعَ عشر للهجرة أن ينصرم . فيومئذ تمثَّلت لى الأيَّام المقبلة من القرن الخامسَ عشر الذى نحنُ اليوم فى دَرَج مطالعه . رأيتُ يومئذٍ فيما رأيتُ عالماً عربيًّا إسلاميًّا قد انتفضَ ، وهبَّ يمسَحُ عن وَجْههُ غفوةً طويلةً ، وأفاقَ من سِنَةٍ كانت قد أخذته ورَبَضَت به . ثم رأَيْتُ عالماً يموجُ بالشوامخ من علمائه وأُدبائه وشعرائه ومفكّريه وكُلّ السَّاكِنِيهِ على اختلاف ألسنتهم وألوانِهمْ ، فإذا أظَلَّهم ميعادُ « جائزة فيصلِ العالمية » ، لم يبق على الأرض منهم شابٌّ يافعٌ ، ولا فتىً ناضجٌ ، ولا كَهْلٌ سويٌّ ، ولا كبيرٌ مُتَقادِم الميلادِ ، ولا شيخٌ فَانٍ بَرَى الدهرُ عظامَه ، إلاّ وذِكْرُ هذه الجائزة جارٍ على لسانه مع التسبيح ، مَاثِلٌ لعينيه كعمود الفَجْر ، مَقْروناً بصورة فَيْصلِ الذى استطاع فى العاشر من رمضان أن ينزع القناعَ عن عالمٍ آخرَ كانَ يأخذُ منَّا « القوةَ » ، ليزداد بها قوةً على قُوَّته ، واستعلاءً على استعلائه ، وغَطْرسة على غَطْرسته ، ويعطينَا لقاءَ ذلك ما نتحاسد عليه ، وما يبدِّد البقية من قوتنا ، ويجعل بعضنَا يبغى على بعضٍ . فلما سقط القناعُ يومئذٍ ، تجلَّت كلَمْحِ البرقِ فضيحةُ ذاك العالم ، وتَعَرَّت حقيقته ، وبان لكُلِّ ذى عينين أنه كان يخدعنا بنفاقه ليسترقَ منَّا القوةَ التى هى ملكٌ لنا ، وحقٌّ لا ينازعنا فيه منازعٌ ، ثم يُزَيِّف لنا بغطرسته كُلَّ حقيقة ، ويَبْهَرُ أعيننا بدهائه ومِحَالِه ومخاتلته ، لكى نَعْمَى عن بشاعة مَكْرِهِ بنا ، وقُبْح استعلائه علينَا .

ورأيت أيضاً ، فيما ، أهلَ القرنِ الخامسَ عشر ، إذا ذكروا القرن الرابعَ عشر ، يعدُون فيصلاً رجُل هذه الأمّة وسَهْمَها حين طاشت السِّهام ، وركناً من أركانها الشداد وقد وَهَت الأركان ، فإذا ذكروا الجائزة المقرونة باسمه ، أثارتْ فى كُلِّ نفس وقلب ما تراه عياناً فى الوجوه وفى الأعين ، من بشَاشة الانتماء الحميم إلى عالم عربىّ إسلاميّ متراحبِ فوّار ، لا إلى عالمٍ آخر لا يجمعُنا وإيَاه إنتماء ولا وشيجةٌ ، وسمعتهم يومئذ يقولون : ذاكَ عالَمُهم هُمْ ، لا عالَمُنا نحنُ ما أجلَّ ما رأيتهُ يومئذ من عالَم وما أروعَها من حياةٍ . وإذا أراد اللّه شيئاً ، فكُلَ بعيد قريب .

أمّا الآن ، ونحنُ فى أول معارج القرن الخامسَ عشر ، فإنّه ليحزُنُنى ويكدِّرُ علىَّ سعادتى ونشوتى ، أنْ لم يُقَدَّرْ لى أن أجد لما تمثَّلته فى خاطرى تحقيقاً يَشْفى غُلّتى ، وما هِىَ إلاَّ حَسْوَةٌ خاطفةٌ كحَسْوِ الطائر ، بيد أنى أُومِن بأنّ ما هو كائنٌ سيكون ، بإذن الله وتوفيقه ونُصْرته لعباده الصادقين إذا صدقوا ما عاهدوا الله عليه بألسنتهم وقلوبهم ، ثم لم تفرّقهم الأهواءُ والفتن ، وإلاّ فهو الخِذْلان الكبير ، نعوذ بالله رب العالمين من خذلانه ، ونستدفع به وبرحمته كُلَّ بلاءٍ .

هذه رؤية رأيتُها يومئذٍ لعالَمٍ مستكِنٍّ وراءَ حُجُب الغيبِ ، أوجزتها لكم فى كلماتٍ . ولم يبق عندى شيءٌ يمكنُ أن أقوله لكُمْ ، سوى أنى أجدُ حابسًا يحبسُنى عن مفارقة هذا المقام الكريم بينكم . وحابسى فى مكانى قصةٌ محيِّرة لا أملك إلاّ أن أقُصَّها عليكم . وذلك أنى تلقَّيت من الأمانة العامة للجائز تهنئة بحيازتى إيّاها هذا العام ، عن كتابى « المتنبى » والذى نشرتُه سنة ١٩٧٦ ، ولا كتاب لى عن « المتنبى » سواه . فلمَّا كان بعد حينٍ ، وقرأت نصّ قرار الأمانة العامة ، أذهلنى العجبُ . فقد تبيّن لى كُلَّ التبيُّن أن الجائزة ممنوحة لكاتبٍ آخر غيرى ، كان من تصاريف الأقدار أنّ اسمه يواطىء اسمى ، واسم كتابه يواطىء اسمَ كتابى ، وقد نشر هو كتابه هذا فى سنة ١٩٣٦ ، أى منذ ثمانٍ وأربعين سنة . ومبلغُ علمى أن هذا الكاتب القديم قد غابَ هو وكتابُه معاً منذ سنة ١٩٣٧ غَيْبةً منقطعةً مستمرَّةً إلى يوم الناس هذا . فإذا كانَ قرارُ الأمانة يشهد لِسَمِيِّى الغائب بأنّه مستحقُّ الجائزة ، فإن تهنئتها لى بالجائزة ، ودعوتها إيّاى إلى الرياض ، ووقوفى الآن بين أيديكم ، تشهدُ لى جميعاً أكبر شهادة بأنى مستحقٌّ لها ، ولكن أخوفُ ما أخافُه ، أن يؤوب الكاتب القديم من غَيْبَتِهِ ، ويخرجُ على الأمانة العامَّة من سِرْدابِه متأبِّطاً كتابه ، يطالبها بحقِّه فى الجائزة . وهذا أمرٌ مخوفٌ على كُلّ حال ، ولكن ليست هذه قضيَّتى ، إنما هى قضية الأمانة العامة تقضى فيها بما تشاء . أما أنا فهيهات أن يطالبنى أحدٌ بشيءٍ استحققته بما كان من تهنئتى ودعوتى لتسلُّم جائزة هذا العام علانيةً . وأكبرُ من ذلك ، فمعى قرارٌ يُلْغِي كُلَّ قرارٍ ، هو تقديمى كتابِىَ « المتنبىّ »

إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز ، فتقبَّله بأكبر الفضلَ علىّ وعلى كتابى الذى لا كتاب لى عن « المتنبى » سواه . وهذا حسبى وحسبُ كتابى من شرفٍ باذخٍ .

لم يبق للسانى شىء يبوح به ويجاهر ، سوى الشكر . ومن شكر فقد أدَّى حقَّ النعمة ، وأدّى حَقَّ المُنْعم ، ولم يشكر الله من لا يشكُرُ الناس . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فندق الخزامى ، الرياض : ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٤

٢٥ من فبراير سنة ١٩٨٤

أبو فهر
محمود محمد شاكر

فهـرس
رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا

٠٠٠